

قُلُوبٌ

عَلَى حَافَةِ الْجَنَّةِ

الناشر



رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف فني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

دار النخبة

33 شارع السنترول - الحي الأول -

مدينة الشيخ زيد - الجيزة - مصر

تليفون: 00202 - 38511969

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

قُلُوبٌ عَلَى حَافَةِ الْجَنَّةِ

بشرى بوشارب

عدد الصفحات: 432

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ??? / 2017

ISBN: ??

قلوب على حافة الجنة

رواية

بشرى بوشارب

٢٠١٧

المنشأة للطباعة والنشر والتوزيع

إلى...

كل قروية زرعت نبتة فحصدت حبًا.
كل أم فلاحه علمت أبناءها من حصاد الأرض.
كل امرأة ريفية تحدث العالم بأمتها لتلد دكاترة وعلماء.
أمي. وقد كانت قروية حتى النخاع رغم عيشك في المدينة، وكان
لها أبناء شربوا من سواقي أرضها حتى الثمالة.
شكرًا لهن جميعًا...

(١)

— القضية في المداولة الأسبوع القادم. رُفعت الجلسة.

هكذا قالتها القاضية بصوت عال وكأنها ترددها بفرح. تستمتع وهي ترى أعين الحاضرين ملتصقةً بحركة شفيتها، وبعدها تتحول نظراتها مباشرةً لرؤية وجه المتهمين وهم محاطون برجال الشرطة وكأنهم قضبان حديدية متحركة تحوم حولهم أينما ذهبوا.

وما هي إلا لحظات حتى ساد الصمت وأغلقت أبواب القاعة، وأصبح جميع من كان فيها خارجاً أين نقلوا ثرثرتهم وأسئلتهم التي بقيت معلقةً عن مصير المتهمين الذين حوّلوا إلى السجن إلى أن يتقرر مصيرهم نهاية الأسبوع القادم.

لم تكن «بسمة» تنتظر أن تصل إلى هذه النهاية. أو ماذا ستكون النهاية بعد أن كانت رحلتها عبارةً عن طريق طويلة شاهدت من خلالها شريط حياتها الذي لم تتوقع يوماً أن يكون مأساوياً يحمل في طياته حكايتها وحكاية من عرفتهم في مشهد درامي لا يليق إلا أن يكون مسلسلاً؛ أبطاله وكأنهم حجر شطرنج تحوم فوق طاولة اللعب، والقدر هو اليد التي تحركهم.

ترجع بشريط أفكارها إلى الماضي الذي انقلب ليحول حياتها لمسرحية لم تتخيل يومًا أن يكون دورها فيه دور الضحية المظلومة أو المتمردة المنتقمة... استلقت على سريرها بعد عناء كبير؛ تذكر من صارعتهم وقد حسبتهم أحبابها وهم من لبسوا رداء الوفاء والتضحية، لكن شاءت الأقدار أن يخلعوا ذاك القناع بريح عاتية؛ فكانت الحقيقة جليةً واضحةً ترسم معالمها بكل وضوح أمام ناظري بسمة، واليوم هي ترافق كتاب ذكرياتها تكتب فيه كل ما حصل لها. أو هو من رافقها يود أن تملأ بياضه المتطفل بخصوص حياتها المميزة عن كل البشر.

ها هي اليوم تكمل هذه المذكرات وتنتظر بفارغ الصبر ما تنطق به المحكمة لتختم نهاية أسطرها المبعثرة في المذكرة وقد تركت الصمت ينصت لقلمها في حضرة الكلام وهي المسافرة بأوراقها لأماكن لم تتوقع يومًا زيارتها.

تمددت تائهة بين جدران غرفتها تعيد تلك الأحداث منذ زمن مضى ودخلت لعالم أخرجها من حجرتها ليأخذها للريف الذي كانت تقيم فيه وهي تحرك عينيها بين أسطر خطتها أناملها المرتجفة في يوم عانت فيه من اليأس والحرمان.

فتحت مذكرتها تقرأ ما خطت أناملها، عاد بها الزمن لسنوات ولت.
متذكراً ماضي والدتها وما تبعه من انكسارات وأحزان، أفراح وآلام؛
ليعود بها القطار من أول محطة انطلقت منها.

عام ١٩٦٣... / قرية أولاد عسكر. جيجل، الجزائر...

«تجري الرياح بما لا تشتهي السفن». وهبوب تلك الرياح غير من
مسارها وجعلها تأخذ منحني آخر. سفينة وسط المحيط؛ هكذا كانت
حياتي، وحياء من رسمت البسمة على شفتي ضحت بكل شيء من
أجلي. واليوم أنا أرض تدوس عليها أُمي، وهي جبل شامخ أنظر إليها
كل يوم لأكبر بها...

اعتبرتها أُمًّا مثقفةً رغم جهلها لأنني بفضلها شغلت أهم المناصب،
وهي في عيني سيدة مجتمع بالرغم من أنها وُلِدَتْ فقيرةً ابنة الأرض لا
تعرف سوى تقاليد الغرس والحصاد إلا أنها تاج فوق رأسي أفخر به
أيما وجدت.

كانت حياة أُمي شاقةً صعبةً، ترعرعت في منزل متواضع وكبرت في
قرية جميلة؛ تمتزج نسائهما بتغريد العصافير، وأرضها الرحبة برزقها
ومائها، وروعة ثمارها وخضرتها وظلالها، ومنابعها وشموخ جبالها،
ونغمات الوادي وخريره وهو يجري بين المروج...

أما منازلها فغُطِّيتَ بقرميد أحمر، وكانت وكراً لعش طائر السنونو. وهي تحتضن بداخلها وفي كل بيت بقرةً تنتج منها زبدةً طريةً ولبنًا صافيً تصنعه نسوة القرية من القربة المصنوعة من جلد الماعز.

ترعرعت أمي يتيمةً لا تعرف والدها. ووجدت نفسها مسؤولةً عن أمها المقعدة. رغم نعمة أظافرها إلا أنها كانت تعتني بها وتحرص كل الحرص على تلبية رغباتها وحاجاتها. لكن ما كان يقهرها هو ظلم زوجة أخيها لها، فقد جعلت منها أمةً تنفذ أوامرها وتليي رغباتها دون توقف، تعمل نهارًا مليئةً برغبة خمسة أفراد: شقيقها وأبناءؤه وزوجته المتسلطة... وتسهر ليلاً لتخفف من أوجاع والدتها المنهكة؛ وقد نهب الزمن من صحتها وانكمش وجهها الصغير، وأضحت كرضيع ينتظر والدته لتعتني به كل ليلة. هكذا كان حال نعيمة وهي البنت الهادئة الراضخة لأوامر زوجة لا تعرف طريقاً لمعنى الرحمة والرفقة.

كانت والدتي: «نعيمة» من أجمل فتيات القرية، وكان عملها المعتاد كل يوم هو الطبخ وجلب الماء من العين وحرث الأرض، والاعتناء بأمها المقعدة، وبعدها تحضير الطعام والسهر على راحة الزوجة المتسلطة رفقة ثلاث أبناء.

كل هذا كان يحدث أمام عيني شقيقها ضعيف الشخصية؛ يشاهد تسلط زوجته «فاطمة» وبؤس والدته وشقيقته ولا يحرك ساكنًا. همه

الوحيد إرضاء زوجته على حساب أخته والرضوخ لأوامرها فقط حتى لا يسمع صراخها وأسطواناتها المعتادة وهي تعيدها كل يوم.

- متى تكون لنا حياتنا المستقلة ونحن نفتح بيتنا ملجأً للمعوقين والعوانس

وكانت تقصد بكلامها الجارح أمه وشقيقته. فكان رد هاتين البائستين سوى دموع تنهمر في صمت وقد انكسر ظهرهما بعد وفاة صاحب المنزل؛ ذلك الرجل الشهم الصلب، لتتحول حياتهما إلى جحيم تتأرجح بين الخوف والضعف.

وأضحت حياة نعيمة جحيماً تعيشه في صمت لا تحرك شفيتها إلا بابتسامة لا تفارق وجهها. وقد أبت الزواج خوفاً على والدتها، وجعلت من نفسها أمةً لزوجة أخيها التي أغمضت الغيرة والحسد عينيها فقط لأن الجميع كانوا يحبون نعيمة تلك الفتاة الهادئة الرزينة...

لكن الحظ كان دائماً يخالف بسمتها ويزرع الألم داخلها ليسكن الحزن ويتربع وسط ضلوعها وهي تعاني مرارة الأيام وظلم الزمان. تنتظر بصيصاً من الأمل ليشع بنوره طريقها التي لم تعرف فيها سوى الظلم والقهر.

تتوالى الأيام لترحل والدته «سليم» و«نعيمة» وتجدر هذه الأخيرة نفسها وحيدة دون سند. تركتها من كانت تجد حضنها ملجأً لدموعها. تُوفِّيت «عائشة» لتترك ابنتها أمانةً في عنق أخيها.

وكانت آخر كلمات تنطق بها مودعة القرية التي أفنت عمرها فيها مجاهدةً مناضلةً إلى جانب زوجها إبان الاستعمار، وبعدها صامدةً شجاعةً تواجه مرارة الأيام وهي تعيل عائلتها لينتهي بها المطاف مقعدةً لا حول لها ولا قوة...

لا تحرك شيئاً من جسمها سوى عينيها وقد نزلت الدموع منهما تعبران عن ضعف ألم بها بعدما كانت القرية بأكملها تشهد لها بالحزم وقوة الشخصية ومجابهة الحياة بصعابها. لكن ترحل الأيام وتجلب الأخرى مفاجئات لم تكن يوماً في الحسبان.

جاءت الفرصة مواتيةً لتعلن فاطمة عن مكنونات قلبها وما كان ينغص عليها حياتها وبدأت في التخطيط لتزويج نعيمة وإزاحتها من طريقها لتستحوذ على الأرض وتأخذ كل شيء.

- يا ليتها كانت أشياءً ثمينة! مجرد أساور وحلي بالية، تريد زوجتك أخذها لتزيحني عن طريقها. لا أريد شيئاً يا سليم سوى سلسال الفضة أشم فيه رائحة أُمِّي أما الباقي فلا أريد شيئاً، حتى الأرض أين أفنت أُمِّي عمرها وشبابها وروتها من دمها ودموعها الصافية تريد أخذها.

حُرِّمْتُ من أعز شيء والدي وجفت دموعي لفراقهما. بعدهما لا تهمني لا أرض ولا منزل هي لكما تمتعا بها، فقط أريدك أن لا تنساني وتكون سندي يا سليم فليس لي سواك.

وانفجرت نعيمة تحدث أخاها وقد جاء ليعلمها أن هناك من تقدم لخطبتها وهو ينظر إليها منكسراً ضعيفاً منهار الشخصية لا يقدر حتى على الرد أو رفع عينيه لمواجهتها.

كانت عائلة «خديجة» من العائلات البسيطة في القرية وكان لها ابن وحيد يُدعى «مراد»؛ كان من خيرة الشباب لكنه كان منعزلاً عن الجميع لا يكثر الكلام أو التجمع.

حياته أفناها في الزرع والبذر، حتى عندما أخبرته والدته أنها تنوي أن تزوجه وستكفل بكل شيء لم يسألها حتى عن العروس وقد كان جوابه المعتاد بتحريك رأسه راضياً أو رافضاً ولا يزيد كلمة. أما اليوم وعندما قررت والدته تزويجه لأول مرة لم يرد عليها بكلمة وتركها تفعل ما تشاء.

كان مراد وحيد أمه شاباً منعزلاً عن شباب جيله. همه فلاحه الأرض وحرثها صباحاً والاختباء ليلاً بين جدران بيته المقشرة وقد أنهكتها برودة الشتاء وأمطاره، وفي الصيف حرارة شمسها وهي تلقي بخيوطها الحمراء على سقف البيت وحول جدرانها.

أما أمه فقد كان هو كل حياتها.

ترملت وقبلت بوحدتها فقط لينمو ذلك الرضيع بين أجفانها وترى عوده صلباً وقد مدته من عودها، وهي العجوز المنكمشة الملامح؛ التي أخذ الدهر من شبابها وجمالها، فأفنت عمرها في خدمة الأرض ومراقبة مراد الذي كان نور عينيها ونبض قلبها وحبها الذي دفته في كبدها فأضحى جزءاً منها.

وبعد شهر قررت العائلتان تزويج الشابين وهذا بعدما اتفقا على كل الأمور وحددا يوم الزفاف بعد أربعة أشهر حتى يتم التحضير لمراسم العرس وكل ما يلزم له.

آخر يوم لنعيمة في بيتها كان عمرها آنذاك لم يتجاوز العشرين ربيعاً، بقيت تجول بنظرها في الغرفة حتى ثبتتها في آخر المطاف عند سرير والدتها الفارغ وقد رُتّب ونُظّف كما لو كانت أمها حية، حينها تدفقت دموعها وكأنها الشلال وبكت بصوت مرتجف قائلةً:

- وداعاً أُمي. لن تحضري عرسي وأنا اليوم يتيمة أتزوج كما أراد الناس وليس كما أريد، رحلت وتركتني ريشةً ممزقةً لعبت بها الرياح كما شاءت ولا أعرف إلى أين ستأخذني بعد ذلك.

حان الموعد. فقد كان عرسًا بسيطًا اجتمع فيه أهل القرية، الفتيات يقمن بتزيين العروس وتحضيرها لتحني يديها من قبل أهل العريس، وغداً تكون ليلة العريس بحضور الشبان والجلوس بجانبه وقد حُتّت يداه وفُرش على ركبتيه منديل يملأ بأوراق نقدية من أصحابه كهدية له بمناسبة زفافه.

وهكذا رحلت نعيمة عن بيتها جارةً بذيلها آلامًا وأحزانًا وقد غابت والدتها عن أهم ليلة في حياتها، ومن جهة أخرى تحمل في قلبها أمنية الاستقرار وتكوين أسرة؛ عليها تعيش في منزل سيزيح عنها همومها وتعبها اللذان رفقاها طوال سنين خلت.



كان شابًا أسمر البشرة، له قامة طويلة فارهة. نحيل الجسم وعلامات الإرهاق بادية على ملامحه الساكنة الهادئة. وهو الرجل الصامت الذي عُرِف في قريته بهدوئه وطيبته وأخلاقه العالية.

في المقابل كان منعزلًا لا يحب كثرة اللغط والمجادلة، فمسؤوليته اتجاه والدته وفقره حتما عليه مصاحبة الجرار وثورته اللذين كانا نعم الرفيقين، يقضي معهما مجمل وقته فوق أرضه المخضرة، ليخلد في الليل أمام موقد النار المشتعلة وقد انعكس لون لهيبها الأصفر في عينيه

وهو تائه يدفن أنفاسه في جسمه بعد أن يدخن سيجارته ويخرجها ضباباً لمتترج بدخان النار...

هكذا كانت حياة مراد التي لم تختلف كثيراً عن حياة نعيمة هذه التي تعرفت عليه من خلال كلام الناس عنه، وهو كذلك لكن بشكل سطحي. ففي قرية أولاد عسكر الناس يعرفون بعضهم وأخبارهم متداولة بينهم بحكم صغر المكان وطريقة التفكير هناك.

- في الحقيقة أنا لا أعرفك جيداً، رأيتك منذ أعوام. كنت حينها فتاةً صغيرةً ممتلئة الجسم، كما أتذكر أنك كنت تقفزين فوق الأعشاب المبتلة بماء العين المتدفقة من الأرض. تحملين دلوّاً تتجهين به إلى ضفة النهر أو حافة ينبوع، هكذا بقيت صورتك محفورةً في ذهني حتى يوم أعلمتني والدتي أنها اختارتك لتكوني شريكةً تتقاسمين معي هذه الحياة القاسية المرة والتي لم أنعم فيها بيوم جميل ولا أريد أن تكوني... ثم قطع مراد كلامه وهو يحدث نعيمة التي أصبحت زوجته وتذكر بأنها أول ليلة لهما ومن المفروض أن تكون ليلة العمر، فلا داعي لينكد عليها ويخيفها من حياة هي مقبلة عليها بأمنيات فتاة تريد الاستقرار مع زوجها وتكوين عش طالما حلمت به وبنائه.

أما نعيمة فكانت خجولةً مسمرةً في مكانها لم تفتح فمها بكلمة واحدة، بل أطلقت العنان للنظر في غرفة زوجها التي أصبحت غرفتها أيضاً...

حجرة بسيطة متواضعة وقد غطوا سريرها بلحف أحمر، والأرض كسوها بزريرية مصنوعة من خيوط القماش، وقد رُصَّت ألوانها بشكل عمودي، أما الخزانة فهي متوسطة الحجم خُدِثَتْ في أماكن عديدة من جراء النقل والحمل.

حيث أعلمها بعض الفتيات قبل زواجها واللائي يمتن بصلة قرابة لمراد أنه اشتراها من السوق الأسبوعي حيث أوصى نجار القرية «عمي عمار» بأن يجلب له واحدة مع السرير وتكون في حالة متوسطة لا هي جديدة ولا قديمة وقد سمعن هذا الكلام من والدته.

عندها لاحظ مراد نظراتها ففاجأها قائلاً:

- أراك لا تتكلمين ولا تبدين رأيك بخصوص ما قلته. ما رأيك بالغرفة؟ لا أعرف إن أعجبتك أم لم تعجبك؟ لا عباراتي ولا أثاث الغرفة؟

- أنت لم تكمل كلامك، وحسبما فهمت منك أن حياتك عبئ عليك ولا تريدها أن تكون حملاً على إنسان آخر. تزوجتك لأكون أسرة سعيدة ولأسعد زوجي، واجبي أن أخدمك وأرعاك، أنا كذلك عانيت ما عانيت من أيام كانت العلقم وزاد مرارتها ظلم القدر وتجبر الناس فصبرت وتحملت.

واليوم أنا هنا لأن القدر اختارك زوجي وأنا شريكك نتقاسم محن الحياة، ولم تكن حياتي ترفاً وغنى، وإنما كانت بسيطة متواضعة لذا

فمنزلي قصر وغرفتي مملكة وزوجي تاج فوق رأسي أساعده على
هموم الدنيا ولم أصبح زوجتك لأزيد من متاعبك وحزنك وإنما قدمت
لمساندتك والشد من عزمك.

كانت كلماتها وكأنها النور، أضاءت ظلامه وأصبحت بلسماً
لجراحه وطريق يرى فيه الخضرة من بعد تعب وشقاء، ليبدأ الاثنان
حياةً يتوقعان صعوبة ومرارة أيامها لكن بالتعاون سيتذوقان حلاوتها.
وختم الحديث ببسمة كانت النهاية لجلسة مصارحة وبداية لعمر طويل
تخبى الأيام فيه ما تريد من مفاجآت ومعجزات.

تمر الأيام ونعيمة تعيد ترتيبها، تهيج نفسها لحياة جديدة وهي ترافق
زوجها يتعاونان على زراعة الأرض وجني غلتها التي يأخذ منها لبيعها،
لكن ليس كل ما نحب نلقاه فقد كانت حماة نعيمة السيدة «خديجة»
إنسانةً جافةً متسلطةً؛ لم تقبل يوماً أن تكون في مملكتها ملكة أخرى
تأمر كما يحلو لها، فزمام الأمور ستبقى بيدها وحدها وحتى ابنها فهو
من ممتلكاتها التي يُمنع التصرف فيها...

هكذا أدركت نعيمة أنها تعيد نفس القصة لتكون هذه المرة راضخةً
لأوامر حماتها. ففي السابق كانت زوجة أخيها هذه الأخيرة التي لم

تسأل يومًا عن أحوالها، كل هذا كان يجري أمام ناظري مراد المغلوب على أمره، فكان جوابه الصمت وهو يرى معاملة والدته الجافة لزوجته التي كانت تعمل كآلة دون كلل أو ملل تحاول إرضاء رغبات حماتها المستعصية وخدمة زوجها.

وقد كان الحوار بينهما يكاد يكون منعدمًا وما زاد من قسوة أيامها ظروف الفقر والجوع والعوز التي كانت تعيشها وتغرق في حلها.

إلا أن مراد كان وفي كل مرة يكافئ زوجته بأن يبتاع لها شيئًا وهو يدرك أنها لن تطلبه منه ولو كانت في أشد الحاجة إلى ذلك الشيء، فغزة نفسها لا تسمح لها بأن تطلب أمرًا ولو كان من حقها.

فاعتادت دائمًا على مفاجآته إما بلباس جديد أو تنوره يضعها فوق سريرها دون أن تلاحظ والدته ذلك، وهو يدرك جيدًا أن زوجته عانت في الماضي ما يكفيها وهي تخزن أوجاعها كالجبال في قلبها ولن تسمح يومًا لنفسها أن تتذمر أو تستاء.

وهذا ما زاد من حبه لها في صمت وهو يرى حالتها مشفقًا عليها، وقد اختارتها الحياة لتكون امرأةً قهرها الزمان وظلمتها السنين وهي تعيش مليئةً رغبات أناس تناسوا أنها كائن بشري؛ لها آمالها وأحلامها البسيطة التي تبقى كبيرةً في نظرها ترسمها بصمت وتتمنى تحقيقها في أحلامها كذلك في صمت.

لتأتي الأيام بخبر يغير روتين حياة مراد مفاده أن زوجته تنتظر مولودًا، خبر لم يتوقعه زُفٌّ إليه من والدته وهو يحرق الأرض وقطرات العرق تنزل من جبينه العريض يتأمل الأرض وقد رحبت باتساعها، يفكر في تعبهِ والوقت الذي ستأخذه منه حتى ينثر بذوره في جوفها وينتظر غلتها. ها هو يفكر أن هناك من سيحل ضيفًا دائمًا على عائلته. ويجب أن يغير من مخططاته ويضاعف من جهده حتى يؤمن لمولوده القادم حياةً أحسن. تمر الشهور متناوبةً تحكي ليال بنجومها البراقة ونهارًا بشمسه المتألقة وهي تتوسط سماء القرية. حكايات الفلاحين البسطاء التي لا تعدو أن تتجاوز حكايات النسوة في العين وهن في الأرض يقمن بحرثها.

أما الرجال فالمقاهي تجمعهم يتجاذبون أطراف الحديث عن بيع الأبقار وأسعارها إلى غير ذلك من أمور القرية وأحداثها، والشباب يخططون للهروب من هذه القرية وكوايسها للالتحاق بالعاصمة ومواكبة تطورها لتتحول كوايسهم لأحلام جميلة يمكن تحقيقها.

يومها كانت نعيمة تستعد للولادة وهي في المخاض والنسوة تجتمعن حولها لمساعدتها، أما مراد فقد كان قابلاً في أرضه ينتظر طفله الأول وهو يرافق جواره وثورته يتأمل قلقاً ولا يعرف ما العمل سوى النظر والانتظار، وما هي إلا لحظات حتى جاءت بنت صغيرة من طرف والدته تطلب منه القدوم حالاً إلى المنزل.

كان بكاءؤها نعمةً ناعمةً تغرس كسهم في قلب مراد، وقد كان منزله جامدًا في الماضي لا أحاسيس فيه ولا صراخ يملأه. لا صياح كباقي المنازل ولا عناد من أولاد تحملهم براءتهم لأحضان آبائهم، واليوم حلمه يتحقق والمنزل يضج ببكاء صبية كانت النور المشع لتخرج خصلات أشعتها عبر النوافذ والأبواب وهي تحتضن ببكائها عائلة عانى أشخاصها من الحزن وطول الصمت.

حملها مراد وهو ينظر إليها حائرًا مبتهجًا يحس بقلبه وكأنه يخرج من بين ضلوعه. لتكون «بسمه» أول فرحة للعائلة والأنظار كلها تتجه صوبها.

عام ١٩٦٤... / بعد مرور سنة ونصف.

تحولت حياة عائلة مراد إلى فرحة رغم مرارة أيامها وبسمة تكبر بين حضن والديها. نشأت فوق تراب أرضهم بين الجرار والفأس تلعب راكضة وراء الدجاج والماعز، وفي الغالب ترافق جدتها وهي تنزع الأعشاب الضارة والأشواك من أرضها تساعد ولدها بقدر المستطاع... كانت طفلةً جميلةً تتعثر في خطواتها أحيانًا وتنجح في الأخرى وهي تلعب بكل ما يصادفها والجميع يتناسون همومهم بضحكاتها وابتسامتها المشرقة. لكن حماة نعيمة كانت دائمًا المرأة العبوس صعبة

المراس تعامل كنتها وكأنها أمة لا تستحق الشفقة أو الكلمة الطيبة وإنما دورها ينحصر في خدمة زوجها والانصياع لأوامرها دون أن يكون لها حقوق أو رغبات تتمنى تحقيقها.

كانت نعيمة تواجه عبوس خديجة بابتسامة وأوامرها بالطاعة، والتي كان كلامها مع ابنها فقط؛ تتحدث معه مهمشةً نعيمة؛ هذه التي ترد بالصمت والرضوخ وعدم التدخل أو المناقشة.

كل هذا كان يحصل ومراد لا يحرك ساكنًا أمام تجبر والدته يقف مذلولًا منكسرًا يشفي غليله بالصمت ومصاحبة السيجارة أمام النار المشتعلة يحكي لها ناره التي حرقت أنفاسه، وقد ألف البؤس والفقر وأكملة بقهر زوجته من طرف والدته واستعبادها، فكانت أنفاسه تخرج دخان سيجارة لوث رثتيه وقلبه وأخرجه ضبابًا ليتنفس بها الصعداء.

توالت الأيام وسرقت منها كل الأحلام، أمني أناس بسطاء كان مهمهم الوحيد تأمين لقمة العيش التي أصبحت مستعصيةً في ظل هذه الظروف، خاصةً بعد سنوات الجمر والاستعباد من استعمار زرع جذوره لسنوات خلت لتتنفس الجزائر اليوم الصعداء. لكن مرحلة البناء والتشييد ستكون الأصعب والأشد.

مراد كعادته كان يرافق جزاره صديقه الوفي وهو يقلب تراب أرضه لتكون مستعدةً وهي تبتلع تلك البذور المنشورة هنا وهناك، وبعد شهر تنبت ويكسوها اللون الأخضر وكأنها عروس

وفي لحظة ما من إحدى أيامه سمع صراخ أطفال بمقربة من أرضه، فبدأ يقترب وينصت والصراخ يزيد، فأسرع مهوولاً لمكان الصياح، فُصِّدَ بصبي صغير يمسك بغصن يتدلى فوق النهر وهو ملتصق بشجرة عالية وكان الولد يصارع مجرى المياه وهي تدفعه مع التيار وأمله معلق بذلك الغصن الضعيف.

— ما الذي حدث ومن يكون هذا الولد؟

— أرجوك يا عم مراد أنجده فقد كان يحاول جذب قطعة من قماش ظناً منه أنها قميص، لكن النهر جذبه وسيغرق لا محالة.

عندها لم يتردد الشاب ونزل فوراً للنهر محاولاً رفع الصبي على عنقه ليصل إلى الأرض وكانت هذه الأخيرة مرتفعةً عن النهر المنخفض وهو يصدر خريره القوي الهائج جالباً معه كل ما يجده في طريقه وبقي الاثنان يحاولان الانتصار على النهر بالصعود إلى الضفة والأولاد ينظرون صامتين بأفواههم المفتوحة وأعينهم الواسعة.

— هيا حاول الصعود على كتفي تمسك لتصل إلى الأعلى.

وبقي مراد ممسكًا بالغصن والطفل فوق كتفيه يحاول الصعود والآخر ينجذب إلى الأسفل ولم يعد قادرًا على مصارعة ومعاودة قوة النهر بجريانه وبقي كذلك محاولًا رفع الولد معاكسًا بذلك تيار النهر، وما هي إلا لحظات حتى وجد الطفل نفسه في البر بعدما أعانه زملاؤه على الصعود.

في تلك الأثناء خارت قوى مراد من شدة التحمل وثقل الولد الذي كان يحمله، وما زاد الأمر سوءًا انكسار الغصن الهش الذي بقي ممسكًا به، ففوجئ وقد جرفه النهر ينظر حائرًا ليتيقن بعدها أنه راحل بدون عودة، فرسم ابتسامة عريضة وهو يعيد شريط حياته تاركًا وراءه نساءً ضعيفات كن يشددن أزهرهن به.

كان يخاطب وجدانه حين جرفه النهر إلى عالم الهدوء والطمأنينة يودع أرضه وجزاره قائلاً:

- أنهيت مهمتي وبدأت رحلتي. أفنيت عمري في ترابك وبين جبالك، ارتويت من نهرك ليخونني اليوم ويأخذني معه. سلامي يا أرضاً أفنيت فيها شبابي وتركت فيها حزني. أما العذاب سيكون من حظك يا نعيمة فمسؤولية أسرتي ستبقى على كاهلك ولم تجدي للفرحة يوماً طريقاً.

كانت جنازةً مهيبَةً لم تكن بسيطةً بساطة حياة مراد المتواضعة وقد شق طريقه منعزلاً وحيداً. أما اليوم فجمع من أهل قريته يرافقونه من الأمام والخلف وكأنه في موكب ملكي لا تسمع إلا زلزلة الأرض بنعالهم السميكة البالية، وهم يجرون صمتهم مرافقاً لنعش ذاك الشاب حائرين مذهولين ليختتم أيامه كبطل ضحى بحياته لينقذ ولداً كاد يكون الآن مكانه. أما النسوة فقد كان صراخهن هو المتنفس الوحيد للتعبير عن تلك الجلسة. تقليد لا بد منه للتلاحم مع أسرة الفقيد ومواساتهم بعويلهن وبكائهن. أما نعيمة وحمايتها فأنيهنما دفين يمزق صدرهما وهما ترسلان تأوهات عميقة تعبر عن وجعهما برحيل السند، تبكيان على ماضيه والخوف مما هو قادم من دونه. وقد ترك من ورائه نسوة لا داعم لهن ولا من يركزن عليه سوى الواحد القهار.

وعم المنزل ضجيج وبكاء، كلام وشفقة على مستقبل هؤلاء البائسات خاصة نعيمة وهي تحمل في حجرها بنتاً لم تنطق اسم والدها بعد خطفه القدر خائناً لأيام كان راضياً بقسوتها وظلمها لكن أن تغدر به هذا ما لم يتوقعه.

مرت الأيام بجفائها حاملةً أمطاراً ورعوداً تروي معاناة وحزن نعيمة وخديجة. هذه الأخيرة التي كرسَتْ حياتها لابنها ومن كانت تعتبره

الهواء بنسيمه والشمس بنورها، لكن للقدر طريق آخر يرسمه ويحتم علينا خوض غماره والسير فيه.

ومن لملت هذه الأحزان تلك البريئة وهي تقبل على جدتها تحتضنها في شوق ولهفة تزيل تلك الجراح المسطرة في روحها وتحاول مداواتها بضحكتها، فتجيبها خديجة بابتسامة زيفت معانيها ودفتتها في روحها وأخرجت ملامحها صامتةً جافةً...

هكذا استمرت حياة العائلة لا معيل ولا معين. حتى أن شقيق نعيمة لا يأبه لحالها ولا يتفقد أحوالها وكأنها مقطوعة من شجرة، نسي وعده لأمه أم تناساه. وكانت حماتها تزيد من فتح جروحها لسكب الملح عليها.

كانت كلماتها كالعلقم حين تصف جفاء عائلتها وأنهم زوجها من ابنها المغدور ليتخلصوا منها، واليوم قتلت زوجها بالنحس الذي جلبته له وبقيت قابعةً في المنزل تروح وتجيء كما يحلو لها. ونعيمة تبتلع كلماتها غصباً عنها وتجر آلامها وقد عصر قلبها وانشقت روحها كأرض أصابها الجفاف فتشوهت معالمها، هكذا كانت روح نعيمة التي مُزّقت من عذاب الأيام وكُسِرَ ظهرها وزاد ظلم البشر ثقل همومها ويأسها وأولهم شقيقها أقرب الناس إليها.

لم تكن لغة الحوار حاضرةً بين خديجة وكتتها بالرغم من تودد هذه الأخيرة لها ومحاولة التقرب منها إلا أن جوابها الوحيد هو صدها وتهميشها.

كانت الأرض هي فقط من يتشارك فيها الهموم بزرعها وحصادها فهي مصدر رزقهن وما عدا ذلك فالحاجز كان كل يوم يعلو حتى تباعدتا عن بعضهما، وأصبحت تتشاركان الحياة بسبب تلك الطفلة، فلولاها لطرَدَت نعيمة من بيتها لكن الحظ حالفها بوجود بسمه... أسطوانة كانت تعيدها خديجة كلما تذكرت ولدها أو زادت الدنيا من همومها وكبر حزنها وضيق الأيام من خناقها، لتتراكم المآسي وتسلط على نعيمة التي وُجِدَت لتكون حفرةً تفرغ فيها الهموم وغضب حمايتها وهي بصمتها راضية لا يحق لها التذمر أو المعاتبة واللوم.

قررت ملأً مذكرتي واغتصبت بياض أوراقها بحبري وأمي تروي لي ماضيها وقد سيطر ظلامه على نهاره. ولم تكن سوى ظل لجميع من عاشرتهم تابِعاً لأوامرهم، مجرد خيال يتبع خطاهم ويكون عاكساً لنور أشع في أجسامهم ليخلق ذلك الظل وأمي الأجدر بهذا التعبير.

كنت أروي سنوات ضياعها وهي راکعة تحت أقدام القدر تفتح صدرها لتستقبل جروحها وتنحني بعدها لعبات الألم وامتداد العذاب. سارعت الأيام من خطواتها تنبئنا بمفاجأتها، وتغرد لحنها المرير، وعائلة مراد تعاتب هذه الأخيرة في صمت ونعيمة تحتضن أرضها وقد فلتحتها للزراعة وطرحت الحب في جوفها. ومسؤولياتها تزيد وتكبر.

خديجة لم تعد تلك العجوز النشيطة الصعبة المراس كما كانت في السابق، فالتعب أنهكها وتحول لمرض استحال شفاؤها منه. فلم تعد تلك المرأة المتجهمة الوجه والعبوسة فرغم قوة شخصيتها إلا أن الحزن قد أنهك قواها وتلاشى صبرها بعد أن أضحى وحيدها مجرد ذكرى نفيق بفاجعة فراقه وهي تلامس ترابه الذي غطى وجهه الهادئ الرزين. وأضحت لا تفارق المقبرة التي ألفتها واعتادت زيارتها، تمسك بيد بسمه جارةً إياها لتتفقد والدها النائم في سبات عميق.

تدهورت حالة العجوز يوماً بعد يوم ولزمت الفراش، ألفتها وأصبحت لغة العينين هي أصدق لغة بينها وبين كنتها التي عانت الأمرين معها، مرارة الفقر من جهة وبأسها في التعامل مع حماتها، التي ورغم إصرارها على ابنها الوحيد من الزواج منها إلا أنها كانت تمقتها وترى أن علاقتهما كانت تنحصر في أمور العمل في الحقل وشؤون المنزل لا أكثر وأن الرابط الوحيد الذي تركها تقبل أن تكمل كنتها العيش معها هو حفيدتها الوحيدة والتي ترى فيها ابنها المطيع، الذي غدر ووضع حداً لحياته لينفذ حياة الآخرين، واليوم هم يعيشون على أنقاض ذكرياته.

وأضحت المسؤوليات تتفاقم وتكبر على نعيمة مع نضوج ابنتها الرائعة التي كانت ترافق أمها وهذه الأخيرة تجر أدوات الحرث كل يوم

بيدها اليمنى وتمسك بسمة جارة إياها باليد الأخرى، وهما ترتديان ثياباً باليةً ممزقةً تروي سخط الأيام عليهما. وتترك حماتهما ممددةً على الفراش أمامها طعام يومها البسيط وفنجان قهوة ساخن تحتسيه لتدفع معدتها من برد الأيام الجافة.

تتوالى الأيام وحالة العجوز تتدهور أكثر وما باليد حيلة، فقسوة الأيام جعلت من نعيمة طائرًا حزينًا يغرد لحنه في ليال مظلمة يحكي فيها مآسيه ويترك الصمت للنهار، يلتقط بمنقاره رزقه المر مرارة الأيام. وبقيت تنظر لوالدة زوجها وتنتظر وهي تصارع المرض تتناول أدويتها الروتينية التي وصفها لها الطبيب، قابعةً في ذلك المنزل الصغير المتواضع المحاط بحقل جميل يتباهى بخضرته...

كل هذه المأساة وبسمة مستمتعة بلهوها ولعبها في ساحة الدار مع أقرانها فرحةً بزيارة النساء لجدها غير مدركة لما يجول حولها. كان قدوم الزوار بمثابة عرس عندها فقط لأنها تعيش الصمت بين امرأتين كان هو لغتهما الدائمة.

ليلة وكأنها عروس تتلألأ ببريق نجومها والبدر مكتمل ينير طريق المارة بهدوء واطمئنان، أما نعيمة فليلتها كانت ليلة ترقب وهي تنظر لحماتهما وقد اشتد عليها المرض، والاثنتان تحاكيا بعضهما بدموع

غسلت وجنتيهما الجافتين، دموع تحكي نهاية العشرة الصامته والأيام القاسية، هذه الأخيرة التي خلفت سوى المآسي والأحزان وحتى الدموع كانت ممنوعةً في ظل قسوة الأيام ومرارتها.

- تدرकिन يا نعيمة أننا لم نتكلم ولو ليوم واحد منذ تُوفِّيَ مراد وتركت قسوتي هي قائدي، غلفت قلبي بالحقد وحجبت عنه الحب والرأفة.

أهديتهما لي وأنت تشدين الحزام حول صلبك وتحاربين الطبيعة القاسية لتؤمني لي لقمة العيش لم يكن بيني وبينك حوار ليزيل قسوة الزمن، فجفاء قلبي وحدة ملامحي هي ما كنت أخطبك به. كنت الوفية لزوجك والراعية لي أتممت وفائك في صمت وكأنك تحاورين مراد في قبره، ترسلين له محبتك من خلال رقتك وروعك.

أيامي في الدنيا أضحت معدودةً ولست أملك سوى هذه الأساور الرقيقة وخاتمًا من الفضة أتركها لحفيدتي تشم فيها رائحتي.

سامحيني وقد قسوت عليك ولم تكفيك قسوة الأيام اعذريني وقد لقيت الجفاء مني وقابلته بالرأفة والهدوء وارتديت لباس الصبر والوقار. لك مني دعوة إلى الله بأن يصلح شأن بسمه فهي زهو حياتك بعد كل ما عانيت من قهر وظلم.

لم تفصح نعيمة بكلمة كعادتها وأجابت بصمتها وحزنها المرسومين في ملامحها الساكنة الهادئة. ولغتها الوحيدة بريق في العينين مصحوبة

بدموع وكأنها البحر الهائج بأمواجه التي أبت أن تنزل لأنها لن تروي
ما عاشته وما عانته وتكون بذلك قد عجزت عن تفسير كل ما لحقها،
فدموع المقلتين لن تحكي ألمها ولن تنصفها فتركها لقلبها الدفين بين
ضلووعها يبتل بها دون أن يراه أحد.



كانت جنازةً ثانيةً مهيبَةً لامرأةً عجوزَ أفنت حياتها في خدمة أرضها
وأهدت قلبها لابن خُطف من بين ضلووعها فتركها الحياة كريشة ممزقة
تلعب بها نسائم الأيام الحزينة، وقد خانتها تلك الليالي وهي تعشق
السهر فقط لتقوم من فراشها البائس وتغطي كتف مراد الذي ودعها من
دون استئذان. وهي اليوم تودع من بقيت صابرةً لأجلهما، حفيدة تلعب
بالحصى والتراب لا تعي ما يدور حولها وكتتها جالسة تنظر متعجبةً
تائهةً وسط نساء يخاطبنها بلغة الدموع والنواح والصياح وكأنها عادة
مفروضة عليهن ليودعن بها من تركهم سواء كان قريباً منهن أم لم يكن.
نعيمة قررت ترك مهمة الصراخ للنسوة لترجمن بدموعهن ما شئن
من أحاسيس والتي ستتبخّر مع مغادرتهن للجنازة. أما هي فألامها
ستبقى متراكمةً ككومة قش في روحها الهشة على طول الأيام. وعوض
أن تكون دموعها وصيحاتها المختبئة في جسمها الهزيل ملاذها الوحيد

لتعبر عن سنوات الجمر التي عاشتها جعلت من هذه الأخيرة شعلةً متوهجةً تحرق بها روحها النقية والصمت رفيقها يصرخ بداخلها ولم يجد المخرج من امرأة صاحبة الصبر والكتمان فكانا رفيقين دائمين تاجهما الحزن والعذاب.

رحلت خديجة تلك العجوز محملةً على أكتاف الرجال تتبع ابنها الذي اشتاقت له ولم تتحمل غيابه عنها. اتجهوا نحو المقبرة مخلفين نواح ونحيب النسوة وراءهم وأعينهم ملتصقة بالأرض حزناً على هذه العائلة التي قسمت بين الرحيل للراحة الأبدية من عذاب الحياة وشقائها المتواصل، وبين ترك من ستكملان رحلتها وحيدتين بين مخالب الأيام وألمها.

سنة ١٩٧١... بعد مرور سبع سنوات.

كان البيت القرميدي المتواضع وحده الذي لم يتغير وكأن السنوات توقفت أمامه من الداخل. لكن تغير من الخارج وحيطانه تقشرت من قسوة البرد وحرارة الصيف بشمسها المتربعة في السماء.

أما نعيمة فهي المرأة نفسها برزانتها المعهودة وصمتها الدائم، تتكلم بأناملها المشققة مخاطبةً أرضها؛ تنثر بين خطوطها البذور

خريفًا، لتعود صيفًا وتتنزع كل ما وجدته من غلة، ففتقات من ربعها وتبيع الباقي لتلبي حاجياتها، أو بالأحرى حاجيات أميرتها الصغيرة والتي بلغت من العمر سبع سنوات فأضحت اليوم النور الذي يوجهها إلى أمل تعودت فقدانه في حياتها والبسمة التي قاطعتها منذ وعت على هذه الدنيا وقد عانت قسوة زوجة أخيها وشدة وتجهم حمايتها. فكانت بسمة اليوم هديتها التي انتزعتها من القدر بصعوبة حتى تكمل ما بقي لها من عمر في هذه الدنيا.

— أُمِّي لقد عدت للتو وأنا منهكة من الدراسة وبطني تصرخ من جوعها وحلقي أصبح كالصبار من شدة الظمأ.

بسمة تلك الفتاة البريئة الجميلة تحكي ملامحها ذلك الشبه المختفي منذ سنين لشاب كان يعيش هادئًا صامتًا لكنه لم يمت. ترك نصفه الآخر يحكي حزنه أم فرحه، هكذا كانت بسمة شديدة الشبه بوالدها...

بنت سمراء ذات عينين كبيرتين وكان البؤبؤ داخلهما هو الظلام الدامس وشعرها الأسود كأنه عُصْر من شراب التوت، كانت سمرتها وكأنها الشهد وكلامها عسل مُصَفَّى. فكل من كان بالقرية يحبها ويعشق ضحكتها وكلامها وانتقاء عباراتها بذكاء.

وعند عودتها من المدرسة تملأ جيوبها بكل أنواع الحلوى، وهي تجري فرحةً مختالَةً بحب الجميع لها كما أنهم كان يشفقون لحالها وهي

تكبر مع أم وحيدة هي كل عائلتها، حبها دس بين ضلوع والدتها وسكن قلبها وسرى في جميع دمها كنهر هائج لكنها ترجمته بحزن وصمت. وبالمقابل فرحتها كانت ترتسم بسمة وهي ترى نور عينيها راكضة نحوها لتضمها وتمحي عنها همومها المتراكمة وحزنها الوفي لها.

- أهلا صغيرتي. كنت في الأرض أقوم بتهيئتها واقتلاع الأعشاب الضارة حتى تكون جاهزة لضم البذور في جوفها. وكيف كان يومك في المدرسة؟

ولجنا لمنزلهما والابنة برأسها تقفز تحت إبط والدتها كأنها حيوان أليف اشتاق لصاحبه بعد طول غياب، لتوصدا الباب وتشعلا النار فيتحول ذلك المنزل المتواضع لقصر في عيني نعيمة، وابنتها تقفز أمامها حاملة قلمها وهي تنتظر الكثير من صغيرتها لتنتهي يومها كملاك نائمة تندفأ بحرارة حضن والدتها ملجأها الوحيد.



كانت منازل الجيران مقابلةً لدار نعيمة ترسم حدود أرضهم بشباك حديدي رفيع، يلتقي النسوة من خلاله وكل واحدة تحمل على كتفها أداة من أدوات الحرث فمن تحمل الفأس ومن تحمل المجرفة والأخرى بيدها المنجل وهن يتجاذبن أطراف الحديث حول أمور القرية والمستجدات اليومية.

وكان هناك رجل يُدعى «عبد الحميد»؛ بيته يقع في منحدر يُدعى «الخساف». فكلما مر بالنسوة يلقي السلام عليهن وهن يجبن بالمثل مع السؤال عنه وعن زوجته وفي تلك الأثناء تراه يخطف نظره الماكرة نحو نعيمة والنسوة تلاحظن ذلك وتتهامسن بالنظر إليها.

والمسكينة يكسو ملامحها لباس الخجل والذل والقهر وقد أرغمت على أن تكون عرضةً للهمز واللمز بسبب رجل كان المكر في عينيه سهماً لامرأة همها الوحيد تربية وحيدتها وذنبا أنها لُقبت باسم الأرملة. توالى الأيام على قرية أولاد عسكر بشتائها مصاحبةً رياحها العاصفة والسماء تفتح بابها لأمطار غزيرة تروي كل ما هو يابس ليصبح أخضرًا زاهيًا، والنهر يغرد بمياهه العذبة الجارية يصدر نغمات شجيةً تخاطب أهل القرية بقدوم الشتاء والسواقي التي فُتحت لتروي أراضي الفلاحين والمزارعين.

في تلك الليلة كانت نعيمة تطبخ حساءها الساخن وبسمة تقابل النار الملتهبة تزيد من لهيبها وهي ترمي الحطب فيها تارةً وتحرك عينيهما ذهابًا وإيابًا في أسطر كراسها تحفظها بصوت عال وأمها تحرك ما بداخل القدر وذهنها يجول مفكرًا فيما حدث مع النسوة والهمسات من حولها تزيد كل يوم.

أصبحت تخاف من تفاقم قصتها وسيرتها تصير على كل لسان بسبب ذلك الرجل، خاصةً وأن سيرته السيئة متداولة على لسان كل أهل القرية ولا تتمنى أن ما تفكر فيه سيحدث وستكون الطامة حينها، وتملاً بذلك فراغ أهل القرية بالكلام عنها وعن شرفها التي عاشت وستعيش محافظةً عليه.

من المستحيل أن تمنع الوحوشة وكثرة الأحاديث خاصةً أنها أرملة وحيدة، فبعد مرور أيام قلائل كان الخبر كالنار انتشر بسرعة البرق في كل بيت وقد أضرمت النار في بيتها هي. ووجد أهل القرية ما يرفهون به عن أنفسهم في موسم قطف الزيتون ليصنعوا منه زيتاً، فكانت حكاية نعيمة شغلهم الشاغل يستهلون بها صباحهم ويختمون مساءهم يتجادلون في وضع الاحتمالات حول نهايتها وكيف ستكون.

- لكن يا عزيزتي أنا لا أرى في هذا الخبر مفاجأة، كنت أتوقعها منذ تُوفِّيت «لالة خديجة» حماة نعيمة وأظن أنها ضحية هذه الأخيرة كان عبد الحميد، والحمد لله أنها لم تتربص بأزواجنا.

كانت إحدى جارات نعيمة وأكثرهن ثروةً تتحدث وتستمتع بنشر الأحاديث حولها، والتفنن في تحليلها وإيجاد الحلول لهذه المعضلة وهي منهمكة في قطف الزيتون من أعلى الشجرة.

- لكن يا «سعيدة» يجب أن نخاف ونحذر من أمثال هذه العاهرة فهي تحوم بنظرها على المتزوجين، ولن يكون الحل سوى بالابتعاد عنها وتفادي التعامل معها أو مصاحبتها.

كن يتجاذبن أطراف الحديث وهن يقمن بالتقاط حبات الزيتون من الأرض وفرزها من الأعشاب والحبات الفاسدة فوق مناديلهن المنشورة على الأرض.

وبقيت الأقاويل تحوم بين ألسنتهن وهن في أخذ ورد منشغلين بالتهكم على حياة المسكينة؛ صانعات منها روايةً دراميةً تتخللها تفاصيل العشق المخفي والخيانة المستترة وظاهرها امرأة يصفها الناس بالبراءة والطهر وحسن الأخلاق وباطنها مدسوس بالحقارة والتخطيط لتكوين أسرة على أنقاض أسرة بريئة.

- كفاكن تهجماً وافتراءً وقذفاً للمحصنات. عندكن بنات يدرسن ويخرجن وهن معرضات لأموال خطيرة تُنتهك فيها أعراضهن، ومن الممكن أن يكون بإرادتهن وأمام أعينكن وأنتن غافلات مكبلات لا حول لكن ولا قوة، إذن فاتقوا الله في امرأة عانت ما عانت من سخط الزمان ومرارة القدر. كيفيها حزنها الدفين وهي التي عاشت عفيفة شريفة بيننا. ردت عليهن امرأة تُدعى «عقيلة» من أعقل نساء القرية وقد كرهت ما سمعته عن نعيمة ونبذت كل أحاديث النسوة اللواتي لم يعد شيء يعينهن سوى التهجم على سيرة هذه المسكينة الأرملة اليتيمة.

لكن للأسف فقد صارت تلك المسكينة موضع همز ولمز وبدأ الناس يتناقلون قصة حبها الخفية للرجل وغرامهما، وانطلقت أعنة الألسن النشيطة من ذوي النفوس المريضة المدمنة وكثرة ثرثرتهم حتى وصلت لمسامع نعيمة...

وفي المقابل زُفَّ الخبر على صينية من فضة إلى «حورية» زوجة عبد الحميد بأن نعيمة تريد أن تخطف زوجها منها وأنها دائمة اللقاء به، وتضخم الموضوع حتى وصل لدرجة أنهما متزوجان بالسر. حينها ثارت ثائرتها وسكنت نفسها عاصفة هوجاء لا يخمدها سوى الانتقام من العاهرة كما يسميها الجميع والطلاق من زوجها.

مرت أيام صعبة على نعيمة وأذنها تلتقط كلام الناس البذيء وهم يشيرون إليها بنظرتهم القاسية في كل مكان، حينما تذهب لملء دلوها من العين المجاورة أو خلال عملها بالأرض، وكانت علامات القهر والظلم تحوم على كل ملامحها الحزينة وهي التي لم ترى يوماً جميلاً في حياتها وجرت أعباء التعب والظلم والقهر منذ كانت صبيةً لتلاقي اليوم كلام الناس اللاذع وهي تواجهه لوحدها.

لم يبق لها من أنيس سوى جارتها عقيلة التي كانت تؤمن ببراءتها وعفتها، وبأنها ليست من تسرق سعادة الناس لترسمها على شفيتها.

كانت تعلم جيداً أن عبد الحميد رجل سيء زير نساء، يحاول دائماً عرض خدماته على النسوة ولكن ليس لوجه الله وإنما لتحقيق مآربه الخبيثة.

ولما لاحظت عقيلة أن القصة تشابكت أحداثها وتعددت ووصلت لدرجة أن نعيمة سجنّت نفسها ببيتها رفقة ابنتها وأن زوجة عبد الحميد تتربص بها لتنتقم، ذهبت عندها ودار بينهما حديث مطول فلاحظت حزنها ودمعتها التي سبقت ألمها.

— لا أعرف لماذا كل هذا الحقد والافتراء يا عقيلة، عشت حياتي منزويةً معزولةً أفنيتها في العمل والعبودية، استغلّنتي زوجة أخي وبعدها تزوجت لأكون أرملةً ومسؤولةً عن ابنة وعجوز ومع هذا رضيت واكتفيت.

واليوم أصبحت بطلة رواية لم أقترف فيها أي سوء سوى أنني أجببت الجميع بصمتي وتضرعي لله فما العمل وقد كرهت الخروج وأنا أعمل لجمع قوتي وقوت طفلي.

وبينما هي كذلك تشكو ضعفها وقلة حيلتها إذ بهما تسمعان صراخاً قادماً من فناء منزلها.

— ماذا أفعل وقد لطخت اسم العائلة بالوحل وجعلت مني النعامة أفرح بغرس رأسي في جوفها، ماذا أفعل أقتلك وأنهى حياتي بعدما

أذلتني أفعالك وجعلت من شرفنا بساطاً ملطخاً تدوس عليه أقدام
الثرثارين واسمنا يجول بين أفواه الفضوليين.

أطلت لتجد شقيقها سليم، قدم يلومها وقد حمل سكيناً بيده ينوي
قتلها والمسكينة تمسك بابنتها التي أفرحها البكاء من شدة الخوف
وقوة الصراخ. حينها قاطعته وفجرت صمتها لتحوطه إلى صراخ بعد أن
أنهكتها السنين والصمت رفيقها وقهرها الظلم وهي راضية به مستسلمة
لأمر من سلطوه عليها، لكن طفح الكيل وحان موعد الحساب والعتاب.

- أهلا يا سندي ويا من وصته والدته برعايتي والحفاظ على رزقي،
من أين لك بهذه الشجاعة وقد كنت الأصم والأخرس حين تداولت
السلطة على الخادمة الواقفة أمامك وجميعكم الحكام وأنا المستعبدة.

رضيت بقهر زوجتك وتسلطها وظلمها وعنفها مقابل صمتك
ورضاك. جعلت مني الوسيلة لتحقيق أهدافها. أخذت نصيبي من
ميراث والدي وقمت بتزويجي وأنا صبية للتخلص مني. تعودت
الرضوخ لأوامر زوجتك وكنت أن العامل المسكين، أجبرتني أن أعيش
على أنقاض حزني وألم دفين في صدري يحاول الخروج والصراخ
لكن وُلدت لأرضى ولأُسْتَعْبَد.

مات زوجي ولم تكلف نفسك يوماً بزيارتي لتمسح دمعتي المخبأة
في قلبي وعرقى يكسو جيني، أتعبني الزمان وأنا أمة للأرض وترابها

فقط لأوفر لقمة العيش لهذه اليتيمة، والتي لا تعرف معنى كلمة خال وعندما تراك تهرب؛ تحكي خوفها وذعرها.

لم تسمع يوماً براحتك على شعرها ولم تأخذها لحضنك لتعوضها حنان من لم تعرفه يوماً، وقد أخذته النهر وأخذ معه كل أحلامي، تركني أبكي هروبه من هذه الدنيا أزيد كل يوم قطرةً من دموعي لذلك الواد الخائن. أما اليوم فأدركت أن خائن العشرة هم البشر ومن ظننت أن صدرهم سيكون ملجأً لأهاتي، حضنهم كان الحاكم الجائر. ارحل من منزلي. لست أخي ولست شقيقتك. ماتت والدتي وأخذتك معها، والله من سينصفني وقد اعتدت الوحدة ومجابهة المآسي والظلم، تتهمني في شرفي عوض أن تصونه من الذين يريدون انتهاكه، فكنت الداعم لهم عوض السند.

وقف أمامها باهتاً وهو يلوح شخصاً غريباً لم يكن يعرفه وقد انفجر صمت السنين داخلها ليفجر ما عانته من ألم وظلم وتحاكي ضمير من اعتقدت أنه سندها، ضمير أخ كان في سبات وأبى الاستيقاظ ولم يتفطن لطول نومه وهو ملفوف كدودة القز في شرنقتها. استيقظ ضميره على قتل روح البراءة وصلة الرحم فنسي أنه لم يصن الأمانة التي أوصي بها. كانت دموع الحاضرين تنزل كأنها المطر والجميع مصدوم بصحوة الوحش النائم داخل نعيمة وما أيقظه سوى جروحها العميقة والتي لم تلتئم رغم طول السنين.

ولم يبق لسليم سوى الرحيل ورأسه مطأطأة وهو يجر أذيال الندم وروحه صحت بعد طول غياب، فأدرك أنه كان مجرد ظل للإنسان ظلم وجرح أقرب شخص له، واليوم هو يقف إلى جانب الناس وضد أخته دون أن يسمع لصوتها المظلوم وروحها المجروحة.

داسها الزمن بأشواك جعلت منها مصفاةً تنزل منها الدماء لتروي أرضاً هي رفيقتها. ووقعت تلك الكلمات على نفسه فخدشت جوارحه النائمة لتستفيق من سباتها الطويل.

توالت الأيام تقلب صفحات كتبت عليها آلام وأحلام كل شخص، كانت نعيمة واحدة من بين أبطال هذه القصة صارت حياتها في مهب الريح تتأرجح بين ماضيها الذي لم تنعم فيه يوماً بحياتها وهي تُستعبد من أقرب الناس لها وبين حاضرها الذي لا يضمن لها حياةً آمنةً بين قومها. فكل يوم هي في الأرض تزرعها وتنقيها لتهيئها لغرس البذور الشيء الوحيد الذي بقي وفيّاً لها، تعطيها من غلتها ويرافقها ثورها العجوز وهو يجر المحراث من ورائه دون كلل أو ملل.

كانت حينها نعيمة مرتديةً تلك التنورة البالية مرت عليها سنوات شحب فيها لونها ففقدت بريقها، تحرث الأرض بحذائها المصنوع من البلاستيك تدخل به تارةً لتصنع حفرةً وتقتلع الثاني بصعوبة تجر

بمشيتها أذيال الحزن والتعب وظلم الناس من حولها وتلفيق التهم عليها، وقد عانت ما يكفي من هذه الكلمة.

وما هي إلا لحظات حتى سمعت صوت جارتها المرتجف يناديها، وصلت إليها وهي تلهث لا تستطيع حتى جمع أنفاسها.

- ما بالك عقيلة ولما تركضين كأنك رأيت وحشاً أو سمعت خبراً سيئاً؟!

- أين أنت؟ الدنيا مقلوبة من أجلك، سليم يتشاجر مع عبد الحميد وزوجته وتعدى شجارهما الصراخ ووصل لحد الضرب. تعالي معي بسرعة لتضعي حدًا لهذه المهزلة.

- ماذا؟ ما الذي تقولينه؟

فتحت عينيها منبهةً وأسقطت المحراث من وقع ما سمعت.

- أخي! ما الذي أخذه إلى هناك؟!

- لا وقت للاستفسار والتحليل هيا أسرعي ربما ستحدث مجزرة وأنت هنا تسألين.

هرولت مخلفةً أرضها وثورها وسط الأرض وهي تجري كالمجنونة لا تعي ما يحدث.

وصلت نعيمة لتجد حشدًا من الناس متجمهرين ينظرون والصراخ عم المنطقة، تقدمت تتفقد ما يحدث لتُفاجأ بشقيقها ملطخ الوجه بالدم وقميصه ممزق. وهو يتفوه بعبارات التهديد والتخويف واستدار بعدها

لزوجة عبد الحميد وهي تهم لمساعدة زوجها وهو ساقط على الأرض والدم يتدفق من أنفه.

- لن أسامح بعد اليوم أي أحد ينتهك عرض شقيقتي وإلا والله فجوابي المرة القادمة سيكون أشد، وسأصل إلى حد ارتكاب جريمة. لا أملك سوى عرضي ترعرعنا هنا ولم نجرح يوماً أحداً.

كانت حياتنا في الظل مرسومةً، نخاف حتى من خيالنا. أفنينا حياتنا في زرع الأرض وكنا عباداً لها نسترزق منها، ولا نرفع رأسنا إلا للإلقاء السلام. والدليل أن شقيقتي ترملت نتيجة شجاعة زوج كان قدوةً لكل شاب أفنى حياته في حرث أرضه وحصادها، وأنهاها غريقاً لمساعدة طفل كاد يكون مكانه، وللأسف من يكون ذلك الولد هو ابن هذا الخسيس ناكر الجميل.

عوض أنك تقابل بالعرفان وحفظ الجميل، وتطأ على رأسك خجلاً وشكراً لامرأة كان زوجها سبباً في أن تُكْتَبَ حياة جديدة لولدك أنت اليوم تجازي من مات بطلاً بانتهاك عرضه والسخرية بفعلتك من زوجته. لكن صدقني أنا من سأجعل منك سخريةً للقرية. أما أنت يا زوجته المصون عوض أن تضعي حداً لزوجك الوفي فأنت تدعمينه بالدفاع عنه، فتحت له المجال بأن يجول بنظره وخبثه لنساء القرية. سيكون آخر

تهديد وإن سمعت كلمةً أخرى عن عائلي فلا تلم إلا نفسك وكلامي
موجه للجميع والحاضر ينبه الغائب.

بعدها أخذ سترته المملطخة بالوحل من الأرض ورفع رأسه فوجد أخته
تقابله بدموع انهمرت وكأنها الشلال ترد عليه بفرحتها فقد وجدت أخيراً
السند ومن أفنت شبابها من أجله. وامتلاّت مقلته بالدموع حين رآها.

أمسكها من يدها وذهبا تاركين جمعاً من الناس سُدتْ أفواههم من
الخوف وهول المفاجئة، وقد قطع سليم عنهم التهكم والتهجم مرةً أخرى
على أخته وجعل من حياتها قصةً مشوقةً يتداولها كل من هب ودب.

كانت من أروع الليالي بالنسبة لنعيمة تنام مسدلةً ذراعها لتوسده
ابنتها وهي تغط في نومها كملاك. تتذكر شقيقها وهو يواجه العالم من
أجلها وقد دغدغه ضميره النائم لسنوات، فانفجر بعدها وأُضْرمَت النار
في صدره وهو يلتقط كلمات أخته المجرّحة والتي ترجمتها بدموع
جرت على خدودها وهي تحكي سنوات الألم والحرمان وتعاتب بها
من كانت تعتقده سندها.

واليوم يفيق مراد من غيبوبته بسبب قصة لُفِّت لأخته فكان لا بد من
وضع النقاط على الحروف لأن زمن الصمت والرضوخ ولى.

وأصبح سليم يتفقد أخته وابنتها، يلبي حاجتهما ويعينها على مصائب
الدهر وقسوته وكانت هي تشد به ظهرها ويؤانس وحدتها ويعوض يتم
ابنتها بحنانه وعطفه، فشكراً لعبد الحميد الذي أعاد لها شقيقها.

بعد مرور أربع سنوات... سنة ١٩٧٥.

أحيانًا لا نعتذر للأيام على قسوتها، لكن نعتذر لأننا قبلنا بسخطها وظلمها، ونسرق منها بعض لحظات السعادة؛ نكابرها ونفتخر لأن هذه الفرحة صنعت منا التميز رغم بساطة حياتنا وفقرنا وعوزنا واحتقارنا لأنفسنا، لكن هناك من وضعه القدر ليرفعنا إلى مكان فاق كل آمالنا وتوقعاتنا.

هكذا كانت حياة نعيمة وقد حصرتها في خدمة بسمه هديتها من الله، وهي التي أفنت حياتها في خدمة أخيها وعائلته ووالدتها. فقد عانت ويلات العذاب والاستعباد.

اليوم ابتتها كل حياتها وهي تراها كالوردة تنمو وتزهر بألوانها وضحكتها، فكلما تقدم العمر بنعيمة كانت بسمه تزهر وتصبح أجمل وأذكى؛ تسرق من عمر والدتها وتكبر هي على أنقاض هذه السنوات لتصنع فرحة أمها المسروقة؛ التي حُطِفَتْ منها وأنهكها التعب وظلمها ونهب منها القدر السعادة والبسمه ليعيدها إليها مرةً أخرى مرسومةً على وجهها الشاحب كلما لمحت بسمه قادمةً من المدرسة.

ابتتها صارت في المتوسطة وكانت من أنجب التلاميذ. صنعت منها استثناءً وحاربت الجميع لتكمل ابتتها دراستها بعد تفوقها مخالفةً قوانين قريتها التي تمنع بناتها من إتمام دراستهن بعد المدرسة الابتدائية. إن لم تمنعهن من الالتحاق بمقاعد الدراسة أصلاً.

رجعت بسمه بثوبها البالي وحذاءها الممزق وهي تحمل كيسًا به كراريسها وأقلامها وأمها تحمل على كتفها المحش وعلى رأسها قطعة تشبه المنديل تغطي به رأسها وترتدي تنورتها الطويلة وتنتعل حذاءها الطويل المصنوع من البلاستيك الغليظ وقد ابتل بماء السواقي المنحدرة إلى تقاطيع الأرض المرسومة بيد نعيمة.

امرأة سخرت حياتها لفلاحة الأرض وتربية ابنتها الوحيدة فقط لتراها حلمًا يطير في سمائها الحزينة الملبدة بغيوم ستنتشع فقط بضحكة بسمه ونجاحها الذي طالما انتظرتة. وحاربت الناس كلهم حتى تكمل ابنتها دراستها.

عام ١٩٧٨...

كان أجمل خبر يُرَفِّ لنعيمة، فصغيرها تحصلت على الأهلية بجدارة؛ منتقلةً لعالم الثانوية. بسمه التي جعلت من أمها ملكة بين أهلها، فمنهم من فرح بفرحها ومنهم من حسدها على تلك السعادة. فصغيرتها صنعت مملكةً لأمها عوضتها سنين البؤس والحرمان والظلم التي لاقتهم من أهلها.

زوجة أخيها التي رفضت تهنتتها بنجاح بسمه، فالغيرة تخنق قلبها لتكون إنسانًا حاقدًا على امرأة رسمت نجاحات ابنتها فخرًا لها بين

قومها، عكسها التي فشل جميع أولادها في دراستهم وهرب والدهم إلى مدينة أخرى، وقُطعت أخباره عنهم وبقي الوصال بينهم بأوراق نقدية يبعثها لهم كل مرة مع شخص حتى لا يتعرفوا على مكان إقامته.

التحقت بسمة بالمدرسة الداخلية الثانوية بعد حصولها على أعلى معدل بالمتوسطة وقررت والدتها أن تكمل وحيدتها الدراسة خلافاً لكل بنات جيلها اللاتي كن يلتحقن بالبيوت عوضاً عن المدرسة يتأهلن للانتقال إلى بيت الزوجية.

وهكذا كانت ابنة نعيمة الوحيدة التي تلتحق بالداخلية بعد حرب ضروس تحدث من خلالها نعيمة كل أهل القرية لتسافر ابتها إلى مدينة «جيجل» التي تبعد حوالي الخمسين كيلو متراً عن قرية «أولاد عسكر» لإكمال دراستها تلبيةً لرغبة والدتها وتحقيق حلم طالما راودها ولتحدى كل من وقف في وجه والدتها.

عادت بعدها نعيمة لتعيش وحيدة؛ همها انتظار بسمة التي كانت تزورها مرة كل شهر، أولاً بسبب الفقر وثانياً لأن نظام الثانوية يحتم على الطلاب أن يكون هناك وكيل عنهم ليخرجوا من المدرسة آخر الأسبوع لزيارة أهلهم. فقرر «عثمان» زوج عقيلة التكفل بسمة واصطحبها من

الداخلية حينما تريد، وأحياناً يطول غيابها لأنها لا تملك ثمن تذكرة الذهاب والعودة كما أن عثمان لا يذهب للمدينة إلا نادراً.

ويوم يحين موعد وصولها يكون عرس نعيمة التي كانت تشتاق لها أكثر من اشتياق الأرض للمطر، أما بسمة فكانت كل مرة تدخر ما تستطيع حارمةً نفسها من كل شيء لتهدى شيئاً بسيطاً لوالدتها، تلك التي عاشت على عتبات الأحزان وتجرعت كل أنواع العذاب والحرمان، والتي أضحت تضاعف من عملها وجهدها في الزرع والبذر لتبيع من الغلة وتدرس ابنتها.

كما أنها كانت تباع ما تبيض دجاجاتها من بيض وما تنتج بقرتها من حليب، لتدخر لوحيدتها مصروف دراستها. فتبادلت كلاهما التضحية والإيثار من أجل أن تسعد الواحدة الأخرى.

أكملت بسمة مذكراتها تملأ بياضها وهي تتذكر بدموع هاربة من مقلتيها شاردة الدهن في منزلها الرائع وقد أصبحت امرأةً فاتنةً جميلةً مخلفةً سنوات طويلة وراءها لكنها أبت أن تنساها، تعيد شريط ذكرياتها... كانت تعود من الداخلية فتجد أمها نحيفةً هزيلةً ملطخةً بوحل الأرض ودخان النار، وهي تعد طعامها وتنتظر قدومها لتشبع عينيها من وجهها وقد زادت الأيام من اشتياقهما وهي تحارب كلام الناس وهم

يتبادلون اللغو واللغظ على نعيمة التي خالفت قانون القرية وبعثت ابنتها لتكمل دراستها خلافاً لكل بنات القرية. وما كان من نعيمة إلا الرد بالصمت والتجاهل مفتخرةً ببسمة التي تميزت عن الجميع بنجاحها وكفاحها رغم قسوة الظروف وقهرها.

كل هذا وبسمة التي كانت تستغل تلك الأيام عند قدومها في مساعدة والدتها في الزرع والحرث متباهيةً بتلك الأرض التي مات والدها وهو فلاح وفأسه على كتفه. وجدتها التي كانت تمسك بيدها وهي ترافقها حافيةً تلعب فوق ترابها وتتحدث مع الثور والجرار صديقيها الوحيدين.

- لهذا فأنا فلاحه ابنة فلاح، كبرت وتعلمت من خيرها وسأواصل في حرثها وبذرها شتاءً كلما سمحت لي الفرصة. وأحصد غلتها صيفاً وأنا أفتخر لوقوفني بجانبك يا أمي فأنت من صنعني وأنا لن أكون شيئاً من دونك...

كلمات ترددها بسمة كلما منعتها نعيمة من مساعدتها في حرث الأرض إشفاقاً عليها وأن العمل بالأرض ليس من مقامها حسب قولها، لكن بسمة كانت تنتزع الفأس من يدي والدتها وتمسك به واضعةً إياه بين راحتي يديها الصغيرتين الناعمتين، ترفعه وتغرس رأسه الحاد في بطن الأرض معلنةً أمام الجميع أنها تفتخر بأرضها وأمها.

كل هذا كان يزيد من عزيمتها ويثلج صدر والدتها فابنتها رفعت رأسها أمام الجميع بعد أن عانت الذل والهوان. خاصةً زوجة أخيها التي كانت تنظر لها بعين الحسد والغيرة وهي تلاحظ نجاح ابنتها مقابل فشل أبنائها الذين كانوا يتسكعون في مقاهي القرية؛ الشيء الذي دفع بوالدهم للسفر إلى الغرب والعمل ليل نهار رغم كبر سنه لتأمين لقمة عيشهم.

ومع مرور السنين أصبح لا يزور القرية إلا نادرًا وما بقي يجمعه بعائلته تلك الدراهم التي كان يبعثها لعائلته كل شهر، حتى أن إشاعة ملأت سماء القرية تنبئ بزواج سليم من إحدى نساء المدن في الغرب، وهذا ما حال بينه وبين عودته للقرية.

كل هذا دافع زاد من حقد فاطمة على نعيمة وهي ترى فرحتها المزروعة بعينيها كلما نجحت ابنتها ورفعت رأسها أمام أهل القرية. فكانت الاستثناء في بنات جيلها في التميز والذكاء وحسن الخلق وحلاوة الروح ورقة المعاملة والتعامل مع الجميع؛ مما دفعهم إلى حبها الشيء الذي رفع من مقامها ومقام والدتها التي كان يعتبرها الجميع نكرةً لا حول لها ولا قوة.

مقابل هذا فنعيمة كانت تخفي عن بسمه ما كانت تلاقيه من ظلم بسبب غيرة الناس من نجاح ابنتها وتفوقها فقد حرموها من إعانات

الجمعيات التي مُنِحَت للمحتاجين رغم كل مظاهر الفقر والاحتياج التي كانت تتوفر فيها.

جيرانها ومن يمتلكون أراض فوق أرضها كانوا يقطعون عنها مياه السواقي المؤدية لأرضها وهي الوحيدة المذلولة بينهم، وعذرهم الوحيد أنها أصبحت تتكبر بنجاح ابنتها ولم تعد من طبقتهم وهم يدركون جيداً أنها في أمس الحاجة للإعانات والعمل في الأرض لتعيل نفسها ولتؤمن ضروريات بسمه لمواصلة دراستها، الشيء الذي زاد من غيرتهم والذي لم يستطيعوا الوصول إليه.

امراة كرسست حياتها من أجل تعليم ابنتها وجعلت من حياتها وحياتها استثناء عن قاعدة حياة القرويين وتحدث العالم رغم فقرها وعوزها، ومع هذا تركت بصمة نجاح في ابنتها... وذاع صيتها في كل مكان، حتى أضحت تلك المرأة المثالية التي تتداول سيرتها كل زميلات بسمه وهي تروي لهم آلام أم عانت من ويلات الزمن لتخرج من نكباته وقد رسم بروحها جرْحاً أبت أن تُهْزَم لنزيفه فسقت منه رحمها لتلد زهرة فتتخر بها أمام العالم أجمع.



(٢)

أغسطس. صيف ١٩٧٩...

كانت أيام الحصاد والميعاد لالتقاط المحصول كما يلتقط العصفور حبه من الأرض وقد رزقه الله، حيث كانت بسمه مع والدتها تعينها على حصاد الأرض بعدما زرعتها وقلبت تربتها وخاضت في وحلها ونثرت بذورها طيلة عام.

واليوم ترجع لوكرها كطائر السنونو بعد عام حافل من الدراسة والكد والتعب وقد حصدت هي الأخرى ليال كانت النهار بالنسبة لها، ترافق أوراقها ودروسها على ضوء القمر الوحيد الشاهد على اجتهداتها وهو ينيّر لها الطريق.

خزنت في ذهنها وأسكنت في قلبها تعب تلك المرأة التي خلفتها وراءها تعاند الطبيعة وقسوتها وتجابه الناس بترهاتهم وحشوهم للكلام لترك ابنتها تسافر لتدرس بعيداً عنها.

وكانت النتيجة أنها حققت أحسن النتائج وكانت من أنجب التلميذات، وتفوقت علماً وأدباً، وذاع صيتها أنها تلك البنت الريفية

الفقيرة التي قدمت من بعيد لتكمل رسالةً أوصتها بها والدتها. فكانت بذلك تحتل أولى المراتب في الفصل وكذلك في قلوب زميلاتها ومعلميها وخاصةً المدير الذي كان يعينها ويساعدها على اقتناء الكراريس والكتب ويدعمها دومًا تقديرًا لتفوقها.

لم تحفل يومًا بسمه بكلام الناس، فقد كانت بسيطةً بساطة عيشها، تغطي رأسها بمعصبة وتحمل على رأسها دلو الماء أو تأخذ الحشيش للبقرة أو تكنس فناء المنزل تروح وتجيء محاولةً التخفيف عن والدتها. وفي عطلتها تفلح الأرض وتحراثها وتقوم بتخطيطها وتحويل مياهها بين سواقيها وهي تغرد بجريانها أعذب الألحان. وكأنها ليست تلك الطالبة المجتهدة ومن ستلتحق بالكالوريا العام القادم والوحيدة في قريتها من وصلت لهذه المرتبة وشرفت والدتها البسيطة ورفعت رأسها أمام الجميع.

إلا أن بسمه ومع مرور الأيام كانت تلاحظ تغير حالة والدتها، فقد نحل جسمها واصفر لون وجهها وغارت عيناها، كما أن جبينها أصبح يتصبب عرقًا وأضحت قليلة الكلام كثيرة التأمل تتسارع أنفاسها مع جهد بسيط تقوم به. وبسمه تراقبها في صمت. ولا تعرف ما العمل سوى مضاعفة العمل في الأرض والمنزل حتى تخفف عنها من عبء مشاقها.

في إحدى الليالي وبينما بسمه جالسة في فناء المنزل تراقب نجوم السماء تحدثها بصمت وتسامرها، وهي البنت الهادئة الجميلة تروي ظلال وجهها معاناة رسمت من خلالها طريقاً وعراً أنهكها وجرحتها أشواكه، ومن عاشرتهم قهروا أمها فعذبوها بكلماتهم وأقاويلهم.

وبينما هي كذلك أحست بوخزة في قلبها لم تعرف لها سبباً، فانتفضت وذهبت بخطى مسرعة نحو أمها واضطجعت أمامها ولم تعرف السبب، وما إن لامست جسدها حتى أحست بنار تحرقها فوضعت راحتها على جبينها وقد كانت نعيمة محمومة تهذي بكلمات غير مفهومة، حينها صاحت بسمه.

— ما بك يا أمي؟ ما الذي ألم بك؟

وأصبحت تبكي وهي ترى الحرارة قد ألهمت جسم أمها. لم تع ما تفعل وعقيلة جارتهم الأقرب منهم ذهبت لزيارة والدتها. حينها تحول هدوءها وسكينتها إلى زفير فشيق فبكاء وهي تغطي والدتها ولم تجد سبيلاً لإنقاذها والليل قد انتصف أو تجاوزت ساعاته إلى صباح باكر جداً.

ركضت للفناء تبكي بصوت حزين مقهور ومنزلهما بعيد عن الجيران ولم تجد منجداً. بقيت حائرة ترافق دموعها وتنظر حائرة، تضع رأسها بين ركبتيها تارة وترفعه أخرى كالمجنونة تتخيل أمها وقد رحلت عنها إلى عالم والدها، حينها ستبقى وحيدة لا سند ولا معيل.

بقيت على هذه الحال حتى رفعت عينها بالصدفة فوجدت لوحةً سميكةً من الخشب لها مقبضان في الأعلى وفي مؤخرتها عجلتان متوسطتا الحجم. كانت محملةً بالعشب وقارورات الغاز. حينها تفتنت لفكرة وكان تلك العربة هي منقذها بعثها الله ليعوضها مساعدة الآخرين. حملت بسمة والدتها - والتي لم تكن تعي ما يدور حولها - بصعوبة بعد أن غطت تلك الخشبة بغطاء سميكة بال بداخله صوف، ووضعت وسادةً ومدت والدتها عليها ثم رفعت تلك الخشبة من ورائها وضغطت على المقبضين براحتيها وشدت قبضتها عليهما رافعةً رأسها متحديةً ألمها غير آبهة بما سيحدث أو سيُقال عنها، وقد ارتسمت صورة والدتها بين عينها وهما مخضلتين بالدموع. وانطلقت مسرعةً تجري للمستوصف الذي كان يبعد عنها حوالي الكيلومترين شادةً صلبها بقطعة قماش سميكة ودموعها شلال يروي وجنتيها وأمها تتأوه من الحرارة لا تعي ما يدور حولها.

خرجت راكضةً تجر العربة خلفها محملةً بوالدتها ترسم خطواتها ليلاً في طريق وعر ولا شيء يساندها سوى ضوء القمر، كانت تجري بحذائها البلاستيكي ونصف قدميها في الأرض لا تحس بألمهما أو ما كانت تتعثر به غير هم واحد أن تكون والدتها بخير ولو على حساب عمرها.

وكم كانت الطريق طويلة ولم تجد من يعينها سوى دموع منهمرة
وأنين موجع، تصرخ وتخرجه من صدرها المجروح ليترجم ألمًا وبكاءً.

كان المستوصف خاليًا لا تسمع فيه صوتًا حين وصلت بسمة وكأنها
بقايا إنسان والعرق يتصبب من جبينها وقدمها تسيلان دمًا وهي تتعل
نعلها البلاستيكي الممزق. فقد كانت نصف حافية وجلبت بقدميها كل
ما صادفها من أشواك وحجارة.

كل هذا وبسمة تركض باكية تجر والدتها على المحمل الخشبي
غير آبهة بكل تلك الجروح؛ همها الوحيد إنقاذ قرة عينها، أمها الممددة
على ذلك المحمل وقد تسارعت أنفاسها الحزينة.

- أرجوكم ساعدوني والدتي تموت، أين أنتم؟

لحظات وقابلها رجل وشابة يرتديان بزتهما البيضاء، فانبهرا بحالتها
المزرية ووجهها المتجهّم ثم وجها نظرهما لتلك المرأة الممددة على اللوحة.

- ما بك يا ابنتي ومن جاء بك إلى هنا؟

- ليس لدي وقت لأشرح لك، أُمّي تموت وحرارتها مرتفعة
أرجوكم ساعدوني فهي كل ما أملك في هذه الدنيا.

حينها أخذوها حاملين إياها إلى غرفة الطبيب وبسمة تنظر إليها وهي في حالة من التعب والوجع والوهن من طول المسافة، ولم تع حولها من شدة التعب والإرهاق فسقطت مغشياً عليها.

كانت غرفةً عاديةً تخبئ بين جدرانها سريرًا حديديًا قديمًا وخزانةً. وبسمة نائمة منهكة بعدما حملها الممرضون وضمدوا جراح قدميها وأسعفوها بسرعة. حينها فتحت عينيها بصعوبة فوجدت نفسها في غرفة غريبة تحوم وتجول بنظرها وهي حائرة.

وما هي إلا هنيهة حتى أفادت وتذكرت ما حصل لوالدتها. فنهضت مسرعةً ونزلت من سريرها وما إن وضعت رجلها على الأرض حتى أحست بألم كالكهرباء صعقها من إصبعها إلى قمة رأسها فصرخت من الوجع، حينها دخلت عليها شابة هزيلة الجسم سمراء البشرة محاولة التخفيف عنها وأقنعتها بالجلوس.

- أرجوك أنستي أخبريني عن صحة والدتي فقد أحضرتها البارحة في حالة خطيرة؟

- لا تفزعني يا أختي فوالدتك بحالة جيدة والحمد لله، تمكنت من إنقاذها في الوقت المناسب. حرارتها كانت مرتفعةً نتيجة التهاب بقدميها وجرح غائر استفحل في فخذها الأيسر والحمد لله لقد أُسِّغِفَتْ

في الوقت المناسب. بالإضافة إلى أنها هزيلة وضغط دمها منخفض ولم تداوي جرحها، كما أنها مرهقة جداً، كل هذا أثر على حالتها، لكن لا تقلقي ستتحسن مع الوقت، يلزمها الراحة ثم الراحة.

- جرح غائر في قدمها؟! لا أعرف بهذا الأمر ولم أسمع به من قبل!
- ماذا تعمل والدتك؟

- تفلح الأرض وتحصدها. أُمي فلاحه منذ نعومة أظافرها، وأظن أن شيئاً حاداً انغرس في فخذهما ولم تصارحني بذلك حتى لا أقلق.
- ربما، فقد نظفنا لها الجرح جيداً وسنعطيك أدويةً ليلتئم لأنه ملتهب،
وسنحدد لك موعداً آخر لتأتي بها إلى هنا وننظفه لها بين الحين والآخر.
ثم استطردت الممرضة قائلةً:

- عملت لأربع سنوات بهذا المستوصف ولم أر حالة كحالتك. ابنة تجلب أمها على محمل من الخشب تركض بها كالمجنونة مهرولةً لا تأبه بحالها سوى إنقاذ والدتها.

حينها تنهدت بسمة وابتسمت بحزن وضيق من عينيها.

- لا ألومك أنستي فتلك تاج فوق رأسي وأنا ملكة بوجودها، لا أساوي جناح بعوضة من دونها. وأنا كطائر السنونو مغتربة مهاجرة

ووكري حُضن أُمي أحن للعودة إليه كل دقيقة. ورجوعي من الدراسة إلى أرضي كعودتي إلى الجنة.

- والله العجب بعينه، بنت كالمجنونة تجر والدتها وهي تقريباً حافية في منتصف الليل تهرع لإنقاذها غير آبهة بما سيحصل لها، تحكي بدموعها الهاربة من مقلتيها حباً وإخلاصاً ووفاءً. صدقيني لم يغمض لي جفن وصورتك مزروعة في ذهني ألتقط دموعي كلما فكرت بك.

- حكاية أُمي أسطورة لكن من نوع آخر تشابكت تفاصيلها فزرعت الألم بين طيات الأيام ودست الجروح بين ضلوع الأعوام لتكون هذه المرأة، وروحها كدمات أبت أن تختفي ورفضت بدورها أن تمحوها. حتى إنها تتذكر في كل يوم ذلك الماضي الذي انتزع منها أحلاماً وعوضها كوابيس كانت تفيق عليها كل لحظة وتعيشها بصمت راضيةً قانعةً. تمر ابتسامة على شفيتها حتى تتلاشى هاربةً لتغيب وراء سحابة سوداء وتحوم حول عينيها الذابلتين.

وبعدها جمعت كل هذه المآسي وحصدت منها ابنةً جعلت منها الاستثناء، لتلد الفرحة من رحم الحزن والضحكة من عيون فاضت بالدموع، وأمل خلف وراءه خيبات كثيرة. فكنت أنا ثمرة الذل والقهر

الذين كانا الملاك الحارسان لتلك المرأة القابعة هناك. حتى مرضها تحدثته في صمت.

وأنا سأتحدى الكون من أجل أن أنير ذلك القلب ببهجة حقيقية عوض تلك المزيفة؛ لتخرج من أعماق أُمي صافيةً من شوائب الظلم والاحتقار والتسلط.

باختصار يا أنستي أنا أعيش ضمن إمبراطورية أُمي الريفية البسيطة، وأفخر بها أينما كنت. نحن فيها الملكتان والجارتان الخادمتان والمخدومتان دون حرس أو جنود.

فإمبراطورية أُمي من نوع خاص. حقل يغرد بخضرته، بقرة ومنزل بسيط يحتمي بقرميده وكفاح لا نهاية له جعل منها الاستثناء، وصنع لها إمبراطورية في عيني وفي نظر كل أهل القرية رغم بساطتها وقلة حيلتها، وضعفها وذلكها أمام كل الناس لكنها شيدت قصرها وجعلت منه أسطورةً بتعليمي وتربيتي، فأنا أحوم في إمبراطورية من صنع والدتي وهي ملكتها. وتلك الممرضة تتجاوب مع كلمات بسمه بدموع غزار رفضت أن تتوقف، ترى في عينيها ذلك البريق وهي تعاند المستحيل لصنع الفرحة بقلب والدتها وتصنع الحاضر لتبرهن للناس روعة أمها وترفع رأسها تنتقم من الماضي بخلق مستقبل يعوض ما عانت أمها من قهر وظلم واستعباد.

كانت غرفةً بسيطةً متواضعةً وإبرة مزروعة بيد نعيمة تزودها بسائل شفاف ينتقل في أنبوب بلاستيكي غليظ يفرغ من الكيس ليملاً عروقها عله يدب فيها الحياة. وقد امتصت الأعوام دمها وجفت دموعها من سخط الأيام.

نائمة كأنها ملاك تستمتع بهذه الغفوة ووجهها يحكي تعب السنين ومرارتها. تقدمت منها بسمة وهي تحبس شهيقها المختبئ في صدرها فيرتفع هذا الأخير وينزل بقوة كأن زلزالاً أصابه، تنظر لأمها وتفكر في صورتها وهي تتألم ليلاً في صمت، تلملم ألمها بدموع غزار انسكبت دون توقف لأنها وجدت الفرصة لتحكي ألمها عن امرأة وخزت روحها أشواك لتحمل أوجاعاً وتلد شقاءً أعرض عن الرحيل.

وأخذت تتلمس جسمها بلطف وفوقه لحاف خفيف. تتأملها من أخمص قدميها حتى رأسها والممرضة تأبى منع دموعها وهي تنظر لیتم تلك البنت وحياتها مرتبطة بتلك المرأة الممددة على السرير وكأنهما روحان في جسم واحد يدفعهما نبض عروق متماسكة لا يفصلها إلا الموت.

ثم استدارت نحو الممرضة وقد أحست براحة يدها تلامس كتفها وهي جاثمة على ركبتيها تقبل يد والدتها تحاول التخفيف عنها. حينها خاطبت بسمة الممرضة تنظر إليها وهي تمسك بيد أمها لتتشابك أصابعهم.

— ماذا سأكون من بعدها وأنا بها ومن أجلها؟ والله إذا حصل لها مكروه فقلبي للحزن بات مفتوحاً. هي دوائي ورفقتها عزائي، جنتي هي عندما ألمحها من بعيد حاملةً الفأس يتأرجح على كتفها وترفع وجهها للشمس فتلامس بأشعتها تلك العينين الحزینتين تحاكيها بصمتها الدفين فتترجم ببريق ولمعان يبهج صدري، لأنه يحمل ولو في جزئه الصغير حباً كبيراً ترسم به أملاً في أفق تعدى الكون وكل الكواكب.

حينها أصرخ بأعلى صوتي أُمي لقد عدت وما إن تسمعني وحتى قبل أن تلتفت نحوي أقرأ تلك الفرحة وقد ملأت كل كيائها وتولدت عنها شرارة كالسهم أصابتنني لأركض نحوها أعانقها وأبكي فرحتي برجوعي لحضن أُمي وللأرض. وكما قلت لك من قبل فهي العودة للجنة بالنسبة لي.

كيف أشرح لك والعالم كله يصغر تحت قدميها وحبها يكبر كل يوم في صدري. روتني منه وأنا أكبر في أحشائها، هي الأصل وأنا الجذع وقد خلقت لأكملها. لكن هي الحياة بالنسبة لي لو قطعت يبس عودي وتلاشيت. وما إن صمتت حتى أحست بيد والدتها تضغط عل كفها فاستدارت نحوها إذ بدموعها انسكبت بللت الوسادة وهي تنظر لوحيدتها مبتسمةً مبتهجةً والفرحة لا تسعها لأنها حصدت نتيجة تعبها طيلة

هذه السنوات، فجاءت من تنصفها وتحس بتعبها وتنحني إجلالاً لما قدمته من أجلها، أفنت شبابها من أجلها ودفنت بسمتها حتى تكبر بسمه وتعيد لها الحياة مرةً أخرى.

أجهشت بسمه بالبكاء في حضن أمها تعاتبها بتلك الدموع لأنها زرعت بقلبها الخوف والرعب وظنت أنها سترحل للأبد وستغتصب فرحتها لترحل هي كذلك مع من علمتها معنى هذه الكلمة.

- لقد أفزعني يا أمي وظننت أنك هالكة لا محالة، لماذا لم تخبريني بما أصابك حتى وصلت بك الأمور لهذه الخطورة.

- لم أشأ أن أقلقك وظننت أن الجروح ستلتئم بسرعة. لكن أظن أن حياتي كلها جروح وما أعمقها، وتأبى الشفاء حتى تترك أماراً على روحي لأتذكرها ما حييت.

- لا تقولي هذا يا سيدتي، وأنت أم لهكذا بنت لم ولن أرى مثلها، أما علاقتكما ستبقى أسطورةً لو عرفها المؤرخون لجعلوا منها وساماً يؤرخون ويحللون مزاياها ولن يجدوا لها مثيلاً.

قرية أولاد عسكر...

اليوم القرية على غير عاداتها حتى نسيمها كان مكتئباً يهب في حزن تحت سماء داكنة بغيوم الصيف تسلط غشاوةً غريبةً. حينها كانت بسمه

ووالدتها عائدتين إلى المنزل بعدما أمر مدير المستوصف توصيلهما بسيارة الإسعاف.

عند وصولهما لاحظتا هدوءاً غير مألوف يبعث على القلق والحيرة. ولما بدأت أسقف المنازل تتضح لهما وهما تقتربان وجدتا جمعاً من الرجال يقفون متجمهرين أمام بيت «عبد الله»، وأعينهم شاخصة بالأرض يتكلمون بهدوء وبطريقة توحى بحدوث أمر غريب.

— ما الذي يحدث يا بسمة، ومن توفي؟!

— لا أفهم؟!

كانت جنازة مهيبةً. تناقلت فيها الآلام لتزيد من صراخ النسوة وقد أجهشن بالبكاء. عانت الأمرين واليوم تموت على عتبة الألم والقهر، لم تذق يوماً حلوًا في حياتها عاشت يتيمةً وتزوجت لتعانق ويلات العذاب والاستعباد، كانت من أقرب صديقات نعيمة كما أنها كانت قريبتها الوحيدة.

— توفيت علجية يا نعيمة. رحلت وتركتنا.

بقيت نعيمة جامدةً حائرةً جائمةً في مكانها أمام بيت صديقتها بعدما طلبت من سائق سيارة الإسعاف إنزالهما هناك شاكرتين صنيعه.

— من أين أتيت وما بال قدمك؟

استقبلتها عقيلة التي كانت حائرةً تستفسر غيابها عن المنزل هي وابتتها. ولاحظت رجلها المضمدة وهي تنزل من سيارة الإسعاف فسألها والحيرة تملأ مقلتيها. ولم تمنحها فرصة للإجابة واستطردت قائلةً:

- الدنيا قائمة وقاعدة وأنت غائبة لا أدرك لك أثرًا ولم أفهم سر غيابك. ثم صرخت فجأةً وقد انفجرت باكيةً:

- لقد تُوفِّيتِ عِلْجيةَ قريبتك وصديقتك الوحيدة.

تُوفِّيتِ بعد أن أنهكها التعب وظلم الوحش الذي عاشرتَه وقاسمته حياتها وأفنت عمرها في خدمته. كل هذا والنسوة يتصايحن ويصرخن فاختلط كلامهن وأضحى غير مفهوم.

جثمت نعيمة في مكانها صامتةً وهي تطوف بخيالها لعالم غير ذلك العالم المملوء بالآهات والعويل. بقيت شاخصةً وقد دخلت بصعوبة بين النسوة. وجلست على ركبتيها تتأمل عِلْجية وهي ممددة أمامها، تنظر للجميع كأنهم أشباح تتماوج ألوان ملامحهم وخُيِّلَ لها أنها صفراء وأن صيحاتهم تتعالى لكن من دون صوت.

تنظر حائرةً لتلك الجدران التي جمعتها بعِلْجية وهما يتبادلان همومهما لتحولاهما إلى ضحكات مسروقة من أنياب من كانتا تسميانهما أهلها.

علجية تلك الفتاة المسكينة التي عانت غطرسة وقهر زوجة أبيها، ومع ذلك كانت تحولها وترجمها لضحكة صافية تناسى بها ألمها ووجعها. صداقة كان النهر شاهداً عليها ونعيمة تذهب لمرافقة علجية للوادي وهما تغردان أجمل الألحان فتمتزج أهازيجها بزقزقة العصافير وتغريد النهر ونسيم الرياح التي تتلاعب بالحشائش يميناً وشمالاً وكأنها نوتات موسيقية من نوع خاص.

فرغم بساطة عيشهما وألم كان يكبر في صدرهما وأحياناً تضيق بهما الدنيا، إلا أن رفقتهم كانت تخفف من عبء الحياة. فكانتا تسبحان في أجواء الفضاء برنين ضحكاتهما رغم الحسرة وعجزهما عن التمرد ضد من جعلوا حياتهما استعباداً واستغلالاً.

فعلجية وبروحها المرحية كانت دائماً تقلد زوجة والدها ومن جهة أخرى تتقمص دور فاطمة زوجة أخ نعيمة وهي تحكي طباعهما السيئة، وبذلك جعلت الصديقتان من أيامهما جنةً بالرغم من أنها الجحيم، لكن تتوالى الأيام لتصبح الفتاتان راشدين وتستقرا في بيتهما وتخففا من لقاءاتهما.

ومع هذا كانتا تنتهزان الفرصة في أخذ بقرتيهما إلى الجبل في مكان كان الجنة فوق الأرض ويُدعى «السرا»؛ تريان من خلاله بيوت القرية وقد صغرت كعلبة كبريت، والشابتان مسحورتان بجمال المكان وكأنهما تريانه لأول مرة.

تجلسان قرب تلك السواقي الطويلة وهي تتفرع من شلال صغير ليتحول ذاك المكان إلى فردوس، تتنفسان فيه مخرجتين هموماً أثقلت صدريهما.

وعلجية حالها أسوء بكثير من حال نعيمة، خانها حظها بأن تزوجت من رجل إتكالي كسول أناني، يعمل يوماً لينام عشرةً، وكل ما كان يجنيه يشتري به لباساً لنفسه أو لحماً وفاكهةً يجترها كالثور لوحده كما كانت تسميه علجية أمام أعين أولاده، وهي المسكينة تحاول إسكات جوعهم بقطعة «الكسرة» التي كانت تنضجها فوق «طاجين» صُنِع من الطين على نار تلتهم الأغصان التي اقتلعتها علجية من شجرة «الدردار».

فكانت النملة التي تستعد لشتاء بارد وتحمي بذلك صغارها الثلاثة. أما زوجها فقد كان الصرصور الكسول الذي يعول على امرأة ضعيفة ويطمع في لقمة أولاده. لقمة أنهكت جسم زوجته النحيل والأرض تأخذ من شبابها وذنباها أنها زرعت كل أحلامها فقط لتربية صغارها.

الأرض مكان التقائهما والمتنفس الذي تبوكان فيه بمكونات قلبيهما، وإذا اشتدت عليهما الهموم وضغطت عليهما الدنيا فأطبقت على صدرهما - وخاصةً علجية - ووصلت معاناتهما إلى الذروة كاتنا تمسكان الدمع بصوت مرتجف، وتسارعان إلى التقاطها والرجوع عن ضعفهما كلما أحستا بؤسهما وشقائهما.

كيف ستنسى نعمة كل هذه الذكريات والسنين التي تقاسمتها بجوار علجية رفيقة دربها والتي كانت تنوي أن تكملها معها خاصةً بعد غياب بسمه عنها، وماذا عن أولادها الثلاثة تركتهم وأظافرهم لا تزال ناعمةً وأجسامهم وعقولهم لا تتحمل أوزار هذه الحياة القاسية وقد تحملتها بدلاً عنهم لأنهم كانوا الأمل بالنسبة لها وبصيصه الذي تطل به إلى أفق بعيد.

رحلت بعدما نالت ما يكفيها من الضرب والتعذيب والشتم فردت بابتسامة لم تفارق شفيتها يوماً. واليوم رحلت بابتسامة أخرى لتستقبل عالمًا آخر اختارت أن ترحل إليه بهدوء وسكينة.

خطفها الموت من نوم مؤجل مؤقت إلى نوم معجل دائم، ليصحبوا أفراد عائلتها ويجدوها جثةً هامدةً أنهكتها سنوات الفقر فضاعت نفسها في بحر تلاطمت أمواجه غاضبةً لكن دون تمرد. فتمردت هي على الحياة بصمت واختارت الموت والرحيل إليه بسرعة.

حُمِلت علجية على أكتاف الرجال وأبصارهم شاخصة بالأرض ليكون رحيلها المفاجئ ومن خلفتهم وراءها ولا يزالون محتاجين لصدرها وجسمها وروحها بعدما أنهكتها خيانة الزمان وقسوة الوحوش وهم في هيئة بشر.

- وداعاً علجية. تركت فراغاً أعمق من كل الفراغات. رحلت دون توديعي. تركت بسمتك محفورةً بذاكرتي التي أنهكها سفر من أحبهم دون عودة، لتكون محطتك أنت اليوم تسافرين دون عودة وبدون أن تلتفتي للخلف. لكن لا تأبهي فأولادك أمانة بعنقي.

رددتها نعيمة وعلجية تتعد عنها تحسها تنظر إليها بابتسامتها الرائعة ونعيمة لا تحرك ساكناً ولم تذرف ولو دمعاً واحدةً.



تتابعت الأيام وجرح نعيمة لم يلتئم. روحها لم تجد للشفاء طريقاً، وأيام الصيف تودع فصلها على أمل أن تلقاه العام القادم، أما بسمه تضاعف من مجهودها تحاول جمع وإدخار مصروفها لتستهل عامها القادم وهو آخر سنة لها بالثانوية. حلم طالما راودها للالتحاق بالجامعة.

كما أنها كانت تحاول تخفيف العبء عن والدتها المنهكة وقد لازمت الصمت وصاحبها بسبب وفاة علجية حاملةً همّاً آخر تركته علجية من ورائها؛ ليزيد من الحسرة والوجع. فأضحت تتجول في كل مكان تقاسمته مع علجية.

فلم تدع شجرةً أو صخرةً ولا حتى وادٍ إلا وجلست فيه، كانت تطيل المكوث في أعلى منطقة بالقرية «السرا» أجمل وأروع

مكان ضمهما فجمع أحزانهما ومسح دموعهما، تقبع جالسةً وحيدةً شريذةً مستوحشةً ترافق بقرتها وهي تمنع النظر، لكن خيالها يحلق لأيام لن تعود، لا هذه الأخيرة ولا من كانت تجملها بابتسامتها وبساطتها.

تمسح عرق جبينها بمنديلها من لفحات الشمس، ولا تجد من يمسح دموع قلبها المنتفض في روحها فقررت مخاصمة الفرح إلى الأبد وأوت إلى نفسها منعزلةً تروي بؤسها وهي التي جعلت من نفسها المتحدر لكن بقلب ينبض الحزن وبعيون تحاكي الأسى.

- لا أفهم يا أمي لماذا الزمن يسقينا من كأسه المر وكأنه ينتقم منا. كانت تحاورها وهما بفناء المنزل تجلسان على حصيرة من الحلفاء، تتسامران مع النجوم وتحكيان ظلمة الليل وسكون قمره المضيء على تلك القرية البائسة ليحولها إلى غرفة كبيرة وكأنها مضاءة بفانوس.

- هكذا تعودنا يا ابنتي أن نواجه انتقام الزمن بصيحات ثأر من أنفسنا، نثور ونبكي ونصرخ ونغضب وبعدها نهدئها بتضميد جروح بقيت بداخلنا واستفحلت في أنفسنا لنقتلع البسمة ونزرع بدلها عذابًا وقد ألفنا صحبته الدائمة ونسينا السعادة التي لم تعد تفاجئنا ورحلت مع من ودعناهم.

تنهدت كلتاها بنفس واحد وكأنه يخرج من روح متحدة، زاد حنينها إلى الأمل والسعادة فأضحيا بعيدين يستحيل الإمساك بهما.

- لكنك لم تخبريني يوماً عن ماضيك، أقصد طفولتك كيف عشتها، خاصةً بعد وفاة جدي الذي لا أعرف كيف استشهد؟

حينها رفعت نعيمة رأسها وحامت بنظرها وكأنها تجوب العالم قبل سنوات مضت، وأجابت بصوت ضعيف وهي تغتصب ابتسامةً باهتةً:

- انخرط والدي في سلك الثوار، تركني رفقة والدتي نعاني الفقر والحرمان. ككل من في القرية ومن آمنوا بأن الجهاد واجب وحق وأمر لا بد منه لتتحرر البلاد من استعباد سنوات طويلة تجرعنا خلالها كل أنواع العذاب والحرمان وطمس الشخصية والدين.

كنا نشاهد خيرات بلدنا تُسْتَنْزَف وكرامتنا وديننا يُقْتَلَعَان من جذورهما لنصبح أناساً انْتَزَعُوا لباس الوطنية والإسلام بالغضب، ألبسهم الاستعمار الغاشم زياً غريباً عنهم إجباراً. فكان الانفجار سنة اثنين وخمسين وتسع مائة وألف باندلاع الثورة.

بعدها وبستين قرر والدي «محمد» الالتحاق بصفوف زملائه. وتقبلت والدتي قراره الذي لم يكن بالمفاجئ، وساندته وعقدت العزم على أن تكون حليفته وسنده.

كان يأتي خلسةً في الليل يأخذ بعض الأكل ويوزع المناشير ويأخذ المؤونة لأصحابه في الجبل، حتى أنني أتذكر يومًا أنه جاء لزيارتنا ليلاً بعدما طال غيابه ولم نره لشهور كان عمري وقتها سبع سنوات.

ومن جهة أخرى قام جيش الاستعمار بنصب كمين لأحد الثوار حينها كان والدي منهمكاً في جمع ما اعتاد جمعه وكان يوصي والدتي بأن تأخذ بعض المناشير لإحدى الممرضات في المستشفى باعتبارها فدائيةً في صفوف الثوار.

وبعد هنيهة سمعنا صوت الرصاص، فخرج والدي مفزوعاً وأدرك أن هناك من وشى به أو بأحد رفاقه فتسلق شجرةً عاليةً تشعبت بكثرة أغصانها وفروعها مخبأً بين أوراقها، والعدو منشغل بتفتيش المنازل ليجبر كل الأهالي على الخروج وإخلاء منازلهم في منتصف الليل والبرد يرافق ذلك الظلام الدامس، وسكان تلك القرية متجمدون خائفون.

لم يرأفوا لا بصبي ولا بامرأة، ولم يرحموا لا رضيعاً ولا عجوزاً، وحين أدرکوا منزلنا سأل القائد بعض عساكره عن رب المنزل فأخبروه باسمه، وقد كان ممن أدرجوا بالقائمة السوداء. فتغير لون وجهه المسود وأصبح يصرخ في وجه أمي ويضغط عليها لينتزع منها بالقوة مكان والدي أو زملاءه.

لن أنسى ذلك اليوم ما حييت وأمي المغلوبة على أمرها صامتة ترتعب وهي ممسكة بيدي، وحين ضاق ذرعاً بها صفعها بقوة فسقطت مغشياً عليها فانفجر شاربها السفلي بالدم وأقبلت أبكي وأنا أحضنها.

كل هذا حصل أمام والدي الذي كان معلقاً بغصن الشجرة ينظر وينتظر وهو يرى زوجته تُهان أمام عينيه من أجل إعلاء علم لا يريده أن يُداس أو يُهان ولو كان على حساب عائلته، علم بلونه الأبيض وفوق أرضه الخضراء وقد سُقِيت من دم كل من أعزها ورفض أن تُدَلَّ أو تنكسر.

نزلت دموع والدتي من منهل أظنه الألم والوجع. وضعف صوتها وأمسكت عن الكلام قليلاً ثم استطردت تكمل.

- وفي يوم من أيام الشتاء الحزين الملبدة بغيوم سوداء، كنت مع أُمِّي وهي تزيد من لهيب النار برميها لتلك الأعواد التي قطعتها من شجرة الدردار، تهيم ببصرها في صمت رهيب وقد طال غياب والدي ولم نره لمدة خمسة أشهر واستحال الاتصال به أو معرفة أي شيء عنه.

وأضحت والدتي المسكينة تحكي خبيتها وهي تستفسر عنه كل من تراه قادماً من الجبل تسأل عن زوجها وترجوهم أن يبحثوا عنه بين صفوف الجرحى إلى غاية ذلك اليوم كما قلت لك حين أنبؤوها بأن سكان القرية وجدوا جدي ممدداً تحت ظل شجرة شهيداً وقد رُسِمَت

بجسمه جروح وكدمات بعدة ألوان، فتجمع الدم تحت جلده في عدة أنحاء من جسمه من شدة التعذيب.

ولا أستطيع أن أصف ما جرى لتلك المسكينة أُمي خاصة حين أعلموها أن الرجال الذين وجدوه اتفقوا بعد أخذ رأي الإمام دفن محمد في نفس المكان الذي وجدوه فيه بعد أن صلوا عليه باعتباره شهيداً ودُفِنَ بملابسه دون تغسيله بسبب حالة الحرب، ومنذ ذلك الوقت وأُمي تعاني ويلات الزمن واضطهاد الاستعمار وظلمه.

مرت السنوات وبقينا أنا وأُمي نرافق أحزاناً جلبتها رياح عاتية لم تتركنا إلى أن تُوفيت والدتي وصاحب قلبها بنبضاته المرتجفة كل همومها التي أقسمت بأن لا أتقاسمها مع أحد.

كنت أنظر لأُمي وهي تعيد شريط ذكرياتها، غارقة في بحر أفكارها وانصرفت بأحزانها لسنوات البؤس التي عانت من مرارتها وهي العلقم. وأنا ألمس تلك الدمعة المدفونة في قلبها والتي أبت أن تخرجها لتزرع بعدها هموماً ومآسي سكنت روحها فحولتها إلى أشلاء متناثرة بعدما فجرتها صمتها الدفين.

حينها قررت أن أكون أنا الفدائية لأنهي سنوات الاستعباد التي ألمت بحياة أُمي منذ طفولتها وأخطف الحرية لأهديها لها، بمشابرتي

ونجاحي في الدراسة فتكون وسامًا أهديه لأمي وألصقها بصدرها
المجروح حتى يلتئم، وأوقف نزيف دمها المتدفق من ضلوعها بعدما
جُرحت بسكين القهر والظلم.

مع أنني أدرك جيدًا أن طريقي سيكون مملوءًا بأشواك ستُغرس في
قدمي، إلا أنني سأقتلعتها وأواصل لتُفاجأ أُمي بطريق معبد بالأزهار
زرعته أنا لتحصده هي، فأنا ثمرة ذلك الكفاح والتعب والتحدي الذي
واجهته أُمي لأصل أنا للقمة وتصنع مني استثناء.

بعد مرور عامين، سنة ١٩٨٢...

بدأ العد التنازلي للدخول المدرسي وهي آخر سنة لبسمة.
الصف النهائي في الثانوية، وبداية خطوة لتكون عتبةً لدخول
الجامعة، حرم كان يبتهج للوصول إليه كل الشباب ليتخلصوا من
البيت وروتينه اليومي.

لكنه العذاب بالنسبة لبسمة وأمها لأن رحلة الفراق ستبدأ من جديد
والاشتياق سيطول ليحمل عبر أجنحة الحمام من مدرسة بسمة لأرض
والدتها، وساقها لا تحمل أي رسالة سوى هديلها الحزين وهي تلتقط
الخبز المنثور بفناء نعيمة هذه التي تحاكي أرضها وترافق بقرتها حاملّةً
فأسها على كتفها وتعمل بصمتها الدائم وقد أخرستها نكبات الأيام...

كانت بين كل نكبة ونكبة صدمة إلا ما استطاعت إنقاذه، وهي ابتتها فرحة سرقتها من مخالب العذاب لتبنيها على أنقاض همومها وأحزانها تتأمل كل يوم نجاح ابتتها، الدافع الوحيد الذي جعلها تلملم أشلائها المبعثرة على حواف قريتها المغتصبة لإنسانيتها.

كانت ثانوية «الكندي» من بين الثانويات القديمة المعروفة بساحتها الواسعة. كما أن نظام التدريس والداخلية بها كان واضحًا وصارمًا حتى أن اللباس كان موحدًا وإجباريًا للذكور هندام معين وللبنات هندام خاص بهن -وكم عانت بسمة رفقة أمها حتى وفرت لها هذا اللباس- فخلال الصبيحة هناك مواد معينة حسب البرنامج المسطر يتم تدريسها، وبعدها استراحة قصيرة للطلاب لتناول وجبة الغذاء بمطعم المدرسة، وخلال الظهرية تُستأنف الدروس المسائية، وبعدها يتم تزويدهم بدروس تدعيمية ليتفرقوا بعدها.

الطلاب يبقون بالداخل منصرفين إلى غرفهم أما الطالبات فيتم مرافقتهن لمساكنهن خارج الثانوية لأن الداخلية الخاصة بالإناث بُنيت خارج أسوار الثانوية. فيلتقين مرةً ثانيةً على طاولات العشاء وقد اجتمعن وهن يحاولن كسر لوحة الغربة المرسومة أمام أعينهن، يتآلفن ويتصادقن ويجعلن من تلك اللحظات أنسًا وعزاءً لبعدهن عن أهلن وأقاربهن.

وبسمة كانت واحدةً من هؤلاء الطالبات لكن ما رسم بروحها أعمق مما اختلج بصدر زميلاتها وابتسامتها كانت ممزوجةً بماضٍ رافقها فرسمت البسمة خجولةً حزينةً عكس ضحكات البنات التي كانت تخرج لتنتح بجدران الغرف.

هم بسمة الوحيد إنهاء دراستها والانتقال للجامعة ومكافأة والدتها على صنعها، أو بمعنى أدق على تضحياتها المتتالية والقبول بمهانة الناس وكلامهم الجارح الذي بقي وشماً على صدرها. كل هذا والصمت رفيقها. فحياتها في الثانوية كانت كفاحاً وجهاداً تحاول أن تمنع نفسها من كل ما اشتتهه بسبب فقرها وعوزها وهي تدرك جيداً أن مصروفها الزهيد قطع من لحم والدتها.

أشبع روحها بملذات الدراسة والمذاكرة وصاحبة النجوم ليلاً حين كانت زميلاتها يستمتعن بنومهن وقد رافقته أحلام جميلة، أما بسمة فجعلت من نومها محرماً وحولت حلمها إلى كابوس لأن أمها عاشت الألم والقهر، ولهذا دفنت بسمة أحلامها في صدرها المثقل بالهموم وقررت مصيرها وعرفت طريقها ورسمت مسلكه حتى تكافئ من تعيش اليوم من أجلها وتتنفس بوجودها.

أما طباعها فهي الطالبة الهادئة المثابرة والخجولة قليلة الكلام، ملامحها وخطوط وجهها المعتدل الجميل تحكي قصة معاناة رافقتها

حتى الثانوية وقلبها فاض بالهموم. أما عقلها فهو حبيس التفكير بوالدتها وهي تصارع وتتحدى الحياة من أجلها.

في نهاية كل أسبوع غالبية الطالبات كن يحصلن على سلة من الحلفاء مُلِئَتْ بمأكولات اختلفت ألوانها وأشكالها تبعثها أمهاتهن مع الآباء أو الأصحاب والأهل، فيسعدن بها أيما سعادة وحينهن يزيد لجمعة الأهل، حينها تجتمع الفتيات حول ذلك الغطاء الأبيض المستدير المفروش على الأرض وقد وُزِّعت أنواع الأطباق عليه وهي محفوفة بالكسرة والفواكه المقطوفة من أرض القرى المجاورة، والفتيات يأنسن بلمة آخر الأسبوع وهن مبتهجات سعيدات.

أما «شافية» وهي صديقة بسمة والأقرب لقلبها، الوحيدة من تعرف كل أسرارها وظروفها، وتفهمها جيدًا. تشاركها غرفتها وحتى أحزانها وأفراحها التي قلما تفاجئها. كانت تدرك جيدًا وضعها وتعرف أن والدتها لا تبعث لها كباقي الفتيات بالأكل والزاد إلا نادرًا خاصة أن لا قريب لها يزورها أو يطل عليها.

وكانت نعيمة تنتهز الفرصة عندما تسمع بذهاب أحد جيرانها لمدينة «جيجل» تترجاه أن يأخذ بعض الكسرة واللبن والزبدة لبسمة كما أنها لم تثقل عليه في الحمل فكانت دائماً سلتها خفيفةً، حينها كانت بسمة تنقسم ما جُلِب لها مع شافية وهي تحن لوالدتها وتشتاق لرؤيتها وعندما كانت الفتيات تجتمعن تحاول بسمة اختلاق كل الأعذار حتى لا تأكل مما جلب أهلن لأنها لا تملك ما تشارك به. لهذا كانت شافية دائماً تقنعها بالانضمام إليهن وأنها ستعطيها من زادها على أساس أنه لبسمة حتى لا تُحَرَج أمام الفتيات لكن عزة نفسها أكبر بكثير من إقناعها بالالتحاق بهن. وفي كل مرة كانت تتذرع بشيء حتى لا تشاركهن جمعتهن وحكاياتهن المصاحبة لضحكاتهن العالية.

- لا أفهم عنادك يا بسمة، لن يكون أي إحراج وأنت تشاركينا جمعتنا لذا فإنك تبالغين في حساسيتك المفرطة. ليس شرطاً أن تجلبي معك أكلاً حتى يسمح لك بالالتفاف مع البنات حول الأكل.

كلنا مغتربات عن أهلنا ولا يعزينا سوى هذه الضحكات والسهرات لنجدد أجسامنا وعقولنا التعب. إضافةً إلى هذا فأنت معي وكل ما يجلبه لي والدي هو لنا. أرجو أن لا تتحسسي من أمور تافهة.

- أنت تعرفين وضعي وحياتي كما أنك تفهمين رفضي، لن أكون عبئاً على أحد، إما أن أشارك أو لا أحضر أبداً. لكن في كل مرة أجلس معكن خالية اليدين لا وألف لا، والحمد لله فالأكل متوفر في المطعم أرجو أن لا تلحي علي يا شافية وأشكر اهتمامك بي.

- والله إن لم تحضري معي لن أذهب ولن أجتمع مع الفتيات.
قالتها وهي في حالة غضب وقد عقدت حاجبيها وتغيرت ملامح وجهها:

- سأقتسم معك ما جُلب لي. أرجوك يا بسمة لا تعقدي الأمور وكوني بسيطةً بساطة الحياة، خاصةً وأن هذا عامنا الأخير ولا نعرف إن كنا سنلتقي مرةً ثانية أم لا.

حينها أمسكت بسمة بطبق «الكسكسي» وبعض الفاكهة التي قدمتها لها شافية على أنها لها ورقرت الدموع في عينها وشافية تحضنها وتهون عليها وأفهمتها أن الأمر يسعدها وأن الصداقة مشاركة في كل شيء وتنازل وتضحية.

كانت ليلةً من ألف ليلة وليلة اجتمعت فيها الفتيات وملأن جدران الغرف بقهقهات وضحكات وهن يحاولن اقتلاع جذور الغربة وزرع الأمل والبهجة بصداقة جمعت بينهن. وبسمة ولأول مرة ترافق

ضحكات زميالاتها وترسم لوحةً بألوان مختلفة تحاول إخفاء اللون
الرمادي من لوحات حياتها ومن تعب السنين التي أنهكت روحها
وأثقلت كاهل والدتها المنكسرة من ظلم الماضي وعذاب الحاضر
والتخوف من المستقبل.



(٣)

لا نعرف ما إذا كنا أحرارًا نوجه سلوكياتنا أم هي التي توجهنا،
وتفرض علينا نمطًا معينًا من التفكير لكن حياة والدتي والبيئة التي
ترعرعت فيها فرضت عليها نوع الحياة التي تعيشها واتخذت منها
أسيرةً لظروفها القاسية ولأهلها الأقسى، وتراكت همومها وجعلتها
حبسة لهم كرهاً لا اختياراً.

لتبدأ رحلة أخرى من العذاب لم أتوقع مرورها بحياتي أنا ووالدتي.
وتكون محطةً أخرى من محطات الوجد والألم. كل هذا وأنا أغطي
بياض مذكرتي بلون القلم الأسود وأخط ماضٍ لن أنساه مهما عوضني
الزمن، فجروحي بقيت مرسومةً مهما زال الوجد.



مرت الأيام ترتب أحداثها وتحكي قصصها وتفاجئ أهلها. وتلك
القرية تغط في نومها الدائم واستيقاظها يكون هادئاً هدوء النسيم وهو
يمر ببساتين خضراء رسمت خطوطها بيد النساء والرجال وأضحت
جنةً غناء فوق الأرض.

أما نعيمة فهي تعيش بين جبال تلك القرية تجتهد وتكابد الألم. تتعثر وتعاود النهوض من أجل ابتتها. تعاند الطبيعة بقسوتها شتاءً وتأبى الاستسلام. فتملاً بطنها بالبذور وتقلب تربتها وتهينها حتى يتحول لونها البني لخضرة، تبدأ براعمها في إخراج رأسها لتنمو بعد ذلك وتملاً العيون بهاءً بخضرتها كعروس تفرح يوم زفافها.

بالمقابل لم تكن حياة بسمة بالداخلية سهلةً كذلك، فهي تكافح بدورها وتكابد الأيام بقسوتها، لا تحرم نفسها من ملذات الحياة وإنما هي أصلاً محرومة منها أو هي المحرمة عليها، وجسمها الهزيل يحاول مواصلة الدرب وهي في عامها الأخير بالثانوية، تريد تحقيق أمنية والدتها وقد خانتها الأماني والأحلام.

تريد إعادة البسمة التي خاصمت شفتي أمها، ووعدت نفسها أن لا تصطدم الفرحة بقلبها حتى تجلبها لها بسمة. هذه الكلمات بقيت كجمرة مشتعلة تحرق جدران قلبها المصنوعة من ورق وهي تتذكر ألم وحزن والدتها.

وتخمد أحياناً عندما تدرك أن لها رباً لن ينساها وأن نعيمة جعلت منها الابنة المميّزة عن كل فتيات القرية ومع ذلك فذلك الجمرة لن تنطفئ حتى ترى أمها كملكة بين البشر كما جعلت منها ملكة على قلبها وهي العبد لأمانيتها وأحلامها.

لكن صعوبة الأيام وقسوتها وكثرة المذاكرة والدراسة ألزمت بسمه الفراش بسبب إرهاق حاد أصابها وسقطت مغمى عليها مما أجبرها على أخذ راحة لمدة خمسة عشر يومًا بأمر من الطبيب.

كانت حينها تهذي وتردد اسم والدتها وشفافية تسهر عليها وتحاول التخفيف عنها. كما أن كل طالبات المدرسة كن يترددن إليها ليوفرن لها كل الراحة كما اهتممن بأكلها وجلبن لها كل ما لذ وطاب لتستعيد عافيتها. في تلك الفترة انقلب حال نعيمة وزاد توترها وأحست بخطب ما فلجأت لزواج جارتها عقيلة ذلك الجار الذي كان يطل على بسمه من حين لآخر تترجاء وتتوسل إليه أن يزور ابنتها.

- أرجوك يا عقيلة نار تأكل روحي وتآكل على بسمه أحس أن خطبًا ما أصابها. لهذا قدمت إلى هنا أترجأك أن يذهب «سي عثمان» لزيارتها وسأدفع له تكاليف النقل.

- ما الذي تتفوهين به يا نعيمة. بسمه ابتتنا كما هي ابتتك تربت في حضني. لكن عثمان ليس له شغل بمدينة جيجل ولا أشك أنه سيعاود الذهاب إليها إلا بعد مدة. لكن سأخبره بالأمر وأرد عليك لا تخافي ولا أظنه سيرفض.

- أشكرك يا عزيزتي. لا أملك سندًا سواك أنت و«سي عثمان» بعد الله. قلبي سيقفز من صدري وجسمي يرتجف أحس أن مكروهاً أصابها.

- لا يأذن الله، لن يحصل لها أي مكروه.

لم يكسر عثمان بخاطر نعيمة وفي الصباح الباكر أخبرها بأنه سيذهب ليزور بسمه وبحول الله سي جلب لها خبراً جيداً. وما إن وصل إلى الثانوية وأراد مقابلتها حتى استدعته المسؤولة عن البنات في الداخلية.

- والله يا سيدي بسمه من أنجب التلميذات وأحسنهن أخلاقاً. كما أنني ملمة بحالتها العائلية وظروفها وأدرك جيداً وضعها. لكنها في الآونة الأخيرة أرهقت نفسها كثيراً بسبب الامتحانات. ولهذا فنحن نحاول التخفيف عنها ومساعدتها.

لا أريد أن تزعج والدتها وبحول الله ومع اقتراب العطلة ستكون بصحة جيدة. لذا من الأفضل أن تبقى بسمه هنا تحت رعايتنا، أنا أنفهم وضعها المادي جيداً لذا سأتركها هنا تحت المراقبة وتعود لوالدتها بحول الله في صحة جيدة.

كما أعلمك أنها تحصلت على نتائج جيدة في امتحانات الفصل الأول. المهم لا أريدك أن تقلق كما أترجأ أن لا تخبر والدتها.

- أحي الإنسانية فيك كما أنك وفرت علي الكثير سيدتي بخصوص وضعية بسمه لذا فلن أخبر أمها عن حالتها كما أرجو أن لا تعرف بسمه بقدمي وبهذا نحاول مساعدة الاثنتين دون إقلاقهما.

والله مهما قصصت لك عن حالتهما فلن تصدقي حتى تري بعينيك
كما أن بسمة قطعة من روح والدتها بل هي الروح كلها عانت وتحدثت
والدتها العالم لتدريس ابنتها وبالمقابل تجرعت من كأس الحرمان والذل
والقهر. ترملت وهي شابة وحرمت من أمها ولم تعرف سنداً سوى أرض
فلحتها وجعلت منها المعيل لتحقيق أحلام عجز الرجال أن يحققوها.
فكانت ثمرة تلك المآسي وردة بالغت نعيمة في سقيها والحفاظ عليها،
ولو أخبرناها أن زهرتها ذبلت ولو لفترة صديني ستموت هي.

— لا تخف يا سيدي، ارجع وأخبرها أن ابنتها في صحة جيدة ولا
تعاني من شيء. وأنا بدوري لن أخبر بسمة عن زيارتك حتى ترجع
لوالدتها وهي معافاة سليمة.

رجع عثمان تائهاً يكلم نفسه وهو يرى حكاية جارته وابنتها. وما
تجرعنا من ويلات ورغم الصعاب والعقبات فبسمة تحقق أروع النتائج
وتتصدر المرتبة الأولى وكأنها لامست الترف والغنى حتى تحقق هذه
النتائج التي عجز كثيرون للوصول إليها.

لكنها اليوم تتحدى العالم من أجل والدتها، وأمها تعاند الدنيا
وتصارعها من أجل ابنتها. آه من دنيا لم يكن فيه الزمان عادلاً ولكن
الله هو العادل الحكيم.

لا بد لطائر السنونو أن يعود لوكره وقد حن لسقف بيت من آووه.
وبسمة تلك الطائر، ووكرها بيتها المتواضع، وسقفه حضن والدتها.

كعاداتها نعيمة ترافق بقرتها وهي تلتهم خضرة الأرض، تحاول
تقليم الأشجار، تقوم بنزع أوراقها وتشذيب أغصانها. كأنها ابنتها
ترعاها وتحافظ عليها وتحاول سد الفراغ في غياب بسمة نور عينيها.
كابدت عناء الزمن فأعيها وأصبحت هزيلة الجسم وقد أنهكها الدهر.
كانت متلهيةً عن العالم تطوف بمخيلتها وتتساءل عن أحوال
ابنتها، ولم تقتنع بما قاله عثمان فأصبح ليلها نهارًا وقد وصلته بالفجر
والشروق بالغروب ترافق الصمت وتختلي بروحها تسامرها وتسألها
اشتياقها لوحيدتها؛ هذه التي كانت مرميةً تصارع المرض والإعياء،
وتهذي باسم والدتها إلى أن حان موعد العطلة الشتوية.

حزمت بسمة حقائبها ورحلت مدبرةً ونسائم الشوق واللوعة
تأخذها لوالدتها، تحسب الميل عامًا وتخيلت الطريق طويلةً لا تنتهي
وهي تنتقل من حافلة لأخرى بوجهها المصفر الشاحب وآثار المرض
معلقة بجسمها العليل الهزيل.

وما إن وصلت لمحت والدتها من بعيد ترافق عائلتها الوفية كعاداتها
بقرتها ودجاجها وأرضها، فرقرقت عيناها بالدموع وفاضت كأنها الموج

الهائج من عواصف الألم والشوق وقد طال غيابها عن أمها ملجئها الوحيد وفرحتها... أيام توالى ببأسها وبسمة تعاندها لتتفوق على أترابها.

- أمي؟! -

صرخت لكن بصوتها الخافت، صاحت ودموعها ترافق صوتها المرتجف. لم تفهم لماذا اشتاقت لوالدتها وقد اعتادت فراقها، ربما لأن مرضها أذاقها معنى حضن الأم أو لأنها أحست بأنها ستفارق الحياة ولن ترى أمها مرةً أخرى، وتخون الوعد الذي قطعه على نفسها وتترك نعيمة في بئر عميق مظلم، أم أن الوعد من سيخونها لأنهما لا تستحقان أن تلامسا السعادة ولا أن ترافقهما هي، فقد وُجدت لفئة معينة من البشر لا غير.

لم تصدق نعيمة ما سمعته. صوت أو صدى يتردد لسمعها وينغرس في قلبها. ربما حلم تخاف أن تلتفت فيخونها الأمل فلا تجد أحدًا. وقد تعودت على ذلك الحلم وتغريد بسمة الذي لا يفارقها لكن من دون هذه الأخيرة، فأبت الالتفات حتى لا يتحطم قلبها المنكسر أصلاً تعاود سماع تلك الكلمة بصوت يرتعد وهي من قاومت من أجل أن تسمع كلمة أمي وحاربت قريةً بأكملها متجاوزةً كل التقاليد والأعراف وصنعت من نفسها وابتنها استثناءً عن كل القواعد. استدارت فإذا بها

تتفاجأ بحضنها دفأته دموع بسمه، تصرخ باسمها. لم تعي ما ترى ولم تفتن لذلك وبقيت تنظر حائرةً وعيناها مجمدتان وجسمها كالصخرة. وارتوت تلك الوجنتان بدموع حارة ساخطةً على الظروف وغسلت الوجه الحزين وهما وسط الحقل والشاهد على لقائها أرض وثور ودجاج.



كان البيت دافئاً بناره الملتهبة وهي تلتهم العيدان، يشارك نعيمة فرحتها بقدوم بسمه وجدرانه ترقص مهللةً برجوعها ولا يمكن وصف لقائهما والمنزل يضمهما كحمامة تحلق بجناحيها، فنعيمة الجناح الأيمن وبسمه الأيسر تضمهما حمامة بيضاء لا ينفصل جناح عنها ولا ينكسر، وإذا ما أُصِيب أحد جناحيها خاصمت السماء وجالست الأرض ذليلةً مجروحةً.

هكذا كانت بسمه وأمها جناحين لحمامة واحدة تعانق الحرية وتصرخ للسلام غير آبهة بحياة الغير. وإنما تحلق لتحقيق أمانيتها وأحلامها وهي تخبئ بداخلها أسراراً لا تبوح بها إلا لأغصان الشجر ونسائم المطر وهو يتأهب للهبوط فوق حقول الفلاحين.

- كل هذا جرى خلال الأيام السابقة يا أمي كنت طريحة الفراش، أنهض بمساعدة زميلاتي يقدمنه لي الأكل وأنا في الفراش كنت هزيلةً

ضعيفةً، كل هذا من شدة التعب وسهر الليالي، ولم أعلم بقدم عمي عثمان. لم يخبرني أحد.

- وهو كذلك لم يعلمني بمرضك، أظن أن الأمر متفق عليه حتى لا أقلق عليك وأنت كذلك. كما أعتقد أنه اتفق مع المسؤولة بأن لا تخبرك بقدمه خاصةً وأنت بدأت تستردين عافيتك.

- صحيح يا أمي وأنا أيضًا أظن ذلك. المهم أن بعد كل ما رأيته من ألم ومرض رجعت اليوم لأعانق وجهك وأنام في حضنك، لأنه عالمي وملجئي من غربة الأيام. ومأمني من ظلمة الوحدة والاشتياق وطول الانتظار.

لا تدركين مدى عذابي وألمي خلال الفترة التي مضت وقد زاد من لهفتي رغبة ملحة في رؤيتك مخافة الموت وفراقك الأبدي؛ حينها كنت سأعتبر نفسي خائنةً لك من دون قصد.

جواب نعيمة كان دموعًا وكأنها واد جرفت معه أكوامًا من الهموم وفي المقابل يصب في بحيرة صافية تحفها ورود ورياحين. وهي تسمع كلمات ابنتها مشتاقةً لها؛ تحن لها وتحلم بملاقاتها لأنها نور عينيها، ابنة تعبت وتحدثت العالم لتسمع اليوم هذه الكلمات وقد زرعت فيها الحب والاهتمام، فجعلت منها ملكةً فوق البشر بعد أن عانت التهميش والوحدة وأنست الشقاء والعناء.

قضت ليلةً هانئةً وهي تنام ببيتها البسيط وكأنه قصر هي أميرته. فقط لأنها تشم رائحة والدتها وكأنها المسك عطر جدران المنزل هاربًا لحقول القرية.

أما نعيمة فقضت ليلتها مستيقظةً، أنست النار وسامرت النجوم وقلبت الطرف فيها. جلست تعاتب الأيام وما تجرعت من آلام وهموم قبلت بها حتى لا تتذوق مرارتها بسمه. لكن لم تستطع وقف زحف الآلام إليها. أدركت من كلام صغيرتها ودون قصد من هذه الأخيرة أن سبب مرضها كان قلة الأكل وعدم القدرة على شراء غذاء إضافي يقويها على المذاكرة والحفظ وسهر الليالي حتى لا تخيب أملها، فكيف اليوم وابنتها رجاؤها ومن عاندت الأيام نهارًا على عتبات الجهاد والعمل والكد.

وليلاً رافقت الكوابيس وخاصمت الأحلام لتبقى مستيقظةً تسهر لتنام بسمه وتؤجل فرحتها إلى حين أن تكبر تلك البنت وتصبح شابةً تتباهى بها في ربوع القرية والعالم كله، ولأنها كل عالمها.

لن تسمح بأن يمس ابنتها ضرر ولا أذى أو أن تكون أقل مستوى من أترابها. لهذا قررت أن تبيع آخر وأعلى شيء بقي لها: أفراط والدتها لتكمل وحيدتها دراستها وتصل إلى ما كانت تصبو إليه.

لن تدع عائقًا يقف بوجهها ولو كانت تلك الأفراط أغلى ما تملكه، فقد تمنّت أن تهديها لبسمه يوم عرسها لكن الظروف سبقت الفرحة،

فانتصر الاحتياج وقتل ما تمنته نعيمة لتتغلب الدنيا عليها وتنتصر مرةً أخرى، عل الانتصار سيكون حليفها. يوم تصنعه بسمه وتهديه لها فتتغلب هي على الوجع وتمحو الألم.

كان فطوراً تشتهيه العين فتصبح البطن راجيةً التهامه. مائدة حُمِلت بأشهى فطور من زبدة وحليب وفطائر أمام النار التي تحاكي بلونها دفء المنزل وتعكس برودة الجو وقسوته. استيقظت بسمه على ما لذ وطاب مستغربةً لكنها في نفس الوقت تعي جيداً سبب كل هذا وأمها التي تخبئ في خزائنها كل ما تجنيه حارمةً نفسها من كل الملذات إلى حين زيارة بسمه، تحاول تعويضها وتغذيها وتريدها أن لا تتوقف عن الأكل وفي كل وقت تجلب لها شيئاً وكأنها بتفكيرها هذا تحاول تعويضها ما فات وتهيئها لما هو آت تتخيل بقرةً لتجتز ما أكلت من قبل، حنان لا مثيل له. لكن الغريب أن نعيمة غائبة عن المنزل والحقل لا أثر لها وهذا ما لم تعهده بسمه، حاولت البحث عنها في كل زاوية لكن دون فائدة. وبعدها استسلمت للأمر وأخذت في تنظيف المنزل لتأخذ البقرة للحقل ترعى من خضرته وفي داخلها خوف وحيرة على والدتها ترجمته بسكون وهدوء.

مرت الساعات ونعيمة لم تحضر والصبح ترك مكانه للظهيرة والشمس تتربع في السماء أحياناً ترسل خصلاتها الدافئة والمرافقة لنسيم برد الشتاء القارص، وأحياناً تحتجب وراء الغيوم مهزومةً خجولةً. حينها كانت بسمه تسبح بين كراريسها تحاول تنظيمها من جهة، وترتب أفكارها وأصابعها تلامس أوراقها في تقليب صفحاتها، لكن عقلها يحوم في جهة أخرى وهي متوترة متعصبة تنتظر أمها ولا تعرف كيفية العثور عليها.

لم يعد للصبر مكان وقد طال غياب نعيمة فانتفضت بسمه راكضةً نحو الباب متجهةً لجارتهم عقيلة تسألها عن غياب أمها الغير مبرر، وما إن وصلت إلى فناء المنزل فُوجئت بوجود نعيمة واقفةً في وسطه مرتديةً عباءتها البسيطة.

- ما بالك؟ لقد أزعجتني أين كنت طوال هذا اليوم؟

- لم أشأ أن أوقظك. كان لا بد أن أخرج لقضاء بعض حوائجي، وأنت يا عزيزتي كيف حالك اليوم؟

كانت تتحدث وهي منهمكة في نزع ثيابها، وأدخلت قفّةً ثقيلةً كانت تحملها إلى مطبخها البسيط وقد لُوّن سقفه بدخان النار وأرضه مفروشة برمادها.

لم تفهم بسمه ما يحدث، كما أن تصرفات والدتها وخروجها باكراً جعل الأمر مريباً وأخذ الشك والسؤال يلعبان بفكرها ويحركان الفضول داخلها. وبعد دقائق سمعت أمها تناديهما لتتناول الغذاء.

استغربت بسمه كل ما تراه وما حملت به تلك المائدة التي كانت دائماً متواضعةً بأكلها. لكنها اليوم لُوت بأشهى أنواع المأكولات من لحم وفواكه وهي تحاكي لهيب النار الصاعدة بشرارتها للسقف، وكأنها في قصر أهله من البشوات والأعيان وهم يصنعون «البرستيج» في أكلهم أما المدفئة.

— ما كل هذا، ومن أين لك بالنقود يا أمي؟!

وراحت تفتح عينيها وتغرها حائرةً غير مستوعبة.

— رزق من عند الله. كلي يا حبيبي وقوي عظمك حتى تعويضي قليلاً ما خسرت وتعودي للدراسة مرتاحةً قويةً.

— أفهم أنه رزق ونعمة من الله. لكن مصدره من أين؟

— من الغلة التي بعتها وتركت دراهمها حتى تعودين. كفي عن الأسئلة وتناولي طعامك قبل أن يبرد.

وأخذتها نعيمة بالكلام والمزاح حتى تغيب عنها الحقيقة، لأن بسمه ذكية بما فيه الكفاية حتى لا تشك بأن كل هذا الطعام مما تجنيه

والدتها من الأرض. خاصةً وأنها تقسم تلك النقود على أشهر العام لتوفر لها حق النقل والكراريس والكتب،. وبقي السؤال يحوم ويجول في عقلها. ووقفت عاجزةً عن الإجابة واكتفت بتناول الطعام في صمت وسكون على غير عاداتها.

لم تسمح نعيمة بأن تساعد بسمه في حرث الأرض أو في أعمال المنزل. كانت حريصةً على الاعتناء بها وكأنها رضيعة أو امرأة مسنة. كما أنها منعتها من المذاكرة والمبالغة في الدراسة حتى تعود معافاةً سليمةً.

في إحدى الليالي وبعد أن مضى أسبوع على عودة بسمه وبقي لها أسبوع آخر، وبينما هي ساهرة مع أمها تتصفح بعض أوراقها وتعيد كتابة دروسها، ونعيمة تحيك بين أناملها كنزة الصوف وتسرع في الانتهاء منها لترتيديها بسمه عند الدخول المدرسي، والنار ثالثهما تحاكي صمتهما بدفئها الملامس لجدران المنزل، ولونها الذهبي يعكس بريقاً جميلاً في أعين الحاضرين ومنهم العجل وهو يخور مرةً لغياب أمه الهائمة في قمة الجبل وتارةً يجتر ما خبأته بطنه.

بعدها نهضت نعيمة متجهةً لغرفتها مخلفةً بسمه غارقةً بين أوراقها غير منتبهة لاختفائها، ولم تطل غيابها وعادت بعدها إلى مكانها. ثم نظرت لابتها بطريقة غريبة مليئة بالحنان والشوق وكأنها بدأت في

عد ما تبقى من أيام لبسمة برفقتها، وستعود مرةً أخرى لروتين الدراسة ويبقى المنزل فارغاً يصرخ وحشته بدونها ليصل صدها للحقول لتعيد أنينها وقد أزهرت شجيراتهما من دون بسمة.

- تدرकिन يا عزيزتي أنه بقي أسبوع واحد وتلتحقين بمقاعد الدراسة. وعلي أن أكمل هذه الكنزة بأسرع وقت. كما أن شتاء هذا العام جاء قاسياً جداً، وأرى أن هذا المعطف قد اهترأ وهو يلازمك لسنوات كما أن أكمامه قصرت وتكاد تصل لمرففك. وأنت أمام زملائك.

- لا تهتمي يا أمي ولا تقلقي. عندما أنفوق في البكالوريا أهديني معطفاً حينها سأستحق ذلك. أما الآن لا يهمني ما يقوله زملائي ولا العالم بأسره. المهم عندي أن تكوني مرتاحةً ولا تكلفي نفسك، تكفيني تلك الصوف وخيوطها تتشابك بين أناملك الدافئة لتلد كنزةً رائعةً أتباهى بها. فقط لأنك أبدعت في صنعها يا قرة عيني.

حبهما كان استثنائياً؛ عكست أدواره وأصبحت نعيمة هي قرة عين بسمة. وكأن البنت ولدت أمها، وجعلت من حياتها واجباً ورسالةً لتسعدّها وتهتم بها، فما كان من نعيمة سوى دموع غير ظاهرة روت ذلك القلب الملطخ برماد الحزن. وجاءت من تصفيه وتنقيه من عتمة الألوان في عينيها. زرعت وتعذبت واليوم تحصد نتيجة تعبها.

يُولَدُ يوم آخر من رحم الشمس ويُدَلَّل تحت أشعتها الخجولة وهي تعاند نسيماً بارداً في بداية فصل الشتاء، وبالضبط في أواخر شهر ديسمبر. وبسمة لا تزال في فراشها تحاول النهوض، لكن دفء الفراش يجذبها، وبرودة الطقس تزيد من كسلها.

عجزت عن الخروج إلى فناء المنزل لغسل وجهها والاستعداد ليوم آخر. لكنها كلما تذكرت ملامح والدتها الذابلة والمتعبة ترمي كسلها وتراجعها وتسرع للحاق بها لتخفف عنها العبء قليلاً.

- أمي. أمي، أين أنت؟!

وبدأت في البحث عنها لكن لا أثر لها. لا في الحقل ولا في المنزل. وهذه المرة الثانية التي تختفي فيها نعيمة دون إخبار بسمة. وهذا ليس من عاداتها.

بقيت بسمة مرةً أخرى تدور وتحوم حول نفسها لكن هذه المرة زاد قلقها ولم تعد تصبر وهي التي لم تجد جواباً عن اختفاء أمها المرة السابقة، ولم تقتنع بمصدر ما جلبته من أغراض، لكن هذه المرة قررت أن تفهم من والدتها سر هذا الغياب ومكان مضيقها دون إخبارها.

مرت الدقائق وتعاقبت الساعات، ونعيمة لم تطل بعد. انتصف اليوم معلناً تربع الشمس في السماء والمؤذن يغرد بصوته العذب آذان العصر، ولا خبر عن نعيمة، وقتها لم تستطع بسمة الانتظار أكثر.

— بسمّة، بسمّة.

تصيح عقيلة بصوتها المرتجف وهي تلهث تنظر لبسمّة وعيناها مفتوحتان ووجهها حائر مندهش لكنه في نفس الوقت حزين مكتئب لا ينبئ عن خبر سار.

— ما الذي جرى. خالتي عقيلة؟ ما بالك؟ ولماذا أنت في هذه الحالة؟!

عقيلة لم تنطق ببنت شفة وبقيت تنظر لبسمّة صامتةً، والأخرى تنتظر منها الرد أو إكمال ما جاءت من أجله. لكنها سرعان ما استدارت نحو الباب تنظر وتنتظر وكأن الجواب قادم دون تفسير.

لم يكن المنظر مفرحاً. وبسمّة توجه نظرها حيث توجهه عقيلة. وعثمان يدخل وبرفقته رجل من القرية يحملان نعيمة على كرسي خشبي ورجلها مكسورة. وخدوش تملأ وجهها بشكل عشوائي. ذلك الوجه الشاحب المصفر وهي في حالة تشبه المغمى عليها وثيابها ملطخة بالطين من أثر سقوط أو ما شابه ذلك، دخل الرجلان مسرعين وقبلهما عقيلة تهزول وهي مفزوعة خائفة.

أما بسمّة فهي في عالم غير عالمهم تنظر حائرة ولم تع بعد ما رآته وسمعته. أمها المحملة بين الأيادي ماذا تفعل بينهم؟! وهي في حالة يُرثى لها. تنظر غارقة في منظر لم تستوعبه حتى الساعة.

دخلت مثقلة الخطى تحاول أن تفيق من كابوس مزعج، تتمنى أن ما رآته مجرد أوهام سرعان ما تتلاشى مع أول استيقاظ يفصلها عن نوم عميق. توجهت للغرفة، ووقفت مرةً أخرى على ذلك المنظر وعقيلة تغطي والدتها ووجهها مليء بالكدمات والجروح.

بقيت تنظر بعد أن غادر الرجل وبقي برفقتها عثمان وزوجته. بعدها وعندما تفتن لها ولحالتها جرها إلى الفناء وهي تائهة لا تحرك جفניה وكأنها في غيبوبة أخذتها لبئر عميق واستحال عليها الصعود أو الخروج منه.

- بسمه تعالي معي يا عزيزتي، دعينا نخرج لتستريح والدتك. هيا لنخرج وأحدثك بما جرى.

كانت تنصت غير مصدقة لما جرى وعثمان يروي لها ما حصل لوالدتها ومن حسن حظها أنه كان ذاهباً في نفس الحافلة معها، حينها أخبرته نعيمة سبب خروجها قبل أن تحصل الكارثة.

- قررت هذا الصباح الاتجاه لمدينة «جيجل» لأقوم باستخراج بعض الأوراق المطلوبة مني من أجل ملف التقاعد. وحين كنت واقفاً فوق رصيف الطريق الرئيسية لمحت أمك قادمةً نحوي. ألقى علي التحية.

سألته مستغرباً خروجها المبكر، حينها أخبرتني بعد أن ركبنا الحافلة أنها متجهة للسوق المحاذي للقرية ويدعى سوق «بلهادف»

لأنها قررت أن تباع أقراطها والخاتم من أجل مصاريف دراستك وحتى لا تبقيين أمام زميلاتك بلا مأكّل أو ملبس، خاصّةً ما جرى لك في الآونة الأخيرة.

وفعلًا قامت بذلك البارحة واليوم عاودت الرجوع حتى تتباع لك معطفًا قبل أن تعودى للدراسة لكنها لم تشأ إخبارك وتركتهـا مفاجأةً، فصاحب المحل وعدها بأن يجلب لها المعطف اليوم على مقاسك.

غضبت منها على الشيء الذي أقدمت عليه، وكلمتها بنبرة حادة عن سبب بيعها لما تبقى لها من رائحة والدتها. فقط لو كنت ميسورًا لأقترضتها المال على أن ترجعه لي وقت ما استطاعت. لكنك تعرفين عزة نفسها.

عندما وصلنا «بلهادف» ودعنتي وهمت بالنزول وعندما وضعت قدمها على السلم الأخير للحافلة، تحرك السائق دون أن ينتبه لها حينها انزلقت قدمها وتدحرجت إلى الأرض وكانت وقعتها خطيرةً وأخذ الناس في الصباح ولولا ذلك لدُعِست بعجلتي الحافلة.

عندها نزلت مهرولًا ووجدتها فاقدةً للوعي وبوجهها جروح وكدمات خطيرة. نقلناها على الفور للمستشفى وأنت تعرفين طول المسافة للمدينة. وما إن وصلنا أسعفها الأطباء وأخبرونا بعدها أن قدمها كُسرت وأن هناك ارتجاجًا في رأسها، لكنه ليس خطيرًا.

رجلها كُسِرَت في أماكن عديدة، وسيطول مكوثها في الفراش للراحة كما أنها ستصبح كسيحةً بسبب عصب قُطِعَ بقدمها وسترافق العصا لمدة طويلة، وقد تصبح عرجاء تترنح في مشيتها ما بقي لها من العمر.

وعندما سألتهم عن إمكانية إجراء عملية لها أخبروني أنها ستكون مكلفةً وإجرائها يستلزم نقلها لخارج الوطن.

أعرف يا ابنتي أنني صدمتك بكل هذه الأخبار في لحظة، لكن يجب أن تعلمي بوضعية أمك حتى تكوني مهيأةً لما هو قادم.

كيف نصف تلك الصورة أو ذاك الوجه الكئيب ولا نستطيع تشبيه تلك الشابة إلا بحطام سفينة وقد اكتسحت أمواج البحر ما تبقى من أشلائها المبعثرة. أما أمها اليوم فهي كالشجرة التي كانت مزهرةً بأوراقها دائماً في عيني ابنتها ومن أجلها، لكن جاءت ريح عاتية فذهبت بأوراقها وأزالتها، وبقيت عاريةً في قرية خانت ما تبقى لها من ذكريات تنتظر قدومها بفارغ الصبر.

ابنتها جعلت منها أسطورةً أمام أهلها، قرية خانت وفاءها لأرضها. وانضمت للحاسدين لنجاحها في تربية وحيدتها، وأثقلت ما بقي لها من هموم وأرادت تحطيم كل الآمال المعلقة كريشة ترتجف في شجرة ضعيفة كانت هي أملها.

لم يكن هناك داع للبكاء وقد كانت ما تحسه بسمه أكبر من كل الدموع، وجرح أضحى بلا ألم لكثرة ما تراكم فوق قلب نرف الكثر؁ جلست تنظر لأمرها المحطمة من الخارج وقد صاحبة تشتتها الطويل من الداخل؁ روح عانت وتعبت لتكمل ما بقي من عمرها مستبدلة اسمها باسم المرأة الكسيحة.

ومهما تكلمت وواست عقيلة ومهما شجعت وساندت تلك اليتيمة فلن تبدل من منظر المرأة مكسورة الأعضاء وابنتها مكسورة الخاطر محطمة؛ تنظر وتنتظر ما سيعمل لها الزمن القادم مع زخات المطر الكثيرة على حقل مرمي في ركن من أركان القرية الخائنة لجدران بيت تلك المرأتين المششتين.

كانت ليلة أكثر من الظلام بلونها؁ لون مختلف زاد من عتمة لون الحزن والوجع. ونعيمة تتأوه من الألم وبسمة يتقطع فؤادها من الحسرة ترد عليها بأنين يخرج من أخمص قدميها ليصل إلى عينيـ تترجمان سيلاً من الدموع امتنع عن التوقف؁ وعقيلة بجانبها تحاول تضديد جروح نعيمة بماء دافئ ومن جهة أخرى تداوي جراح بسمة بكلام تمت أن يكون البلسم لكن دون فائدة فالخدش نُقش ولم يعد هناك مجال لإزالته.

لم يكن صباحًا كغيره بإشراقته الجميلة في فصل الشتاء ترسل شمسهِ خصلاتها الدافئة على قطرات الندى المتربعة فوق الأوراق والزهور بين الحقول. لكن بسمه لم ترى كل هذا الجمال وهي قابضة أمام والدتها تلومها في صمت على تضحياتها المتتالية.

ويصل بها الحد للتخلي عن أغلى شيء بقي لها من رائحة والدتها. تنازلت عنه لتفرح بسمه وبالمقابل تدفن هي نزيه جرحها تحت التراب، لكن الأرض ارتوت به وأضحى جليًا. ولتدفع الثمن وتصبح كسيحةً ترافق العصا، وإذا ما حالفها الحظ وتخلت عنها تبقى طوال حياتها تسير مترنحةً بقدمها المعاقة بسبب تضحيات لتبقى ابنتها سعيدةً. بقيت تنظر لأمها والأخرى ترد عليها بنظرات قلقة وتعبر عن ذل وألم وهي تشفق لحال ابنتها وليس على حالها. تتبادلان نظرات بعيون ارتوت من دموع حارة أبت أن تفارق حياتهما.

- لماذا يا أمي؟ ومن أقنعتك بفكرة بيع ما تبقى لك من رائحة جدتي؟ لا يهمني المعطف وأنت من يدفئ بردي ويزيل قسوته. ماذا أفعل بالأكل؟ فابتسامتك وأنت وسط الحقل تشبعني وكأنني أكلت كل ما لذ وطاب. تخيلي لو أن مكروهاً أصابك، ماذا سأفعل؟ ولمن ألجأ وأنا أعيش في هذه الحياة من أجلك ولأجلك؟

- لم أندم على ما جرى لي ولن أندم حتى ولو بعث نفسي من أجل ابنتي. وما تركته لي والدتي فمن أجلك حبيبي. والحادث شيء مُقدّر لا يمكن الهروب منه عزيزتي.

وكانت تتأني وتلكأ في الكلام بسبب سقوطها على رأسها، فأصبح كلامها ثقیلاً يصعب فهمه.

تبادلان الكلمات وعقيلة تنظر إليهما بحسرة. أما نعيمة فقد لظمت الفراش والكدمات تتفرق في كامل جسمها، تئن وهي تخرج العبارات بصعوبة شديدة، ثم أنهت حديثها قائلة:

- أدرك جيداً ما يجول بخاطرك، وأعرف أنك لن تدعيني طريجة الفراش لوحدي. فقد قررت وحزمت الأمر، لكن صديقي بسمه؛ إذا فكرت بترك الدراسة من أجلي وقررت فعلاً عدم العودة سيكون انتحاراً بالنسبة لي.

حتى ولو لم تتكلمي يكفي أنك قطعة من روحي ورحمي من طوقك. لهذا فلا تخافي سأكون بخير، وما دامت عقيلة بجانبني فلن أحتاج لشيء، لا تقتلي أحلامي التي كبرت أمامي وأنا أرهاها لسنوات لتأتي اليوم وتقرري دفنها.

يكفيني خيانة الأيام وجرح الأعوام. أنت أُملي ونور حافظت عليه لينير دربي فلا تطفئيه في لحظة، وتكوني سبب ظلام خرجت منه

بوجودك، وستكونين سبباً لعودتي للعتمة عوض أن تكوني شمساً
لنهارى وقمرًا لليلي. فلن يحطمني لا المرض ولا الإعاقة أمام ألمي
ووجعي وحسرتي إذا ما تركت مستقبلك الذي ضحيت من أجله
بشبابي وأجلت فرحتي بنجاحك.

فلم يكن الجواب سوى حضن ممتلئ بدموع بسمه وهي تخبئ
رأسها في صدر أمها تحكي خيانة الأيام من أجل الظفر بسعادة كافحتا
للوصول إليها أمام خيانة قرية احتضنت دموعهما وكشرت اليوم عن
انتقام لم يكن في الحساب، فأرادت أن تكون نعيمة عاجزة مريضة تعاتب
الأيام وبسمة غريبة وحيدة، وقلبها البريء يحترق أكثر من الأول لأنها
تركت أمها مقعدة وحيدة لا تدري ما العمل وما ستخبئه لهما الأيام.

تعاقبت الأيام وحن موعد الرجوع للثانوية، لا أعرف كيف أصف
الفراق وقد كان في السابق مختلفاً. حين كانت نعيمة تجمع ما استطاعت
من لبن وزبدة نتاج ما قدمته بقرتها، وبعض الخضر مما أنبتت الأرض.
راحت تحمل تلك القفة البسيطة لترافق بسمه إلى آخر الطريق
والصباح لا يزال خجولاً، لم يخرج من جوف الليل بالرغم من أن
المؤذن غرد بصوته العذب آذان الفجر. لكن الشتاء يظلم خصلات

الفجر ويطيل الليل على حساب النهار. ونعيمة ترافق بسمه مودعةً
إياها بدموع أفلتت منها وانتصرت عليها.

لكن هذه المرة رحلت بسمه وحدها وتركت نظرات أمها ترافقها
والإصابة ألزمتها الفراش وجعلتها مقعدةً تودع ابنتها في صمت وهي
التي كانت تخاف عليها من نسيم الربيع، اليوم تتركها وحيدةً تسير دون
رفيق أو شقيق في ظلمات الصباح الباكر.

يعتصر قلبها وما بيدها حيلة سوى الدعاء بدموع حارة وقلب ينكمش
على وجع ابنة ظلمها القدر وهو يضاهي وجع الوطن المغتصب، وهذه
الأخيرة تحمل على كتفها همومًا أكبر عوض الزاد الذي كانت تجمععه
أمها وهي تخبئه في زوايا المنزل.



(٤)

تظهر بيسمتها المُغتصبة بين زميلاتِها والزمن يزحف ثقيلاً بها وهي لا تريد أن تستسلم لليأس وتتعلق بالمتاح من فسحة الأمل. تهمس كل لحظة باسم والدتها التي تركتها ترحف بين عتبات منزل موحش، وحقل لن تزوره كعادتها وهي تحمل فأسها على كتفها؛ وتشر تلك الابتسامة الخجولة، ترافق الأرض وهي ترويه من سواقيها التي حفرت من يديها اللتين تذوقتا لمسة التراب وأفنت شبابها وهي تقلب وجهها البني لتحوله لخضرة رائعة.

اليوم ومن أجل أن لا تنهمر دمعتهما ضحت نعيمة بأعلى شيء لتفقد في الأخير توازنها وتقضي بقية حياتها كسيحّة، كل هذا والنار تزيد من لهيبها لتحول روح بسمّة إلى رماد وهي تتذكر والدتها طريحة الفراش وعقيلة ترافقها...

وأكثر من هذا أنها تركت الدراهم التي قلبت حياتهما لعقيلة حتى تعين والدتها على شراء الدواء ووعدتها أن يكون سرّاً بينهما.

بعيداً عن المدرسة وراء تلك الجبال وداخل تلك البيوت البسيطة كانت نعيمة تحاكي الجدران ليلاً بدموع تونس وحدثها، بعد نهار

طويل قضته في استقبال الناس المتلهفين على رؤيتها المشفقين لحالها، والذين كانوا يترددون إليها وكل حامل بيده شيئاً ليعيّلها، تشع في أعينهم علامات الرأفة والحسرة على تلك السيدة، وترق مشاعرهم لوحدتها وهي من تكبدت مشاق الحياة من أجل وحيدتها.

- أستغرب عودة بسملة للدراسة وأنت في هذه الحالة. كيف تتركك ابنتك وحيدة مريضة، وحالتك تحتم عليها البقاء معك؟! (سؤال إحدى نساء القرية تدعى فهيمة).

- أنا من رفضت أن تبقى لجاني، واجبي يحتم علي دعم ابنتي حتى تصل إلى البئر وتشرب منه. كما أنني أهتم بنفسي جيداً، ولست بحاجة لمساعدة أحد، قضية يومين فقط وأعود بحول الله لسابق عهدي.

قالتها نعيمة وهي في أوج غضبها، وكأنها أحست أن الجميع كانوا يريدون لها هذه الحادثة حتى تتوقف ابنتها عن الدراسة بعد أن صنعت المعجزة بين أترابها من فتيات القرية، والوحيدة التي عانقت الدراسة وطارَت فوق جناحيها إلى أفق بعيد وجعلت من حلم والدتها حقيقةً.

بعد مرور شهرين.

خلال هذه الفترة لم تزر بسملة والدتها سوى مرتين، فأمرها ترفض زيارتها لها بسبب دراستها واقتراب موعد الامتحانات، خاصةً أنها أهم

سنة وتتجاوز عقبة استحال على جيلها من البنات الوصول لنصف أو ربع الطريق الذي سلكته.

فعند رجوعها للمنزل وفي يومين كانت تقوم بأعمال المنزل وتحاول تقليب الأرض وزرعها، مع أن عقيلة كانت تلازم أمها دائماً إلا أنها وجدت حرجاً كبيراً في ذلك محاولة تخفيف الأعباء عنها.

خلال تلك الفترة تدهورت صحة بسمه، وأضحت نحيلة جداً، كل هذا زاد من عذاب والدتها تلك المرأة التي تعودت على المشي بعضاً كالطفل الذي يفرح بمرحلة جديدة من عمره ويصبح قادراً على المشي دون الاستعانة بأي شخص.

لكن نعيمة حلفت وأخذت وعداً من بسمه بأن لا تعاود المجيء إلا بعد الانتهاء من امتحانات الفصل الثاني وقدم عطلة الربيع.

كل هذه الأحداث ملأت بياض كراس جعلت منه بسمه مرجعاً لذكريات لا بد أن تنقشها بأناملها بكلمات وعبارات هي الوحيدة من عاشها ولا مست جرحها الذي خدش قلبها وتربع بين ضلوع صدرها

كانت شافية -رفيقتها بالغرفة- منهمكة بإعادة ترتيب كراريسها وكتبها عند انتهاءهم من امتحانات الفصل الثاني، وعندما رفعت رأسها لأخذ أوراق من فوق الطاولة لاحظت بسمه منهمكة في ملأ بياض الكراس وهي تقلب الصفحة بعد الأخرى.

- أراك لا تكفين اليوم عن الكتابة يا عزيزتي ما الذي دهاك؟ وما هذا الكراس الذي أراه يلازمك كل ليلة؟

- لا أتخيل نفسي دون هذه المذكرة، حياة لا بد أن أكتب يومياتها وإلا أُعْتَبِرُ خائنةً، وأنا من حُرِّمَت ضحكة والدي، ومن تجاعيد وجهه؛ أنظر إليه والشيب يملأ شعره وبالمقابل يتمتع هو بشباب ابنته.

أكتب عن حرمان والدتي من أمها، وتجرعها اليتيم، وقبولها بالظلم والاستغلال، وبعدها تبنت اسم الأرملة في صمت ورضخت لأمر الله. كيف لا وهي التي تقبلت استغلال الناس ومقتهم لها، لكن جعلت مني التحدي وقررت مجابهة العالم وهي المرأة الأمية الجاهلة، ولم تعرف في حياتها سوى الأرض.

تعلمت زراعتها ودرست كيفية حصادها، فتفوقت في ذلك ومنها ربّتي وعلمتني.

وأجهت القرية بأكملها ولم تنظر يوماً للخلف من أجلي، أمي أسطورة بالنسبة لي. وسأجعل من مذكراتي فخراً لها، وأحول كلمات اليأس والضعف والعذاب هذه إلى عبارات النصر والنجاح والتفوق بإذن الله.

لم تتعود بسمه على قضاء عطلتها رفقة والدتها والعصا ثالثهما. وأمها التي اصطدمت بجدران العذاب والألم وقبلت بها فقط لأنها تجد متنفسها الوحيد خارجها، لتبحر في نسائم حقلها رغم الفقر والعوز.

أما اليوم؛ فهي محاطة بآلام الجسد كسيحةً ترافق وجع الروح وقد تناثرت أشلاؤه على سطح بحر غطته غيوم سوداء، وحجبت عنه الشمس، فحولت بريقه وهو يعكس لونها الذهبي للون شاحب بأمواجه الباردة. هكذا أضحت حياة نعيمة وهي غير قادرة على الحركة؛ تنظر بعينها اللتين هجرتهما الدموع وجفت مقلتاها.

كانت أيامًا أمر من العلقم، وأشد في قساوتها من الصخر، وبسمة تحاول شقها بين العمل في المنزل وزراعة الأرض صباحًا. وليلاً هي تؤنس كراريسه، وتحضر لامتحان طالما ضحت والدتها من أجل وصولها إليه، والنتيجة: إنها مقعدة.

أما اليوم فهي من تتحدى تلك الصعوبات لتتحصل في النهاية على ورقة ممضية من المسؤولين موقع فيها عبارة «منتصرة».

شهر مايو.

حان موعد. المصير، فترة تلخص فيها بسمة كل سنوات حياتها. رجعت بعد نهاية عام كامل من الجهد والاجتهاد تتحدى القهر والتعب والحسرة. وهي تجاهد في الدراسة والمذاكرة تحضر لامتحانات نهاية السنة، وأمها القابعة أمامها تعاند الألم والوجع في صمت فقط حتى لا تقلق ابنتها التي خاصمت أجفانها النوم.

تعمل صباحًا في المنزل وتقضي ما تبقى من اليوم في مرافقة
كراريسها وكتبها، تواجه بذلك كل العوائق لتحقيق حلمًا دافعت عنه
والدتها فاختارت الصمت في حضرة الكلام، وهي تتحدى العالم كله
لتكون بسمه بطله قصتها.

شهر جوان.

موعد امتحانات البكالوريا وبالضبط مدينة جيجل. مدينة البحر
والنسيم والأمواج المتلاطمة بصوتها تحكي تاريخ مدينة عريقة.

أين تركت بسمه والدتها خلفها لتقضي ثلاثة أيام يُحَسَم بعدها
مصيرها المجهول، إما الفوز أو الانتظار في طوابير طويلة ليقرع باب
الحظ في وجهها بالزواج أو المواصلة في الزرع والبذر وفي كلتا
الحالتين فالشقاء حاضر لا محالة بالزواج أو من دونه.

كانت ورقة الأسئلة أمام ناظري بسمه وقد خُيِّل لها صورة والدتها؛
تلك المرأة التي بقيت صوب عينيها وهي تكافح من أجل النجاح
وتحاول أن تصنع من أمها الاستثناء.

ثلاث أيام؛ مصير يحسم فيه أمرها أم هي من ستحسم النتيجة بإرادتها
وعدم الرجوع للوراء كالنهر الجاري مبدؤه التقدم وعدم التراجع.

مرت الأيام وعادت بسمه لمضجها وحضن والدتها، غير مبالية بنتائج الامتحان؛ تشوق فقط لرؤية والدتها التي تركتها تصارع الوجود في صمت، ودعت بعدها كل زميلاتها بعد أن تمنين التوفيق لبعضهن. كما أنها دعت شافية لزيارتها وزيارة قريتها التي طالما تمنت رؤيتها من كلام بسمه عنها، ورافقت كلمات الوداع دموعاً بلت عيونهما تقصان ذكريات ثلاث سنوات من الدراسة والضحك وحتى الحزن والدموع أحياناً، لكنها كانت من أجمل الأيام.

كانت أياماً عاديةً تزيد من أتعابها وتقسو على أهلها، فتزيد الغنى غنى، وتسلط الهم على الفقير، هكذا كانت أيام بسمه وهي تعيل والدتها التي تحاول استعادة عافيتها شيئاً فشيئاً محاولةً التخفيف عنها. ليصل دور ذلك اليوم حين سمعت بسمه بأن نتائج البكالوريا تم الإعلان عنها، لكنها لم تستطع الذهاب للمدينة وحتى أن وسائل الاتصال لم تكن متوفرةً لتستعلم، وبقيت تجول وسط الحقل غير مدركة لما يدور حولها، وأمها تتبعها بعينين ذابلتين متخوفتين ترتجفان، وهما تنظران للسماء تملأهما الدعوات لله ممزوجتين بالدموع. وبقيتا تحترقان لا تعرفان الحل. وما هي إلا لحظات حتى جاءت عقيلة فاستغربت لحالهما وشرودهما تارةً وقلقهما تارةً أخرى.

- ما بالك يا بسمة؟
- لقد أُعْلِنَ عن نتائج البكالوريا يا خالتي. سمعت ذلك من نورة.
- أخبرها شقيقها يوسف. كان في مدينة جيجل اليوم.
- ولما لم يذهب للثانوية ويخبرنا بالنتائج؟
- أنت تعرفين.
- آه يا عقيلة كجميعهم عارضوا تعليم ابنتي. كما أنه وجد الشباب مجتمعين حول ثانوية من ثانويات المدينة لذا أخبر شقيقته لتعلمنا فقط.
- حسناً؛ اصبري وغداً يذهب عمك عثمان ويخبرنا بالنتيجة، وأنا متأكدة أنك ستنجحين وبتفوق.
- تعمدت عقيلة أن تبعث زوجها وهي تعرف حالة نعيمة الصحية وكذلك حالتهم المادية.
- كانت ليلةً طويلةً على بسمة ووالدتها، تنتظران نتائج امتحانات ستغير تاريخهما وتعوض أيامهما المرة.

دائماً كان الحقل صديقها خاصةً في أيام العطل. واليوم هو يرافقها حتى ينسيها خوف النتائج، وأمها جالسة تقتلع الأعشاب الضارة، وهما تحاكيان الصمت وداخلهما بركان يود أن ينفجر، تحاولان النسيان أو تناسي النتيجة.

— بسمه. نعيمة. بسمه. أين أنتما؟

كان صوت عقيلة وهي تصرخ من بعيد، فتسارعت دقات قلبيهما.
بسمه تتناغم مع صوتها العالي.

— مبروك يا أختي. نجحت بسمه وبمعدل مشرف. تعبك لم يذهب سدى.
وأخذت تزغرد وتصرخ: «مبروك يا حبييتي» وهي تعانق نعيمة
وبعدها بسمه، واللتين وقفتا مسمرتين لا تعرفان ماذا تقولان أو تفعلان
سوى البكاء بدموع منهمرة محت بصفائهما وجع السنين وعذابه.

حلم طالما راودهما، وخبر نجاح بسمه أُعلن عنه في كل مكان بفضل
عثمان وعقيلة. ولم تكن هناك سيرة في القرية سوى تفوق بسمه ونجاحها،
وهي أول بنت تصنع معجزة بقرية «أولاد عسكر» والقرى المجاورة.

هنا أحست نعيمة بشمرة تعبها وعرفت معنى كلمة سعادة. عبارة لم
تتذوق طعمها سوى مرتين، يوم ولادة بسمه ويوم نجاحها وأدركت أن
سر سعادتها هذه الملاك التي مسحت كل أحزانها وآلامها.

بقيت تحضن ابنتها؛ تجهش ببكاء من نوع خاص لم تعرفه من قبل.
أما بسمه بدموعها شاكراً أمها رفعت يدها وانحنى لتقبلها أمام ناظري
كل نسوة القرية اللاتي اجتمعن على زغاريد عقيلة وهي تملأ جدران
المنزل الذي نسي هذه الألحان من يوم زفاف نعيمة ومراد.

كانت ليلةً من ألف ليلة وليلة وكأنه عرس زُفَّت فيه بسمه عروسًا
وسط النسوة وهن مجتمعات يهتئن نعيمة بنجاح ابتتها التي شرفتها
ورفعت رأسها بين الجميع.

لم تصدق بسمه أن شافية نالت أيضًا تقديرًا جيدًا مثلها لتلتحقا معًا
بالجامعة، كان لقائهما بثانوية «الكندي» هو اللقاء الأخير وهما تتذكران
أول مرة اجتمعتا في مدخل المدرسة. واليوم يعيد نفسه، لكن وهما
تغادران الثانوية واسمهما مكتوب في قائمة الناجحين.

— آه يا بسمه لم أتوقع أن توجيهنا سيكون للعاصمة. لا تدركين كم
فرحت بذلك، أخيرًا سأزور هذه المدينة، وأكون أحد طلاب جامعاتها
وأنت برفقتي، تعرفين سأدرس الطب حتى تطول إقامتنا بها.

— أما أنا فعكسك يا صديقتي، ظروفى صعبة. وحالة والدتي لا
تسمح لي بالابتعاد عنها كما أن التسجيلات ستطول ولا أعرف أحدًا
هناك، هذا إذا قررت متابعة دراستي، وأظن أن ذلك سيكون مستحيلًا.

— ما بالك يا بسمه؟! لا تتشاءمي، وصلت للبئر ولا تشربين منه؟!
لا تخافى. ارمي حملك على الله. وهذا هاتف محلنا إذا قررت الذهاب
للتسجيل، سأخذك معى عند خالتي فهي تعيش هناك وحيدة رفيقة ابتتها.

وسنمكث عندها حتى تظهر نتائج التسجيلات والتوجيه، فلا تترددي واعتبريني أختك.

رجعت بسمة أدراجها للقريبة رفقة جارها عثمان تجر أذيال الحزن، أم تطير فرحًا بالخبر، لا تعرف، فهي تتخبط بين السير للأمام وبين التوقف والتضحية.

لم تتقبل نعيمة ما قالته بسمة وهاجت وانقلب حالها وهي تسمع عبارات لم تقتنع بها، ابتها تريد التوقف عن الدراسة وعدم الالتحاق بالجامعة لأنها لا تستطيع تركها بهذه الحالة، فاستطردت قائلة:

- أشكرك وقد جازيتني، مددت في أنفاسي المنقطعة، تحدت وواجهت العالم من أجلك. أنا التي كنت أخاف من ظل يتبعني، ومن كلمة تجرحني دون أن أدافع عن نفسي.

غيرت من طبعي من نعيمة المسكينة، وتحولت لقطة متوحشة تخدش وجه كل من يتعرض لفلذة كبدها، جعلت منك استثناءً لتفاجئني اليوم بالتوقف عن إتمام دراستك.

قتلت فرحة نجاحك التي انتظرتها طوال عمري. ذلك العمر الذي عبثت به رياح الظلم، وكم كانت قاسيةً. كنت دائمًا على خط النار من أجلك ولأجلك، تحديتها فقط لتشرق شمس أمل أنت من يعيدها وترافق نسائم تحاكي ربيعًا طالما حلمت به.

حققته أنت لي اليوم بتفوقك، لكن للأسف تراجعتم لتعلمني فشلاً وخيبة أمل أخرى لا أستطيع تحملها. أما عني فلا تخافي لست وحدي؛ فعقيلة بجانبني وكل أهل القرية. فقط التحقي بالجامعة وعودي حاملاً بين يديك شهادةً عليا هذا يكفيني ويعيد الحياة لروحي الممزقة.

كل هذه العبارات كانت ترافقها دموع حارة وبسمة مطأطئة الرأس تنصت لصوت أمها المرتجف ووجهها المصفر رافضة قرار إبتها متحكمة في دموعها تاركة ألمها مدفوناً لا يخرج أبداً. لترجع عن قرارها وتكمل طريقها الذي طالما انتظرته وحلمت به والدتها.



العاصمة. صيف ١٩٨٢

أخيراً وبعد عناء طويل بسمة تخرج من قوقعتها وهي تنظر لبنايات العاصمة؛ تحاول التمتع بمدينة سمعت عنها من أفواه زميلاتهن فقط دون أن تراها، واليوم تزورها طالبة العلم في إحدى جامعاتها.

كانت برفقة شافية على متن سيارة والدها وأمها برفقتهم، كانوا من أطيب الناس حاولوا توفير الجو الذي ترتاح فيه بسمة ولا تحس بالإحراج أو الغربة بينهم.

الخطوة الأولى. وبسمة تعانق جامعة الجزائر العاصمة مع طلاب جدد للتسجيل والولوج إلى عالم جديد؛ يكتشفون من

خلاله مرحلة أو خطوةً للتحضير لعالم الشغل واختيار الاختصاص الذي يرغبون في متابعته.

— أظنك ستختارين الطب أو الصيدلة أو الهندسة كأقل تقدير،
صح بسمة؟

— لا يا عزيزتي لا هذا ولا ذاك. أولاً ظروفى لا تسمح لى بمتابعة
مثل هذه الاختصاصات. كما أننى أنوى دراسة الحقوق والوصول
لدرجة الماجستير وحتى الدكتوراه بحول الله وأعمل فى نفس الوقت
بالمحاماة.

— أظنك جُئنت. صح؟

— بالعكس يا حبيبتي، أخطط بتدبر، ولا تنسى أن والدتى وحيدة
وأنوى بإذن الله أن أكون أستاذة بالجامعة وأعمل بالمحاماة لأدفع عن
بعض المظلومين وأكسر القاعدة.

أيام جميلة لم تعيشها بسمة من قبل وهى برفقة شافية فى ضيافة خالتها.
تمنت لو كانت والدتها معها وعوضتها بعض العذاب الذى ذاقته، أمها
التي ظلت فى قلبها وعقلها دائماً؛ كانت تشتاق لها لكنها اضطرت للبقاء
حتى تكمل تسجيلاتها النهائية بعد أن تظهر نتائج اختياراتها.

كل ذلك كان بفضل شافية وعائلتها التي كانت كريمةً معها
لأبعد الحدود.

في تلك الفترة كانت نعيمة تحاول أن تستعيد عافيتها وتقنع نفسها أنها بخير. تحاول الاعتماد على نفسها حتى لا تحبط من معنويات بسمة. مسؤولية كبيرة بانتظارها مصاريف الجامعة كما أن بسمة ستخالط طبقات مختلفة، وستدخل عالمًا آخر وهي بين أنياب مدينة لا ترحم زوارها. تُقاس المعاملات فيها بمظاهرههم، لهذا طلبت من عقيلة وتوسلتها أن تساعدنا ببيع التين والعنب منتج بستانها المتواضع لتعيل ابنتها لإكمال دراستها.

- أدرك جيدًا يا عقيلة أنني أكثرتك عليك بطلباتي أنت وسي عثمان، لكن ليس لدي سواكما وبسمة ابتكم وسبب نجاحها بعد الله أنتم، لذا أرجو أن تطلبي من سي عثمان أن يساعدني ببيع بعض العنب والتين محصول بستاننا لأتمكن من دفع مصاريف بسمة في الجامعة. الله يستركم ويحفظ أولادكم يارب.

- غالية والطلب رخيص يا نعيمة. نحن إخوة، وسيدهب عثمان لصديقه الذي يملك دكانًا كبيرًا لبيع الخضر والفواكه بمدينة «جيجل» يبيع فيه بالجملة، سيأخذ منا ومنك ومن بعض الجيران لبيعها. لا تقلقي يا عزيزتي. فقط إبدئي بجمع محصولك من الغد. وكل مرة يأخذ كمية معينة.

- لن أنسى لك أبدًا هذا المعروف وكل ما تفعلينه من أجل ابنتي. والله أدعو لك كل يوم في صلواتي.

كانت نعيمة رغم تعبها تحاول الضغط على نفسها وجسدها النحيل تقطف التين من جهة، وتتسلق السلم الخشبي لتقطف عناقيد العنب من الكرمة. محاولة توفير بعض المال لبسمة حتى تشتري بعض الثياب ويكون مظهرها لائقًا بين طلاب الجامعة.

واستمرت في ذلك لأيام تقطف التين صباحًا وتنتقل منتصف النهار تحت لفحات الشمس تقتلع تلك العناقيد وهي ترشها بعرقها المتصبب من جبينها الأصفر ووجهها المنهك بالتعب. منهكة في مشاغلها.

وبينما هي كذلك في أحد أيام الصيف الحارة تحت تلك الشمس، أحست بتعب شديد وثقل في لسانها وأصبحت ترى كل شيء من حولها أصفر. لم تع ما يدور حولها حتى وجدت نفسها قد سقطت من السلم إلى الأرض مغمى عليها.

كان عثمان وعقيلة يذهبان روحهً ومجيئًا في رواق المستوصف. بعدما وجدا نعيمة مرميةً في فناء المنزل لكن للأسف بعدما اكتشفت أمرها متأخرةً جدًا.

- والله يا سيدي ربما أصابها إرهاب شديد. وسنتنظر حتى تفيق ونفهم حالتها جيدًا.

- قالها الطبيب الذي عاينها بعدما خرج من الغرفة.
- أظن يا حكيم أن ضربة شمس قوية أصابتها لأنها كانت طيلة اليوم تحوم بين قطف التين وجني العنب من الصباح الباكر حتى غروب الشمس إضافةً إلى أعمال المنزل الأخرى. وهي لم تتعافى بعد من الحادث الذي تعرضت له.
- اليوم ستظل نائمةً بسبب المسكن الذي حُقِنَ لها، وغداً بحول الله أخبركم بحالتها. يمكنكم المغادرة الآن، فلا داعي لبقائكم.
- كان يومًا جميلًا بالرغم من حرارته المرتفعة. أما المستوصف فقد كان خالٍ وعقيلة برفقة زوجها يشقان الرواق متجهين لغرفة نعيمة جالين لها الفطور. وقبل أن يدخلها الغرفة صاحت عليهما الممرضة.
- سيدتي من فضلك، تقدمي إلى هنا لأتحدث معك.
- مرحبا. هل هناك خطب ما؟
- سألتها عقيلة وعلامات الحيرة والتوتر ترتسمان على وجهها.
- فقط أردت أن أسألك، هل تلك السيدة قريبتك؟
- هي جارتني لكنها بمثابة أخت لي وليس لديها أقارب، أرجوك أخبريني بحالتها هل هناك خطب ما؟
- رافقيني من فضلك لمكتب الطبيب المشرف على حالتها، هو سيخبركم بالتفاصيل.

كان المكتب صغيرًا متواضعًا والطبيب جالس خلفه يقلب بعض الأوراق، ويتمعن بنظراته الموضوعية فوق أنفه، فاجأته الممرضة بعد أن دقت الباب.

- دكتور هذان الشخصين هما من جلبا البارحة تلك السيدة الموجودة في الغرفة رقم ٠٧.

- شكرا حليلة، تفضلا بالجلوس.

- هل هناك خطب ما دكتور؟

- في الحقيقة لا أعرف ماذا أقول، لكن قبل كل شيء هل تعرفان هذه السيدة جيدًا؟ يعني حياتها الشخصية حالتها المادية، المهم كل تفاصيل حياتها.

- نعم دكتور هي بمثابة أخت لي. نحن جيران مدة ثمانية عشرة سنة، أعرف عنها كل صغيرة وكبيرة.

- وهل هي متزوجة؟

- أرملة، في الحقيقة هي تعمل بالأرض تفلحها وتزرعها لتكسب رزقها وتدرس ابنتها الوحيدة. تحصلت على شهادة البكالوريا وهي بالعاصمة للقيام بالتسجيلات.

- فهمت. والله لا أخفيك لكن حالة السيدة حرجة لقد تعرضت ل...

باختصار: هي فقدت القدرة على الكلام، يحدث ذلك بسبب ارتفاع ضغط الدم المفاجئ إضافةً إلى سقوطها من السلم بسبب وجودها تحت أشعة الشمس الحارة، فأدى ذلك إلى تلف بعض أجزاء الدماغ المسؤولة عن اللغة وهي الفص الصدغي - الجانبي - من الدماغ.

إضافةً إلى حالتها النفسية المتعبة حسبما أخبرتني وقد كانت مهيأةً لذلك. وعلاجها سيكون صعباً، وحالياً لا تستطيع النطق، ويمكن تدريجياً يعود لها لكن بالأدوية وعلاج رياضي... إلخ.

متأسف على حالتها، وأتمنى لها كل الشفاء. المهم أنني سأنقلها إلى مستشفى المدينة حتى يتم مراقبتها والاعتناء بها أحسن وهناك يقررون. - لم يعد للعبارات مكان وحتى للدموع وقد أخذ العمر من نعيمة ما أخذ، وتقبل جسدها كل الصدمات ليصبح الصمت فعلاً رفيقها. كانت ترافقها إختياراً أما اليوم فتقبل بصحبته غضباً عنها.

في السابق كانت ترى وتصمت، والشيء الوحيد الذي صرخت من أجله بسمه. من أجل مستقبلها ودراستها وكشرت عن أنيابها وصنعت الاستثناء من قاعدة الصمت.

أما اليوم فهي مجبرة لا مخيرة بعدما أنهكها التعب وأتمت رسالتها مع وحيدتها، آه من زمن كدس آلامه وأوجاعه بقلب تلك المسكينة حتى أنهكها وأجبرها على الاستسلام.

كل تلك الكلمات خرجت من فم عقيلة ترافقها حسرة وألم، تبكي جارتها وقد كانت الشاهدة على آلامها المريرة. والصبر رفيقها لكن حتى هذا مل ورحل تاركًا أوجاعها تتعفن في صدرها المكتئب.

ولجت الغرفة تحاول الرجوع للوراء. دخلت وهي تجر حزنها وخوفها. كيف ستجد جارتها وكيف تخفف عنها، ولم يعد هناك مكان للمواساة. لكنها تفاجأت بما رأيته.

نعمة جالسة فوق سريرها وهي مغطاة وتستند بظهرها إلى الوسادة ترتشف القهوة والممرضة تساعدها في ذلك وما إن رأت عقيلة حتى رفعت عينيها ويديها للسماء وبعدها قبلتهما.

حينها أدركت أن نعمة تعلم بحالتها وبأنها أصبحت خرساء. لم تتمالك عقيلة نفسها وركضت إليها تحضنها وهي تشهق بصوت عالٍ ونعمة تجيبها بدموع مسترسلة جارية مستسلمة فلم تعد قادرة على مواجهة القدر ومجاوبته، ورضت بما كتبه الله لها.

- في الحقيقة لم أر إنسانةً قويةً مثلها. صدقوني عندما دخل الدكتور كنت برفقته لمعاينتها وسألها عن اسمها. لم تستطع الإجابة، وبقيت تحاول وتحاول. حينها أدركت بأنها فقدت النطق.

وبدأ الطبيب بفحصها، لكنها أمسكت بيده وضغطت على عينيها ترافقهما ابتسامة رضا. فأجابها باندهاش واحترام كبيرين: الله يشفيك

ويجعله في ميزان حسناتك، لكن لا تخافي يا سيدتي يمكن علاجك، فقط اصبري واسألي الله، هو وحده من يشفيك.

فرفعت يديها لله تحاول النطق بصوت غير مفهوم. وأخبرها بأن حالتها متدهورة بعض الشيء فيدها اليسرى ثقيلة بسبب ضغط الدم الذي كاد يسبب لها شللاً، لكن الحمد لله نجت بأعجوبة.

سأفهمك كيف تتعاملين معها وتحاولين بحركات رياضية أن تحركي يدها حتى تعود لسابق عهدها، لكن الفترة ستطول قليلاً، إضافة إلى تناولها للأدوية بشكل منتظم.

(كانت الممرضة التي أشرفت على حالتها والتي بقيت تراقبها وتراقب ضغط دمها).

- ومتى تستطيع مغادرة المستشفى؟

- لا أدري الطبيب يقرر ذلك. لكن حالتها ليست مستقرة بعد، ويجب نقلها إلى مستشفى المدينة لمتابعتها كما أخبركم الطبيب، وهناك ربما ستمكث بعض الوقت. وسنقلها بسيارة الإسعاف التابعة للمستوصف.

- عدنا أدراجنا يا عثمان بدون نعيمة. تركناها خرساء وحيدة، ولن أسمع بعد اليوم صوتها الهادئ الدافئ وهي تغرد كالطير فوق أرضها بوجهها الخجول الحزين.

ماذا أقول لبسمة تلك التي تجرعت مرارة البعد عن أمها. فقط لتسمع كلمات الحنان والنصح. والخوف والحب وهي تملأ مقلتيها المبتلتين بدموع الشوق والعشق لوحيدتها.

- لا داعي يا عقيلة لإخبار بسمة. ستركها تكمل تسجيلاتها، حينها ستكون نعيمة قد غادرت المستشفى. بعدها لكل حادث حديث.

تعودنا على هذه الأيام ومفاجأتها الكثيرة وهي تعبت بأحلامنا البسيطة. نسير في الطريق محاولين تحقيقها، تخلق أماننا كل العوائق والحوادث التي تحبط من معنوياتنا، لكن لن نترك مكانًا لليأس ليسيطر على أرواحنا النقية وهي تحمل بداخلها أجمل الأمانى وأروع الآمال.

«حان موعد الرجوع إلى القرية». كلمة ترددها بسمة دائمًا عندما تغيب عن القرية وتشتاق لهوائها الممزوج بعشق والدتها التي تتقاسمه معها.

- أخيرا يا شافية سأعود إلى القرية، وأبوح بما في داخلي. أتعرفين؟ رجوعي إليها بمثابة العودة إلى الجنة!

- رجعت وأنت تحملين تخصصًا ستخوضينه بفرح حسبما أرى. وسيصبح اسمك من الآن فصاعدًا الحقوقية. والله أحتار لأمرك كان بإمكانك اختيار فرع آخر وأهم.

- قلت لك أن حلمي بعيد، وأريد ضرب عصفورين بحجر واحد.
وبحول الله سأعمل وأكمل دراستي هذا حلمي.

- أتمنى لك كل التوفيق بسمه. أنت تستحقين أكثر.

- شكرًا شافية؛ جميلك دين في عنقي، لن أوفيك حقك مهما عشت..
وقوفك إلى جانبي طيلة سنوات دراستنا ووفائك. كنت نعم الرفيقة.

- لم أفعل شيئاً، فهذا واجبي. سأحن لأيامنا سوياً خاصةً أنني لن أكون
معك في الجامعة نفسها. ومع هذا فأنا أتخيل فرحة الخالة نعيمة عندما
تحملين لها نبأ حصولك على الفرع الذي تودين الالتحاق به إكراماً لها
وحباً فيها، أحسبك على هذه الأم، كما أنني أهنئها على ابنة بارة مثلك.
- آه يا شافية كم اشتقت لها، أعد الدقائق فقط لأقبلها وأحضنها.

كان الغروب رائعاً وهو يلون غيوم السماء بالبرتقالي تحاكي
بدورها زرقة السماء التي تتأهب للمغادرة. تنظر للأرض وهي تحمل
أشجارها الملونة بمختلف أنواع الفواكه، والأبقار تحوم بين عشبها
ترافق الفلاحين في حقولهم يقطفون غلة أرضهم ليأكلوا منها في
السهرة بعد تناول العشاء.

أما بسمه فهي تحاكي بقلبها حنينها للأرض وعيناها تترجمان
اشتياقها للقرية، كانت شافية ووالداها برفقة بسمه التي دعتهم للمبيت

عندها. جزاءً على صنيعهم، كما أن الوقت قد تأخر ولا يستطيعون العودة أدراجهم بعدما رفضوا تركها تعود للقرية وحدها.

دخلت الفتاة تصيح بأعلى صوتها على والدتها كعادتها من فناء المنزل مرحبةً بضيوفها في آن واحد.

— أمي أين أنت؟ لقد عدت وجلبت معي ضيوفي، أمي.

ثم ولجت مباشرةً لغرفة الجلوس. حينها وجدت أمها جالسةً برفقتها عقيلةً وهما صامتتان.

دخل الجميع وركضت بسمه نحو أمها. سلمت عليها وعلى عقيلة. ثم نهضت عقيلة وسلمت على الجميع ودعتهم للجلوس، وبقيت بسمه تنظر لأمها وهي قابضة في مكانها لم تنهض لتسلم على شافية وعائلتها. بل تقدموا هم لإلقاء السلام، وبقي الجميع مندهشين لا يعرفون سبب صمتها وسكونها.

— ما بالك يا أمي ولماذا أراك شاحبةً. وما سبب تعجبهم وجهك؟ هذه شافية التي طالما كلمتك عنها وهذه أمها ولدها.

— اجلسي يا حبيبي وارتاحي. أمك منهكة قليلاً. هذا ما في الأمر، ويسعدنا وجودكم بقرتنا، شرفتمونا. أنا عقيلة جارة نعيمة بمثابة أخت لها. وأشكركم على كرمكم وعنايتكم ببسمه «الله يجازيكم كل خير».

- لكن لا أفهم ما بالها لا تتحدث معنا . ما الخطب خالتي عقيلة؟!
بقي الجميع مستغربين ينظرون بأفواه مغلقة وأعين حائرة ونعيمة مضطربة وعلامات الإعياء ظاهرة على وجهها الحزين الخجول.
- لا أفهم ما الذي حدث لك يا أمي . لما لا تجيبيني .
ولم تحرك ساكناً.
- ما الذي حصل أخبروني بحق الله .
وراحت تبكي وتحضن والدتها التي أجابتها بدموع صامته حاولت بعدها النطق، لكنها لم تستطع . وبقي الجميع متفاجئين لا يفهمون سر هذا الصمت المفاجئ.
- تعالي يا بسمه سأخبرك بكل شيء لا تخافي يا عزيزتي . كل ما في الأمر أن والدتك تعرضت لضربة شمس قوية وارتفاع طفيف في ضغط دمها فأحست بدوار وأغمي عليها هذا ما في الأمر .
- لكن . لا أفهم لما هي صامته أحسها عاجزة عن الكلام . خالتي عقيلة لا تقولي أن أمي أصبحت...؟
ولم تستطع إكمال العبارة.
- لم تستطع عقيلة الرد سوى بخفض رأسها للأرض ودموعها تسقط دون توقف . حينها استدارت بسمه لأمها وسقطت على ركبتيها تمسك بذراعيها وتصيح قائلةً:

- أمي؛ أين كلماتك وأنت تردددين اسمي وتفرحين بعودتي ولا تتركين لي حتى المجال للكلام؟ أمي؛ أين ذهب صوتك العذب وأنت تهمسين في أذني كلمة وحيدتي وحبيتي؟ ما الذي جرى لك في غيابي؟! بكت نعيمة لعبارات ابتنها محاولة النطق، دموعها تنهمر وجبينها يتصبب عرقاً محاولةً إجابتها وهي تتحدى صمتها الخانق لكن دون فائدة. نظرت بسمه لها باستغراب وألم. ثم فتحت عينها من الصدمة:

- لا. لا أصدق. أمي خرساء، إلا هذا لماذا يا الله لماذا، لا!!!.

صاحت صيحةً مدويةً كل أرجاء المنزل والجميع سيكون بحرقه لذلك المنظر، فصرختها عصفت بروحها الممزقة وبنسائم الصيف لتدمع معها كل زهرة سقطت منها قطرة ندى، وكل بذرة خرجت من جوف أرضها التي زُرعت بأنامل والدتها، فتحولت روحها لعاصفة شتاء غطتها غيوم سوداء لتحجب الشمس عنها وتبقى باردةً لا تتدفأ بنورها أبداً.



ليلة بحزنها تحكي ثقل السنين جرح من يشربون دمعهم بأنفسهم ولا ييوحون بالألم سوى لخالقهم.

تشاركت فيها أم شافية عقيلة في سهرة هادئة يتجاذبان أطراف الحديث ونعيمة تنظر بعينها فقط. أما والدها فقد رافق سي عثمان للمقهى بعد أن تناول الجميع العشاء.

أما بسمه فاختارت فناء المنزل ترافق شافية والقمر ثالثهما وقد اكتمل ليصبح بدرًا يضيء بنوره تلك الليلة وقلب بسمه قد أظلم من كثرة الهموم.

- آه؛ عاشت أُمِّي بين كل نكبة ونكبة ونكسة، واحترق فؤادها لأكون أنا الرماد وأُنْثَر مع أول عاصفة. هه؛ بل العفو مع أول نسيم خفيف، تعبت من مآسي والدتي وعذابها. قررت اليوم أمرًا لن أراجع عنه أبدًا بعدما رأيت أُمِّي بهذه الحالة.

- لا تقولي أنك...؟

- نعم لن أترك أُمِّي خرساء عرجاء وحيدةً تتلاعب بها الأيام وأنا بالعاصمة أُنْجَرع عذاب فراقي عنها. سأعمل بالأرض وأحاول أن أجد وظيفةً في البلدية أو أي شيء، ولو حتى منظفة للأرضية، المهم لن أترك أُمِّي مهما كلفني ذلك حتى وإن خسرت مستقبلي، هي مستقبلي، حاضري، وكل شيء، ولا يعنيني أبدًا المستقبل من دونها لأنه من أجلها ولأجلها.

بعد مرور شهر.

كانت نسائم الصيف تحوم فوق الحقول. كما تمر الحشرات على حافة القلب وهو يطارد ضباب الغيوم الحاجبة لخصلات الشمس، ونحن نعانده تلك الأيام علنا نصادف شمسنا يومًا ما.

لتعود بسمه لا احتضان روتينها اليومي لكن بصمتها الحزين أو الأكثر حزنًا وهي ترى أمها مريضةً عرجاء خرساء. أكملت عليها نكبات الأيام آلامًا جسديةً زيادةً على أوجاع روحها المذبوحة. والسبب هي كما كانت دائمًا تعتقد.

قررت بينها وبين نفسها ألا تعود لمدرجات الدراسة وترك أمها بين عتبات الزمن يدوس أكثر على أنفاسها المكبوتة وهي ترافق صمتها الحقيقي وحيدةً أسيرةً بين جدران الوجد والعزلة، لا أحد يرافقها أو يؤنسها.

وكانت نعيمة تعلم جيدًا قرار بسمه. هي التي كانت تفهمها جيدًا لكن هذه المرة إجابتها بالصمت: الصمت الفعلي، خاصةً في هذه الفترة وهي تعيش حالةً من الغضب والحزن ترى والدتها خرساء تكلمها فلا تجيب، ومع كل كلمة تذرف دمعاً غصبًا عنها هاربةً من روحها لتخرج عبر مقلتيها المجروحتين وتبلل بها وجنتيها الشاحبتين. بينما هي كذلك سمعت طرقًا خفيفًا على الباب تأهبت لتتفقد من القادم. إذ بها شافية يرافقها والدها ومدير الثانوية التي كانت تدرس بها، آخر شخص توقعته قدومه.

— كيف حالك يا ابنتي؟

— شكرًا سيدي.

ردت عليه بعد أن استضافتهم في غرفة الجلوس المتواضعة وجلبت لهم صينيةً عليها فناجين القهوة وصحنان واحد به التين والآخر العنب غلة الأرض التي بسببها خرسى والدتها وسكتت للأبد.

- سمعت من والد شافية أنك قررت مخاصمة الدراسة، والمكوث في المنزل كأى بنت عادية حلمها الوحيد أن ترافق زوجًا وتنجب أولادًا ترعى غنمًا وتزرع حقلاً. صُدمت وتخيلت أنه يخبرني عن تلميذة لا أعرفها.

- والله يا أستاذ والمعذرة منك، تلك البنت أو التلميذة التي تتكلم عنها في السابق حاربت من أجل التفوق لأن والدتها حاربت من أجل البقاء. ودرست بجهد جهيد لأن والدتها قدمت كل حياتها من أجلها.

كانت في كل مرة تودعني وأنا أذهب إلى المدرسة صباحًا وترافقها بقرة وحقل. حلمت بقطعة لحم وتنورة جديدة، لكن بقيت عاريةً ترتدي لباسًا أكل منه الدهر وشيع حتى زين بالرقع.

وقفت في طوابير طويلة من أجل الصدقة، لكن ظلمت لأنه لا يوجد رجل يحمي ظهرها. وقفت في وجه البشر القوي والضعيف والمذلة تكسو جسمها النحيل، وهي تتخبط في صراع بين الاستمرار والتنازل والخوف، فانتصرت بتفوقي.

ها هي تغير اسمها إلى عرجاء وخرساء، حُطِفَ صوتها وحُرِمت أنا من كلمة ابنتي ودعاء تردده يثلج صدري لأتمكن من مواصلة الدرب.

واليوم تقولون قررت. أجل قررت بعدما قررت أُمي أن تمنحني عمرها وجاء قراري متأخرًا، مستقبلي كان من أجلها ولم يعد لي مستقبل. مستحيل أن أتركها، وسأكون بجانبها هذا هو المستقبل بنظري.

— أدرك أن الأمر صعب بل مستحيل كما ذكرت، خاصة أنك ستتابعين دراستك بالجامعة. لكن يمكن أن يتحول المستحيل إلى ممكن، ولن أسمح بأن تودع طالبة ناجحة مثلك مقاعد الدراسة بهذه البساطة...

لذلك أرجو أن تسمعيني جيدًا وأنت أيضًا سيدة نعيمة.

بحكم أنني مدير، ولدي علاقات. تعرفت على صاحب مكتبة قريبة نوعًا ما من الجامعة بالعاصمة، وأصبحنا أصدقاء وتبادلنا الزيارات.

وبعد زمن تُوفِّي صديقي مخلفًا زوجته وحيدة وقد ورثت المكتبة عن أهلها، وبقيت تعمل بها حسب وصية والدها وزوجها ليتنفع منها الطلاب وتبقى منبعًا لأبحاثهم ودراساتهم وأن لا تغلق أبوابها أبدًا.

صرت أزورها رفقة زوجتي من حين لآخر، لكن في الآونة الأخيرة تدهورت حالة تلك السيدة وتعذر عليها العمل في مكتبها رغم أنها ليست بحاجة لما تجنيه من المكتبة.

ولما سمعت بما جرى لوالدتك خطرت بذهني فكرة وقررت ضرب عصفورين بحجر واحد. أحافظ على وصية صديقي، كما أنك

ستكملين دراستك ولن تفارقي والدتك، تدرकिन كيف ستأخذينها معك وعوض أن تقيمي بالجامعة. ستعيشين مع والدتك رفقة هذه السيدة.

- لم أفهم قصدك أستاذ؟!

- ستدرسين ووالدتك بجانبك وستحصلين على عمل لتعيلي نفسك. أعرف أن الأمر سيكون مرهقاً لكنك ستنجحين بإذن الله.

تكلمت مع السيدة صاحبة المكتبة، وقبلت بعد جهد كبير رغم أنها تثق بي، لكن عيشها لمدة طويلة بمفردها جعلها صعبة المراس، وذلك بسبب فقدان زوجها. لهذا سأطلب منك التحلي بالصبر والمثابرة حتى تنالي مبتغاك.

وأأمك بجانبك، ولن ندعك تحطمين مستقبلاً بنيتك أنت وأأمك حجباً فوق الآخر، وبحول الله ستدخلين قصر ك من أبوابه الواسعة.

كانت المفاجأة. أم أنها حكاية من ألف ليلة وليلة. خبر يُقدم على صينية من ذهب، وبسمة ستكون رفقة والدتها في العاصمة وهي تحتضن أبواب الجامعة. تدرس بين جدرانها لتكون إحدى طالباتها.

كانت دموع فرح ونعومة تقبل يدي المدير الذي رفض ذلك، وأجابها بأنها تستحق كل الخير بسبب هذه البذرة التي نبتت في أرضها نتيجة تربيتها ورعايتها، كما كانت تعني نباتاتها، فكانت بسمة وردة تتوسطهم.

أما عن السفر فسيتكفل والد شافية بكل شيء حتى يوصلهما لمنزل
هذه السيدة.

لتعود الأيام محملة بنسائم الأمل وهي تراقص أوراق الصيف قبل
سقوطها فوق أرض مبللة بندى الخريف وأشجارها عارية. ولأول مرة
لن تستقبل نعيمة فصل الخريف محملةً ببذور في جعبتها لتنتشرها مع
نسائه الباردة في بطن أرضها صديقتها الوفية.

رحلت نعيمة تودع عقيلة بدموع حارة وفي صمت، توصيها - بعد أن
تركت لها مفاتيح المنزل - بالاعتناء بالبقرة والأرض والمنزل بلغة الإشارات.
كانت دموع الحاضرين هي سيدة الموقف وحقيبة بسمه والدتها
تنتظر مرافقتهما لكن هذه المرة بفرح دون أن تخلف بسمه والدتها ورائها.
- وداعاً نعيمة. وقد تركت الصمت في حضرة الكلام. أغلقت
أبواب الماضي تجرعت منه مأس كثيرة ليكون مستقبلك أجمل رفقة
من أهديت لها عمرك الممزقة أوراقه في كتاب حزين، يخبئ لك نهايةً
أتمناها سعيدةً رائعةً روعة روحك الشفافة رفيقتي.

كما أتمنى أن أتغلب على لوعة فراقك وأنا التي اعتدت كل صباح
النظر لوجهك البشوش، وقد تقاسمنا خطوط حقلنا وقت البذر، وأكلنا
غلته فوق مائدة واحدة.

رددت عقيلة هذه العبارات وهي تودع نعيمة بصوتها المرتجف من شدة البكاء منعها من إتمام ما تحس به من ألم. وعثمان واقف يبكي كطفل صغير.

- لن أنساك خالتي ولن أنسى فضلك، أدرك أن والدتي كانت لتقول أكثر ودموعها وحدها تعبر، كنت نعم الجارة وبفضلك استمرت أُمي في كفاحها وأنا في دراستي. لن أنسى فضلك ما حييت أنت وعمي عثمان كان بمثابة والدي الذي لم أحض برؤيته. سأراسلكم ولن أنساكم.

حينها ضغطت نعيمة براحتي يديها تعانق كفي عقيلة معبرة عن امتنانها المختنق في روحها وهي تصرخ صرخة العاجز المتألم وأنهتا وداعهما بعناق رفض الفراق، لكن للقدر كلمة أخرى تعلو كل الرغبات والأمنيات. «وداعًا نعيمة، وأتمنى لك كل التوفيق برفقة أميرتك». قالتها عقيلة بدموع كالشلال على وجنتيها الموردين وهي تلمح السيارة تختفي لتهرب من قرية بسيطة لمدينة كبيرة وتدخل نعيمة وابتنها في طيات أوراق أخرى وفي حكاية لا تعرفان فيها مصيرهما وما يخبئه الزمن لهما.



(٥)

العاصمة. سبتمبر ١٩٨٢

بسمه. وقد أضحت امرأة رائعة؛ عادت بفكرها وعذابها لسنوات خلت، تركت جروحها منقوشة بين جدران الماضي الذي أبى أن يفارقها، تريد اختزال العبارات في مذكرتها التي تملأها بدموع بين الفينة والأخرى، تنهمر عندما تتذكر أصعب المواقف وخاصة الحزينة منها، لكن كلماتها تتمدد أكثر وأكثر وكأنها زورق بائس في محيط لا نهاية له. هكذا اغتصبت بقلمها مذكراتها، ولم تستطع تفويت لحظة مما عاشته، فاستمرت أناملها تخط ماضيها وهي جالسة خلف مكتبها في بيتها الفاخر. لم تنس يوماً أن قلبها كان يحلم بمدينة كالجنة لكن القدر جعله يقف على حافتها، ولن تنعم بكل ما تمتته، فبقي قلبها على حافة الجنة ينظر لبعض الأحلام التي تمتت تحقيقها.

العاصمة. تلك المدينة التي كانت على حافة السقوط بين مخالب استعمار رفض الرحيل واستقر بجذوره في وطن الخيرات لولا أبنائه

الأبطال، لتصبح اليوم مدينةً في درب الصعود تحاول بناء ما هدمته الحرب، وهي تسير قدمًا لتكون عروس البحر الأبيض المتوسط.

ركبت بسمه في الخلف رفقة أمها هذه التي لم تتجاوز قدمها يومًا حدود قريتها، امرأة كانت قرية «أولاد سكر» هي عالمها وكونها ولم تحلم يومًا بمغادرتها. واليوم ترافق أميرتها إلى العاصمة وهي حائرة منبهة في شوارعها وبنياتها.

تنتظر مصيرها أم هو من ينتظرها عند تلك السيدة، أو بين صفحات هذه المدينة الصاخبة وهي تستقبل الوافدين إليها؛ يحملون في حقائبهم أحلامهم ليعيدوا الثقة لأنفسهم. يحاولون بناء وطنهم أم بناء أنفسهم.

أما بسمه فترافق والدتها المعذبة من قرية بسيطة لمدينة تحكي بشوارعها المعقدة قصةً من أجمل القصص. لتشر رائحة القصبه بلباس المرأة العاصمة «الحايك»، وهي تجتاز الطريق محملةً بالقفة للتسوق وكل يغدو لهدفه.

كل هذا كان حلمًا لبسمه وحيرةً وتخوفًا لنعيمة التي لا تعرف سوى قريتها، أو إمبراطوريتها الصغيرة التي كرسست حياتها لبنائها.

كان الحي راقياً جميلاً بأحد شارع بلوزداد ليس بعيداً عن جامعة «بن عكنون». تفصل الأزقة الواسعة والطرق بين منازلهم. وصل الجميع لذلك البيت الجميل المطل على الطريق الرئيسي.

ترجلت بسمة من السيارة ممسكةً بوالدتها رفقة المدير وشافية ووالدها. تنظران حائرتين متخوفتين من قدر ينتظرهما أم هما من تترقبان مفاجآته.

لم تكن تلك السيدة رغم كبر سنّها امرأةً بسيطةً ساذجةً وإنما نظراتها الحادة والدقيقة ورزانتها في الكلام والتعبير والتريث تدل على ذكائها وخبرتها في الحياة. كما أن بيتها المزين والمرصع بالتماثيل والصور يعبر عن رقيها وانتمائها لطبقة راقية، قليلون من يحملون رايتها في تلك الفترة التي كانت تعيشها البلاد بعد الاستقلال.

- شكرًا سيدة «زليخة» على قبولك طلبي، أدرك جيدًا أن ثقتك من المستحيل أن تمنحها لأي شخص في أبسط الأمور، وأن تقبلي اقتراحي باستقبالك لهاته الشابة وأمها لشرف كبير. كما أنها لن تخذلك أبدًا، وأنا أضمن لك ما اتفقنا عليه.

(كان مدير المدرسة يحاور تلك السيدة والجميع جالسون في غرفة الاستقبال، بعد أن وافقت بصعوبة على قبول بسمة رفقة والدتها لتمكث عندها مقابل أن تساعدوا بالعمل في المكتبة).

- أنت تعرف جيدًا يا سيد «جابر» أنني وضعت ثقتي بك بسبب صداقتك الوثيقة بالمرحوم وعشرة سنوات جمعتهما. كما أنني كنت بحاجة ماسة

لمن يدير أمور المكتبة. وافقت على هذه الشابة وبرفقتها أمها فقط لأنك حدثتني عن أخلاقها واجتهادها، ذكائها وسرعة بديهتها وظروفها.

ولولا ثقتي العمياء باختياراتك لرفضت عرضك. (كان الجميع جالسين ينصتون لما تقوله) لذا أتمنى أنك أخبرتها بكل شروطتي ونظامي في العمل وصرامتي كي لا أجد أي حرج بعد ذلك.

- لا تخافي سيدة زليخة؛ بسمة من أروع الطالبات اللواتي كن بمدرستي. كما أنني أخبرتها بكل شيء وهي موافقة، جاءت هنا لطلب العلم لا لشيء آخر، لكن كما ترين حالة والدتها أرغمتها على اصطحابها إلى هنا لأنه ليس لديها قريب يعتني بها، وكانت ستترك دراستها من أجل أمها لولا عرضك الذي جاء في الوقت المناسب.

- هل ستستطيع التوفيق بين الدراسة والعمل في المكتبة؟

حينها أجابت بسمة مسرعةً مقاطعةً المدير وكانت تجايعد وجهها حادةً ترسم في عينيها علامات الجدية والصرامة.

- نعم سيدتي؛ أخبرني سيدي المدير بكل شيء، عن شروط العمل وأوقاته، وعن الأجرة. أنا موافقة على كل شروطك، فقط رجائي الوحيد غرفة تضميني أنا ووالدتي حتى أستطيع أن أكمل دراستي. وأن أحقق لها حلمها لأتمكن من العمل وأعوضها سنوات الحرمان والجمر التي عاشتهما في قريتها لتوصلني لما أنا عليه الآن دون كل بنات قريتي.

سأكون تحت تصرفك وطوعك وأنفذ كل ما تقولينه، وأشكرك على قبولك طلب السيد المدير، فقد وضعك الله سبباً لأكمل ما بدأته والدتي حتى لا أخيب ظنها وأحطم حلمًا طالما راودها.

— حسنًا؛ اتفقنا إذن. بعد أن تستريحوا وتحسبوا فنجان قهوة سأريك غرفتك التي حضرته لك. وغدًا أو بعد غد بحول الله نتكلم في تفاصيل عملك ودراستك.

بعد أن رحلت شافية رفيقة والدها والمدير لتلتحق هي الأخرى بجامعة وتحتجز غرفتها مع الطالبات. كانت بسمة ووالدتها وحيدتين مع زليخة تلك المرأة الطاعنة في السن وعلامات الخجل والحيرة ترتسم على وجهيهما؛ لا تعرفان سبيلهما في ذلك البيت سوى اتباع صاحبه التي قادتهما لغرفتهما.

رغم أنها كانت ريفيةً وكما يُطلق عليهم أنهم ساذجون بسطاء، إلا أنها ميزت أن تلك الغرفة التي ستصبح منزلها من الآن فصاعدًا عوض ذلك الذي تركته في القرية، هي غرفة تحمل أثاثًا بسيطًا: سريران من حديد عليهما أغطية بيضاء. وطاولة خشبية قديمة، أمامها كرسي للدراسة وتقابلها خزانة صغيرة.

— هذه غرفتك، أما بخصوص الأكل، فهناك غرفة في الأسفل حولتها لمطبخ صغير؛ وضعت فيها موقدًا وبعض الأواني حتى يتسنى

لك الطبخ، وستأكلان بها وتنامان هنا، سأترككما حتى تستريحا من عناء السفر، وإذا أردت أي شيء أخبريني.

وهمت بالخروج ثم توقفت فجأة وكأنها تذكرت أمراً، فاستدارت بعدها قائلة:

- عفواً. بخصوص الحمام يمكنكما الاستحمام متى شئتما. وكذلك الثلاثة إذا أردتما حفظ الأطعمة المتبقية أو شرب الماء البارد فهي بالمطبخ في الأعلى فالجو حار. سأصرف لك نصف أجرتك مسبقاً حتى تتمكني من اقتناء حاجياتك وحاجيات والدتك، أدرك أن السنة الدراسية ستكون صعبةً في بدايتها.

- لا سيدتي، لا داعي...

لكن زليخة قاطعتها:

- لن أعيد ما قلت، سأرى عملك واثقائك كما أنني صارمة في العمل لا داعي لتذكيرك خاصةً فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملة مع الناس، فعملنا يركز على هذا الأساس، المهم كل هذا ستتعلمينه مع الوقت.

خرجت بعد ذلك وتركت بسمه تنظر، وأمها جالسة صامتة حائرة لا تستطيع التعبير أو التخفيف عن ابنتها إلا بنظرات تعب حزينه أنهكها ظلم السنين وغدر الأيام وخيانة قرية أخذت منها شبابها وأهدتها

آهات وآلامًا اختنقت في جسمها النحيل وسجنها صدرها الحزين
ومنعها الزمن من الخروج، فبقيت تصرخ وتصرخ وقد دفنت أوجاعها
في روحها المنكسرة.

لتبدأ رحلة جديدة.

وبسمة رفقة والدتها على جناح يمامة تركتا وراءهما قريةً محطمة
الأماني، ورحلتا هما لصناعة أمانٍ جديدة، حيث جعلت بسمة من
نفسها استثناءً لتكمل ما بنته والدتها الأرملة اليتيمة المظلومة.

بسمة تلك العجينة المخلوطة من عذاب والدتها ومآسيها. تلك
الفتاة المصنوعة من بقايا أحلام مدمرة؛ بقيت جالسةً في عتبة منزلهما.
واليوم هما بين جدران غرفة تنتظران قدرهما القادم وتتأملان بذهول ما
آلتا إليه، وهما اللتان تعودتا على نسيم الحقول وتغريد الأنهار وبساطة
العيش وتفتح الأزهار.

أما اليوم فهما هائمتان بمدينة صاخبة، مركز رجال الأعمال
والسياسيين الذين يحاولون بناء بلد تجرع من كأس الاستعمار حتى
الشمالة. فهل أصابتا باختيار هذا المصير؟

قامت بسمة من فراشها لتغطي أمها التي غطت في نوم عميق بعد
سفر طويل، بقيت تنظر إليها حابسةً دموعها التي جفت. لا تعلم ماذا

ستفعل وكيف ستعيش والدتها في هذا المكان، أو السجن بمعنى أصح. كما أنها متوترة خائفة من تلك السيدة القابعة فوق. كيف ستكون معاملتها وماذا ستقرر بشأنهما؟

لم تعود نعمة الاستيقاظ على صخب السيارات الممزوج بضجيج المارة. وبعدها تغسل وجهها لتبقى سجيئةً بين جدران غرفة، وقد سُرق منها صوتها الحزين. هي التي كانت تكمل يومها مع حقلها الذي ينتظرها فاتحاً خضرته بأشجاره وأزهاره، تسرح فيه وتمرح رغم ضيق العيش وقسوة الظروف.

أما اليوم فهي تضحي من أجل وحيدتها رغماً عنها، لأنها تجرعت من مكائد القدر وغدره وإذا ما فارقت الحياة تتركها وقد اطمئنت عليها وعلى مستقبلها. ولن تكون عالةً على أي شخص، أو تعانق الذل والقهر من أجل لقمة العيش، تعيد حياة والدتها التي شبت من أيام كلها عذاب وحرمان. لذا فستكمل تضحياتها من أجل بسمةٍ لآخر مرحلة.

- هذه المكتبة. تلاحظين كم هي كبيرة؛ حيث تُعتبر من أكبر المكتبات بالعاصمة، فقد حرص زوجي رحمه الله على توفير أكبر عدد من الكتب للطلبة. وتعلمت هذه المهنة النبيلة برفقته، أساسها التعامل الحسن مع الطلاب والأساتذة وفي نفس الوقت الصرامة والانضباط.

كانت السيدة زليخة أو «المدام» كما تسميها بسمة، تخطو خطواتها المنتظمة بثقل داخل مكتبتها العملاقة وبسمة تتبعها بخطوات خجولة وهي تستمع لحديثها وأوامرها تجيب بالقبول رافعةً رأسها لفوق ثم للأسفل دون أن تنطق ببنت شفة.

— المهم ستتعرفين على رفوف المكتبة. عناوين الكتب واختصاص كل شعبة؛ حتى تتمكني من تلبية احتياجات الطلاب بسرعة.

خلال هذا الشهر ستحاولين حفظ الرفوف والعناوين. كما أنك محظوظة جدًا لأنك ستطالعين في مجال تخصصك مجانًا من المكتبة ليس كباقي الطلبة. وأي عنوان تحتاجينه بخصوص القانون ستجدينه. إضافةً إلى كل ذلك فهناك شاب ستعملين معه هو يداوم هنا أيضًا.

ستتعلمين منه أصول التعامل وكيفية البحث عن العناوين وحتى تنظيمها في الرفوف، سيكون معك خلال هذا الشهر وبعدها ستتناوبان في العمل وستجتمعان حسب برنامج دراستكما، فهو يعمل لدينا منذ صغره. شاب نشيط وخلق يُدعى «سمير» ستتعرفين عليه خلال الأيام القليلة القادمة.

ثم استدارت نحوها بنظرتها الحادة وكأنها تخترق قلبها الصغيرة المرتجف وباغتتها بسؤال ممزوج بابتسامة امرأة محترفة تعرف تمامًا متى توجه كلامها وكيف.

- إذن أنسة بسمه؛ أنت راضية عن الوضع الذي ستكونين فيه، وستعيشين معه؟

- أكيد مدام، أشكرك، هذا من لطفك وكرمك علي.

- يكفي أن تنادينني بالسيدة زليخة.

- كما تشائين سيدتي.

- المهم. بخصوص مواعيد العمل سأتركها بعد أن تحضري لي برنامج دراستك. وحينها ستدرسين المحاضرات المهمة فقط، أكيد مع الدروس التطبيقية. أظن أن هذا كاف لك، وباقي المحاضرات استعيرها من زملائك. اتفقنا؟

- حاضر سيدة زليخة.

- الآن أتركك لتستريح وتذهبي لوالدتك. وإذا احتجت لأي شيء أنا في الطابق العلوي.

- شكرًا جزيلاً.

- لا أعرف يا أمي. لكن تبدو لي هذه السيدة غريبة الأطوار تخفي الكثير بداخلها. محاولة إظهار جانب القسوة والتسلط. لكنني أحس أنها ضعيفة خائفة تستعمل دائماً وسيلة الهجوم حتى في عباراتها العادية لتدافع عن نفسها.

كانت بسمّة تخاطب أمها المسكينة تسأل وتجيّب في الوقت نفسه ونعيمة تنظر إليها لا تبدي رأيها أو ما يحول بداخلها سوى بتحريك رأسها تاركةً ما بداخلها مدفوناً متراكماً. وهما جالستين بشبه المطبخ، تلك الغرفة في الطابق السفلي التي حوّلت من أجلهما للأكل والطبخ، وبسمّة تغسل تلك الأواني التي تناولت فيها الطعام رفقة والدتها، لتنتقلا بعد ذلك للنوم. وقد تحول منزلهما أو مملكتهما التي كانت بين المروج لنصف مطبخ وغرفة.

بعد مرور الشهر.

مرت الأيام وبسمّة تعانق رفوف المكتبة تحاول حفظ العناوين وترتيبها بمساعدة سمير ذاك الشاب الذي حرك فيها ألمها الدفين، تنظر إليه وكأنه مرآتها التي تحاول الهروب منها كواقع مزق فيها آخر تفاصيل فرحها. ومن جهة أخرى صنع ضحكها البريئة التي كانت تطلقها كلما قابلته.

كان شاباً ظريفاً حسن المظهر رغم بساطة لباسه، نشيطاً عفويّاً تصاحب تفاصيل وجهه حكاية فرح صنعها لنفسه وبفسه، يحاول أن يتقاسمها مع بسمّة، وهو يمسك بحبل الوجد الذي كان يقيد روحها ويطبق على شفيتها الرقيقتين، فصنع كما كان يقول دائماً معجزةً بتغيير

ملامح ذلك الوجه الجميل ويهدي لها ابتسامة ثم ضحكات مسترسلة تزور صدرها الضيق لتصبح كفتاة بريئة عمرها سبع سنوات.

كان سمير أول هدية تتلقاها؛ وضعه الله في طريقها ليخفف من بعض أوجاعها وآلامها التي أبت أن تفارقها وتعودت مصاحبته.

في كل مرة تأخذ بسمة أمها نعيمة للمكتبة عندما تكون بمفردها حتى لا تمل، وتلك المسكينة تنظر إليها لساعات وعندما تمل وتتعب تذهب للغرفة حتى تتمدد قليلاً من سنوات العذاب والتعب. بعدها تذهب للسوق لتبتاع ما تحتاجه من أغراض وتعود لتكمل عملها. هكذا بقيت تحارب خيبتها بالاجتهاد لتزيح المكان لانتصار قادم تريده زاحفاً نحوها وتحت قدمي والدتها وتعود بالشهادة لتعلقها في مقاهي قرية «أولاد عسكر» وبيوت النسوة، أهل القرية الذين عارضوا دائماً فكرة إكمال دراستها، فتجعل من نجاحها فخراً ووساماً مزروعاً على صدر والدتها التي بقيت ظلاً لامرأة وأسقطت كلمة المرأة الكاملة من قاموسها، رضخت لقدر مفارقة أحبابها، ولكنها تحدته ورفضت أن تكون ابنتها صورةً طبق الأصل عنها تعيد شريطاً تمت لو أحرقت وراء الجبال وأخمدت دخانه حتى قبل أن يعلو السماء.



أكتوبر ١٩٧٩.

جامعة بن عكنون وبضبط كلية الحقوق.

من جدران المدرسة لعالم المعرفة، العاصمة. وسط الحرم الجامعي، تلك الابنة الفلاحة التي طالما داست بقدميها وأغرقتها بوحل الأرض زارعةً حاصدةً، اليوم هي تجول في الحرم الجامعي وسط طلاب غريبة بينهم مرتدية تنورتها المتواضعة، تحاول أن لا تتيه وراء خوفها واندهاشها وهي تلتحق بالمدرج بعد أن نقلت برنامج الدراسة المعلق على جدار الكلية.

لكنها خلفت وراءها تلك المرأة الخرساء في الحجرة وحيدة، لا تعرف هل أصابت بجلبها معها تاركةً إياها سجيئةً. سجن نفذ عليها وكان الزمن هو الجلال. في الماضي كانت كالطائر حرةً تحوم في قصرها المدفون بين المروج والخضرة تعانق خرير النهر، أما اليوم فدورها أضحى محصوراً في الانتظار فقط لتحقيق أمنية طالما راودتها.

لا تعرف كيف تتصرف وقد تركت والدتها مع تلك المرأة غريبة الأطوار، أما نعيمة فبقيت غارقةً في صمت فرضه عليها الزمن. مذلولةً ضعيفةً، كل هذا زاد من هم بسمه التي تركت أمها غريبةً في بيت هواء جاف عكس نسيم بيتهما في القرية، مع سيدة تفرض عجزتها وقسوتها دون سبب.

- ما العمل؟ وأين المفر؟ فأنا بين المطرقة والسندان بين العودة والعيش كفلاحة ومرافقة الأرض والحرث وعدم الالتحاق بالجامعة وإكمال حياتي، أو إكمال دراستي وتركك بين جدران غرفة ترافقين صمتك، وأكون بذلك قد ظلمتك وأنت من تجرعت الويلات بسببي. أنا الجلاد يا أُمي ماذا أفعل أرشديني.

كل هذا وبسمة ترافق بكلماتها المجروحة دموع أبت التوقف، معاتبَةً نفسها وهي تنظر لوالدتها الحائرة، هذه الأخيرة التي بقيت تتأوه مستصعبةً الكلام وهرعت تحضن ابنتها وهما في تلك الغرفة الشاهدة على عذابهما، ونعيمة تدفن رأس ابنتها في صدرها تحاول التحدث معها بلغتها الخاصة.

الآن وقد لقبت بالخرساء تحاول أن تخلق لنفسها لغةً لتحاوِر ابنتها وهي تتلعثم في البوح بكلمات غير موجودة أصلاً، وإنما تعبر فيها بصرخات ضعيفة ضاغطةً على يدي ابنتها تترجاها البقاء غير آبهة بحالتها أو غربتها، تشير بكلتا يديها راجيةً إياها أن تبقى لإكمال دراستها وأن لا تقلق بشأنها فهي مرتاحة طالما بسمة تسير نحو القمة وهذه خطواتها الأولى إلى ذلك. نعيمة التي أصبحت تصارع الكلمات لتخرجها مشوهةً تماماً وهي تترجى بسمة بالبقاء.

- حسنًا يا أمي لا تنزعجي وإنما قلقي بات أكبر وبسببي تحولت
لعرجاء وخرساء، ترعرعت في أرض تغوصين في أعماقها بأحلامك
البسيطة لتلد لنا من جوفها واقعًا ارتسم في عينيك كالبريق رغم تعبك
لكن حصاده أسعدك، فكنت الملكة بين كل ما كنت تجنيه من عرقك.
وأنا اليوم أدوس على كل تلك الأمانى فقط لأصنع أحلامي على حسابها
بكل أنانية. للتحول حياتك في النهاية إلى سجن أنت الأسير وأنا السجنان.
رحلت تلك الليلة مخلفةً مكانها لخصلات حمراء تنبعث من رحم
السماء ويصيح الفجر بإطلالته، وبسمة لا تزال مستيقظةً كملاك حارس
تأمل والدتها التي أنهكها ظلم السنين وتجبر المتعطشين لتحطيمها
وهي من أرادت أن تصنع الإشتاء في حياتها.
بقيت تناجي الله تتوسل إليه بدموع أغرقت وصادتها أن يقويها ويقوي
والدتها. وهمست بين شفيتها تخاطب والدتها وهي تغط في سباتها:
- سامحيني يا أغلى البشر تجرعت ظلم أهلِكَ وقهر الزمن وأكملت
عذابك بغربة الليالي يا غالية، ساعدني يا رب على إسعادها وأن أعوضها
سعادةً بدل عذابها.

هكذا تمر الأيام وبسمة ترسم مخططاتها بين الجامعة للدراسة
والمكتبة للعمل وجني رزقها. سارت حسب ما اشترطته السيدة زليخة

عليها. فقد كانت تحضر فقط للمحاضرات والدروس المهمة والباقي تخلفه لتعمل في المكتبة دوامًا كاملاً منشغلةً في بيع الكتب وترتيبها، خاصةً عند غياب سمير الذي قلما تلتقي به بسبب انشغاله هو كذلك بدروسه ومحاضراته فأضحى لقاؤهما مرةً أو مرتين في الأسبوع.

أما نعيمة فتمضي وقتها بين المطبخ والغرفة وأحيانًا في الجلوس وسط فناء المنزل منتظرةً وحيدتها آخر النهار.

كل هذا وزليخة تراقب الاثنتين خاصةً بسمه، وهي ترسم بينها وبينهما حدودًا كما تفرضها المؤسسات على موظفيها تبرز علاقة الرئيس بمرؤوسه، وبقيت السيدة الغامضة تتعامل مع بسمه في حدود العمل وكل يعيش عالمه.



لم يعد الطموح مجرد أمنية بل هو يتحقق لأنه خرج من رحم أم معذبة. وإصرار بسمه يزيد يومًا بعد يوم في تحقيقه وهي تعيش وسط مدينة صاحبة تعيد بناء ذاتها ومبانيها. هكذا صارت حياتها تتسابق مع المدينة حتى لا تبقى تلك الريفية التي تعيش وتقتات من أطرافها وإنما ستترع يومًا في قلبها.

فجامعة بن عكنون كانت صاحبةً بالطلاب وكأنها خلية نحل كل يتوجه لمدرجه أو للمكتبة يداعب بأفكاره ما تعلمه في المحاضرات

ويحاول أن يقلبها في رأسه ليلبور فكرةً مضادةً أو موافقةً يناقش بها دكاترته. وبسمة من بينهم تبرز قدراتها الهائلة بين الدراسة والمناقشة والبحث، ومن جهة أخرى براعتها في البيع وخدمة الطلاب محاولةً رسم ذلك الطريق المستحيل وجعله ممكنًا وتعييده للوصول إلى القمة. علاقتها بالطلاب والطالبات كانت خجولةً وفي حدود معينة محاولةً بناء القليل منها، خاصةً أنهم علموا بعملها في المكتبة ومكان إقامتها وسبب مجيئها، الشيء الذي كانت دومًا تفتخر وتتفاخر به.

وقتها لم يكن يسمح بالاستمتاع والتجول برفقتهم بسبب ظروفها ووالدتها التي رحلت تاركةً عالمها وراءها في صمت فقط لتتحدى الجميع بأن تكون ابنتها ذخرًا لها ولوطنها، وبقيت على هذه الحال إلى أن قرب وقت امتحانات السداسي الأول.

كان العمل بالمكتبة يتزايد والطلاب يتوافدون على طلب العناوين والكتب. والسيدة زليخة تحاول تلبية رغباتهم باتصالاتها وجلب ما يحتاجون إليه، وبسمة تساعد على الترتيب والتنظيم والعمل، وهي تثبت لزليخة قدرتها الفائقة على إدارة أمور المكتبة بذكاؤها وفطنتها، وهذا ما شجع بسمة على محادثتها بخصوص قرب موعد الامتحانات. بعد أن دقت باب الطابق العلوي وهي مترددة خائفة من ردة فعلها.

- آه بسمه. مرحباً بك. ما سبب هذه الزيارة المفاجئة؟ هل هناك
خطب ما؟

كانت صارمةً في حديثها متجهمة الوجه بعد أن دعتها للدخول
والجلوس.

- العفو منك سيدتي، اعذريني على تطفلي لكن حاجتي إليك هي
التي دفعتنني للقدوم...

في الحقيقة اقترب موعد الامتحانات ويجب أن أحضر لها جيداً،
ومن المهم أن أراجع كل المحاضرات التي تغيت عنها، بسبب عملي
في المكتبة، مع أنني كنت أدرس من الكتب لكن تعرفين سيدتي نظام
الجامعة، لذا أردت أن تأذني لي بالعمل نصف يوم هذا الأسبوع بالمكتبة
للتحضير للامتحانات إذا سمحت؟

- في الحقيقة؛ أظن أنه خلال هذه الفترة نقل زيارة الطلاب لمكتبتنا
بسبب ارتباطهم بالامتحانات، كما أنني لاحظت اجتهادك وعملك
الجاد في المكتبة طيلة هذه الفترة.

أمانتك وحسن خلقك وتعاملك الذكي والمميز مع الطلاب والزبائن
وهذا رجع بالفائدة على المكتبة، لهذا سأقبل بطلبك أتمنى أن تثبتي لي
جدارتك وأنظر منك نتائج مبهره.

- أكيد سيدتي؛ ولا أعرف كيف أشكرك على حسن صنيعك معي.

وتراقصت عينا بسمه فرحًا وسعادةً هذه الشابة التي أصبحت شاحبة الوجه نحيلةً جدًا من شدة الإرهاق والعمل.

ورحلت بعدما شكرتها بالطف المعاني وأرقها ما زاد من إعجاب زليخة بها، تلك السيدة الصارمة التي توحى ملامح وجهها بالقسوة والصلابة، يبدو أنها بدأت تلين بوجود هذه الفتاة.

كانت أيامًا صعبةً وبسمه تتحدى النهار ببرده وقسوته والليل بظلامه وسكونه تستعيد أيام الدراسة حين كانت في الداخلية، لكن اليوم الأمر مختلف فالتحدي والإصرار هما طريقها، وأمها المسكينة بألمها وصمتها تحاول أن توفر لها كل شيء حسب استطاعتها.

تصر على النجاح بين جدران تلك الغرفة البسيطة هي وأمها الغريبتان؛ تكافحان بين مخالب مدينة تجمع كل المدن بين أحضانها لتكون إمبراطوريتها الضخمة. وعلى كل واحد من سكانها أن يثبت نفسه بنفسه، فأين هاتان الريفتان من كل هذا؟ وأين ستأخذهما الأمواج وهما من تعاركتا مع المد والعجز حتى ترسوان في شاطئ السلام؟

عام ١٩٨٣...

صداقاتي كانت محتشمةً وأنا أجول في حرم الجامعة أحاول أن أكرس وقتي للمحاضرات والعمل بالمكتبة وقضاء بعض من الوقت المسروق مع والدتي.

عبارات سرقتها بسمه لترسمها بأناملها وهي تصاحب مذكراتها تعيد سنوات ولت؛ تائهةً بين أوراقها في ماضيها مصرّةً على كتابتها لتبقى في ذاكرتها. هذه المذكرات التي ستعبر بها لقلوب وعقول جيل بعدها وتثبت أن البنت الريفية بإمكانها صنع الكثير، أما والدتها المرأة القروية فهي منبع تلك القوة ومصدرها.

بسمه التي صارعت قدرًا لتصنع بفضل الله وإرادتها قدرًا آخر. هي اليوم من أكبر المحامين وتشغل كذلك منصب دكتورة في قانون الأسرة بالجامعة، لم تنسى يومًا أنها لُطِّخَتْ بطين الأرض التي حملتها إلى الجامعة ورائحتها الزكية وتربتها تختلط بالمطر وتغريد النهر يحاكي إحساسها لترفع رأس والدتها عاليًا. أكملت ترد بحبرها مسلسل حياتها مصرّةً على إتمامه.

وقفت نعيمة تتناقل بجسمها وصوتها المتقطع تخرج كلماتها بصعوبة، ووجهها امتلأ بالتجاعيد والسنوات أخذت منه جماله وبريقه،

كانت ترتدي منامتها الفاخرة. تنظر إليها فتحسبها ابنة العائلات العربية من أواسط العاصمة.

أشارت بيدها للساعة كانت الثانية صباحًا تسألها سبب تأخرها وعدم نومها بلغة لا تفهمها سوى بسمة.

— لا يا أمي؛ لست متعبةً، وهذه مذكراتي عندما أنتهي منها سأخبرك بسرّها. عودي للنوم وسألحق بك بعد قليل، ليلة هائلةً.

بعد أن أفاقت بصوت والدتها الذي أخذها من الماضي القريب والبعيد في آن واحد. عادت نعيمة أدراجها وبسمة تائهةً فيها وكأنها تراها للمرة الأولى؛ تتمعن في مشيتها وإصرارها على مراقبتها كالسابق وكأنها ابنة صغيرة، أمها التي بقيت عرجاء خرساء تتلعثم في كلامها المحتبس لتخرجه بصعوبة غير مفهوم نتيجة ما وقع لها في السابق.

بعدها واصلت بسمة تجر بأناملها ذكريات أبت أن تفارق مخيلتها وهي كذلك رفضت أن تنساها وأصرّت على توثيقها لتبقى عبرةً لأبنائها.

واصلت تملأ ذلك البياض بجروحها ورافقتها بتنهيدة طويلة في مكتبها المشع بنور خافت وصوت المطر الجميل يعزف سيمفونية في صدرها الحزين وهو يحاكي التراب لتصعد منه رائحة عطرة تتسلل من نافذتها المفتوحة لتعود بها لسنوات الريف وشبابها الذي تتذكره رغم

العذاب والألم، إلا أنها كانت من أجمل سنوات العمر. وتابعت تكمل كتابة مذكراتها.

كانت الفتيات مفتونات بأنفسهن يتنافسن في الدراسة وفي تحصيل العلم وتحقيق حلم الالتحاق بوظيفة. كما أن رغباتهن بالزواج والظفر بفارس الأحلام كانت من أولوياتهن، أما أنا لم تكن لي أولويات لأرتبها وإنما عندي هم واحد: الاعتناء بوالدتي، مداواتها، وتعويضها سنوات الجمر التي تعاقبت على كاهلها وما تزال تدفع ثمن ذلك من أجلي ولأجلي.

- وأين أنا من أنوثتي المفجوعة ونفسي الموجوعة سوى حلم أركض للحاق به وهو يهددني باستحالة الوصول إليه كل يوم. وغرفة ضيقة وسط بيت فخم بارد من الأحاسيس وأمي تعانق جدرانها الجافة لتصبح يوماً ما مثلها...

عرجاء بكاء ذنبها الوحيد أنها أنجبت بنتاً لتعاني معها، فكيف أُمِرَح وألهو وسط كل هذه المعاناة التي أصبحت تسكن جسمي وتجري في عروقي والنتيجة أم ملت الصبر وابنة تعبت من الركض وراء وهم.

- فهمت من حكايتك أنك تجاوزت وانتصرت على أكبر العوائق رفقة والدتك وصنعت من نفسك ومن والدتك استثناءً. فلما كل هذا التشاؤم والحزن؟

كانت زميلة بسمة في الجامعة؛ حيث كونت الاثنتان صداقةً جميلةً، ف«حياة» كذلك كانت ابنةً من منطقة ريفية بأعالي مدينة «سطيف»، كان نمط حياتها مشابهاً لحياة بسمة، فقط الفارق أنها كانت تعيش وسط عائلة كبيرة، وهناك من يعيلها وتعتمد عليه... كونت البنتان رفقةً جميلة وسط شلة صغيرة من الزملاء، لكن زمالتهما تحولت إلى صداقة وكانت تعرفان الكثير عن بعضهما.

- لا أعرف يا حياة، ربما ما عانته أُمي وما كان يُرسم في عينيها الحزبتين جعلاني أرافق الشجن بقصد ومن غير قصد، لأنني ابنة الدموع والآلام ورسالتي في الحياة بؤس وشقاء. فتركت الأيام شوائبها في صدري وتربعت المآسي بين ضلوعي.

بينما هما جالستان في حرم الجامعة، أكملتتا توا الامتحانات بعد أن اجتازتا آخر مادة قانونية، إذ شلة من الطلبات تنضم إليهما وكن زميلات مقربات لحياة. وبعد أن ألقين السلام تكلمت إحداهن قائلةً:

- أظن أنك تدرسين معنا، أقصد بنفس المدرج؟ آنسة. لم نتعرف لحد اليوم على اسمك؟
- تُدعى بسمة.

وقد أجابت عنها حياة بوجه متجهم.

- آه. أجل، فقط أستغرب قوقعتك وانعزالك عن الطلبة حتى أصبحت مميزة ومشهورة بهذه الخصلة.

- هل نعتبره تكبراً آنسة بسمه؟

خاطبتها البنت الثانية.

لتكمل الثالثة كلامهما بسخرية:

- لا أظن ذلك فليس لديها ما تتكبر لأجله، إلا إذا كانت تفتخر بملابسها وتعتبرها موضة هذه الأيام. هنا يصبح الأمر مختلفاً.

لم تع بسمه ما تسمع. كان وقع هذه الكلمات عليها كأنه ماء بارد سقط على رأسها أو كأنها سقطت في حفرة عميقة، وبقيت تنظر، تتأمل مدة، ثم نفضت نفسها من حولهن ورحلت مسرعة في مشيتها تجر ذلك الجرح الملتصق بروحها، وقد كثرت الكدمات وتركت أثرها، ولونت بألوان مختلفة حتى تبقى عالقة دائماً: ظلم الزمن وسخرية المجتمع منها.

- برأيكم ستبقى تلك الريفية الغير متحضرة والتي لا تقبل أبداً بينكم وأن الجامعة لأمثالكم من أهل التمدن والتحضر، أدرك جيداً أنكن سألتن عنها، وعن أصلها وجئن اليوم لتسخرن منها متعمدات ذلك... لكن صدقنني من كانت أمامكن وجرحتن مشاعرها بتفاهتكن أكبر بكثير من أفكاركن وحماقاتكن. صدقن بقولكن أنها متكبرة. تدركن لماذا؟

لأنها لا تستطيع النزول لا بأخلاقها ولا بتفكيرها لمستواكن، فتحسبونها متكبراً، لكنها مترفعة، فأنتن بعباراتكن لم تجرحنها أبداً، وإنما صمتها هو وصمة العار التي ستبقى ملتصقةً بكن، لكن للأسف؛ لا ولن تمثلن طالبات القانون، والذي يتكل الوطن والمجتمع عليهن في رد حقوقه مادمتن لا تعرفن الحق وتتفوهن بكلمات لتنصرن الباطل... يا طالبات وجيل المستقبل؛ آسفة لأنني قبلت بزمالتكن، أنا كذلك ريفية أنتمي للأرض التي أنجبت بسمه وبكل فخر.

ثم نهضت وتركتهن شاخصات بأبصارهن الجامدة مستغربات ردة فعلها لا يحركن ساكناً ولم ينطقن ببنت شفة.

كانت العودة للمنزل صعبةً، بالرغم من أن بسمه قررت شراء هدية لوالدتها من راتبها المتواضع وأن تسهر الليل كله معها لأنها قصرت بحقها كثيراً، لكن رجعت مهزومةً منكسرةً تعاتب الزمن لأنها لم تكن يوماً كأترابها...

واليوم تُهان وتصبح محلاً للسخرية بسبب لباسها المتواضع، وذنبها الوحيد أن أمها قروية ووالدها فلاح كرس كل حياته في الزرع والبذر والحرث وأنهى حياته في نهر فقط لأنه جعل من نفسه بطلاً...

فكانت نتيجة مروءته أرملة تكمل مشواره الشاق، وطفلة يتيمة لا يحق لها التعلم والدراسة، وإنما حقها الوحيد هو الزواج والإنجاب وخدمة الأرض والعيش في قرية هي عالمها الوحيد، ولا حق لها تجاوز حدود تلك القرية فهو من المحرمات.

يا لها من ليلة طويلة صعبة. لم تستطع بسمه النوم ولا الأكل ونعيمة تحاول أن تسألها بالإشارات عن صمتها لكن صغيرتها تطمئننها بأنه مجرد تعب وعيونها تخبئ بحرًا من الدموع تمنع رجفة قوية تريد زلزلة جسدها النحيل من شدة الألم والجرح...

رافقت بعدها الصمت ودموع تغرق وسادتها التي أثقلت بها وأضحت شريكاتها؛ تقاسمها ذلك الحزن المكبوت، فيخرج فرحًا مزيفًا في ظلمة الليل حتى لا يراه أحد، فجعلت من وسادتها ذلك النهر الذي أصبح يجري من دمعها وكأنه أمطار.

الساعة الثانية ليلاً...

بينما نعيمة تغط في نوم عميق وبسمة تحاكي بجفونها نجوم الليل تعيد عبارات الطلبات لها وقسوة كلامهن إذ بها تسمع صوتًا قويًا في الطابق العلوي وكأن شيئًا وقع. حينها فزعت نعيمة من نومها وأصبحت تستفسر بإشاراتها عن سبب تلك الضجة.

- من الواضح أن السيدة زليخة أسقطت شيئاً ما، أو أظنها هي من...
وارتعت لفكرة سقوطها فانفضت واقفة ثم ركضت فوراً للأعلى
وأما تلحقها بصعوبة بسبب رجلها المصابة وهي تعرج.

كانت في حالة يُرثى لها ساقطة على الأرض لا تعي ما يدور حولها.
لون وجهها أصفر وجسمها المعوج. نظرت إليها بسمه بعدما دخلت
بيتها في الطابق العلوي، ففزعت لحالها وجلست على ركبتيها تحاول
إيقاظها وأما المسكينة ترتجف خوفاً على زليخة.

- ساعديني على حملها لغرفتها لا أدري ما بها؟ وما الذي حدث؟

- سيدة زليخة ما بك؟ ما الذي أصابك؟

وبقيت بسمه تحاول جاهدة إيقاظها وما هي إلا لحظات حتى بدأت
في الاستيقاظ، كان لسانها ثقيلاً وما إن رأت بسمه عند رأسها حتى أشارت
لدرج خزانها ففهمت بسمه قصدها وفوراً هرعت إليه وفتحته، حينها
تفاجأت بكمية معتبرة من الأدوية، فالتفتت فوراً تسألها عن نوع الدواء.

- ناوليني الدواء الأزرق يا بسمه بسرعة من فضلك.

كانت تجد صعوبة كبيرة في التنفس حيث كانت مستلقية فوق السرير
كأنها رضيع لا يجيد الكلام ولا حتى الاعتماد على نفسه. وما كان على
بسمه سوى رفعها بصعوبة ومناولتها الدواء كطفل ينتظر شفقة أمه.

بقيت الاثنتان حائرتين مندهشتين شاخصتين ببصرهما تنظران
لزليخة غير مدركتين لما يحدث.

بعد مرور ساعة...

- لا أعرف كيف أشكرك يا ابتي على صنيعك هذا.

قالت ذلك بعد أن كسا وجهها الدم وماء الحياة وأجلستها بسمه على
سريرها بشكل عمودي، ثم سكتت عن الكلام لفترة بعد أن شكرتها،
وبقي الثلاثة ينظرون لبعضهن، ودون سابق إنذار قررت تلك السيدة أن
تسرد حكايتها.

بقيت تائهة لا تحرك عينيها الشاخصتين في صورة رجل كبير
يجلس على كرسي يمسك بعصا وعلى ملامحه ترسم علامات الوقار
والرجولة، وكانت شفتاها ترتجفان لتعبران على سنوات مضت وبقيت
سرّاً السيدة غريبة الملامح تخبي بين تجاعيد وجهها أسراراً وحكايات لا
تريد أن يعرفها أحد. لكن آن الأوان لتخرج ما أخفته في روحها المختنقة.
وهي تقص حكايتها تحسها امرأة أخرى لا تعرفها بسمه ولأول مرة
تتعرف عليها.

- تدرकिन يا بسمه... إنني لأول مرة أنادي شابة بلفظ ابتي. كنت
دائماً أخبي ما يحمله صدري وأجاهد حتى لا أظهره للملأ. جعلت من

حكايتي سرّاً مدفوناً في بحر عميق. أمواجه ساكنة وهدوؤه ساحر حتى لا يظهر للناس سره، وغضبه مدفون في القاع، يكاد ينفجر من شدة التحمل. ترعرعت في كنف والدي «عبد الستار». كان رجلاً غنياً امتلك مستودعاً للقمح والشعير؛ ورثه عن جدي إبان الاستعمار وأخفاه مموهاً بامتلاكه لمكتبة، حيث كان يخبئه في الأسفل...

كان لديه أخت وحيدة مقعدة تعيش رفقتنا، فولدها الوحيد كان مجاهداً وفدائياً ضد الاستعمار الفرنسي، فأقامت معنا حوالى العامين وتُوفيت... وبعد فترة وصلنا نبأ وفاة ابنها الوحيد متأثراً بجروحه إثر التعذيب، فورث أبي حصتها.

كان يعمل مع الثوار في الخفاء ولم يتفطن له أحد إلى أن حضينا بالاستقلال وبقي الأمر سرّاً، فلم يكن يعرف أحد بتمويله للمجاهدين بالقمح والشعير وكل ما يلزم سوى عدد قليل من الذين استشهدوا خلال الثورة.

أما والدتي «زهية» فقد كانت إنسانةً خجولةً هادئةً لا تخرج من البيت إلا نادراً ولحاجة ملحة، كنت وحيدة أبوي. فقرر والدي بعدها تعليمي وألحقني بالمدرسة القرآنية ثم الابتدائية. واصلت دراستي حتى الثانوية... ومن شجعني وساندني على المواصلة كان والدي رحمه الله، لأنه كان يؤمن بفكرة التعلم كنوع آخر من الجهاد ومجابهة العدو، أما أمي

فقد كانت ترفض الفكرة من الأساس وتصر على والذي دائماً ليركني معها في البيت حتى أتعلم أشغال المنزل وتهيئني للزواج وتكوين أسرة، لكن أبي كان يدللني كثيراً باعتبار أنني ابنته الوحيدة.

لتتوالى الأيام والأعوام ويحدث ما لم يكن في الحسبان، حيث التقى والذي بابن أعز صديق لديه، عاد من فرنسا بعد الاستقلال، كان يُدعى «إسماعيل»، حيث جُنِّد كرهاً من قبل فرنسا للمشاركة في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا. وانتقل للعيش بعد انتهاء الحرب في فرنسا ليعود بعد الاستقلال نهائياً للجزائر.

لكنه فوجئ بوفاة والده. وبيتهم الذي هُدم إبان الاستعمار، ولم يجد ملجأ سوى البحث عن والدي. خاصةً أنه عاد ولا يملك فلساً إلا قيمة تذكرة العودة.

- والله ياعم عبد الستار ذقت علي كل السبل، ولم أكن أدرك أن النحس سيفتح لي أبوابه، لأجد نفسي وحيداً أناجي الحزن بعد سنوات الغربة والألم والعذاب وإذ باليأس يسكن روحي، لم أعد أطيع حياة المتسولين هذه، لذا بحثت عنك لأنك الوحيد من بقي لي من رائحة المرحوم، جئتكَ قاصداً في خدمة وأنا مُخرَج منك أشد الحرج.

- تفضل يا إسماعيل... أبوك كان بمثابة أخ وأنت ابني، بماذا أخدمك؟

- أريد إذا تكلمت علي أن تقرضني مبلغ التذكرة وسأعيدها إليك
حالما أجد عملاً، أعود أدراجي لأرصفة فرنسا وطرقاتها الموحشة
وأكمل حياتي هناك علني أجد مخرجاً لأحزاني و...

- لا تكمل يا إسماعيل وإلا غضبت منك. لم يمت والدك حتى
تأس لهذه الدرجة. ولم نناضل ويموت ملايين الشهداء، لنعيد أبناءنا
لأرصفة فرنسا. إنما استقلالنا كان هدفه جمع الشمل في حضن بلادنا،
لهذا فأنت مسؤول مني من اليوم فصاعداً.

هكذا تعاقبت الأيام وصار إسماعيل في وقت قياسي الساعد
الأيمن لأبي في مستودعه الكبير، لترك بعدها كل الحمل عليه ويصبح
إسماعيل الأمر النهائي، ليختارني زوجةً له...

رأيت ثلاث مرات فقط، لكنها كانت كافيةً لأرسم صورته داخل
صدري لينقل بعدها العدوى لقلب حلم بفارس يملأ كيانه بقوته
ورجولته، تحقق الحلم وتزوجنا وأصبح إسماعيل يعيش بيننا. وفي
وجداني يتربع سلطانه.

كل هذا وزليخة تسرد حكايتها وكأنها امرأة أخرى لا نعرفها، فالزمان
غير ملامحها وكأنها شابة تعيش مراهقة الحب والعشق بعنفوان كبير
وتابعت قائلةً:

- لكن يا حبيتي لا تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. فبعد مرور خمس سنوات تُوُفِّيَ والدي وبعدها بثمانية أشهر لحقته والدتي التي أتمت آخر عمرها حزينةً مقعدةً. وما زاد من حزنهما وألمي أنهما لم يريا ابنًا من صليبي لأنني عقيمة، وآخر ما أوصى أبي إسماعيل أن لا يتخلى عني ويتركني بسببي عقمي فبعدهما ليس لدي أحد سواه بعد الله.

فعلاً كان إسماعيل عند وعده، كان رجلاً بأتم معنى الكلمة، لم يحسسنني بالنقص كما أنه لم يتذمر يوماً بحرمانه من الأولاد، وبالرغم من إصراري عليه بالزواج إلا أنه كان يرفض، ودائماً أثبت لي حبه. علمني معنى الوفاء والتضحية وترجمها في صمت لكن بأفعال جعلتني أهيّم بحبه لهذه اللحظة.

بعد سنوات وبسبب موقع منزلنا القريب من الجامعة قررنا تحويل المستودع إلى مكتبة كبيرة تخدم الطلاب فعلاً، أما المستودع فيكون للكتب وكل لواحق المكتبة، خاصةً أن إسماعيل إبان الاستعمار كانت له توجهات حزبية ونضالية مع الثورة الجزائرية...

كما أنه عمل في الخفاء كثيراً بكتابة وتوزيع المنشورات، وأكمل مشواره في فرنسا مع مجموعة من الشباب الجزائري المغترب هناك ودخل السجن في العديد من المرات. وبهذا فتحنا هذه المكتبة وأسميناها «مكتبة عبد الحميد إبن باديس».

آه... بعد أن تنهدت طويلاً أكملت قصتها...

- لكن يا حبيبتى لم تكتمل سعادتنا أبداً، ففي أحد الأيام الخريفية فُوجئ إسماعيل بزيارة ابن عمه القاطن بألمانيا ويُدعى «سعيد»، والذي رفض العودة بعد الاستقلال إلى الجزائر...

جاء متهمًا متوعدًا يطالب زوجي بميراثه في البيت العائلي. لأنه لم يصدق حكاية تهدمه، وظن أن البيت الكبير الذي نسكنه والمكتبة هي نتاج بيعه لبيتهم، واليوم هو يخترع كذبة تهدم المنزل حتى يستحوذ على حق العائلة.

ونشب إثرها شجار كبير بينهما، وتأزمت القضية بين الرجلين وأصبح يهددنا في كل مرة، ويبعث لنا بالمراسيل بأنه لن يتركنا في حالنا خاصةً بعد إعلان إفلاسه في ألمانيا.

وبقيت الحكاية في أخذ ورد حتى انقطعت أخباره عنا ولم نعد نسمع عنه شيئاً، ومع ذلك بقي زوجي خائفاً غير مطمئن، والأكثر من هذا أنني وحيدة وهو يدرك جيداً أن قربه من النوع الصعب، والذي يخطط للشر ويتجهج كل الوسائل لتحقيق مآربه.

جمعتنا سنوات قليلة رضيعنا فيها بحبنا. كان لنا فيها العشق بدل الأطفال والحنان والمودة، وغصنا في أعماق أحلامنا، وبقينا نحوم

بآمالنا حتى قررنا في يوم من الأيام تربية يتيم يطرد يتمنا ويمسح عرق الحزن من جبيننا، وكم كانت رائعة تلك الأيام ونحن نترافق لنكمل إجراءات كفالة يتيم.

وكأننا نحضر لهدية نشترها نحن ونقدمها لأنفسنا بأنفسنا، لكن فاجعة الزمان سبقت حلمي في تكوين أسرة عوض أن نجتمع الشمل تشتت في لمح البصر وقضى عليه سيد الفراق: الموت.

تُوَفِّي إسماعيل وهو يرتب الكتب في رفوف حديدية خائنه وهو من وضع فيها أحلامه، سقطت عليه بسبب عدم تثبيتها في مكانها بشكل صحيح، سقطت الكتب وسقطت معها كل أحلامي وتبعثرت كما تبعثرت آمال كنت أنوي أن أعيشها لحظة بلحظة.

سرقنا أمانينا تلك الرفوف التي بنيتها أنا وإسماعيل، وخائنه وهو من حلم بأن يجعل منها أكبر مكتبة لطلاب الجامعة، لكنها أنهت حياته وحطمت أمان كنت أبنيتها فوق أعلى صخرة حتى نتسلقها وننظر لشمس الأمل وأيدينا تتشابك...

لكن تحرك حجر صغير من فوق القمة فتدحرجنا للأسفل ليرحل هو وأبقي أنا في ظلمة الليالي خائفة. ليكمل حزني تهديد ابنه عمه الذي سمع بخبر وفاته وبقي يهددني مدة عامين يبعث برسائله وينوي سجنني، بعد أن اتهمني بقتل زوجي والسطو على ممتلكاتهم.

أضحت حياتي بعده كورقة اختارت أن تطفو على موجة بعد ضياع نصفها الآخر، فتعيش على ذكره فمد يأخذها وجزر يرجعها، وبقيت لسنوات أعانق الوحدة والخوف حتى تحولت حياتي لخريف صامت يرى أوراق أشجاره تتساقط، ثم تأخذها الرياح لأماكن أخرى، وأشجاره ساكنة لا حول لها ولا قوة... تتعري كل يوم من ثوبها وتنتظر أمل الربيع. هكذا أنا... بقيت عارية من دون إسماعيل وكل من رحلوا حتى الأمل رحل وأخذ معه الربيع، إلى أن قادتكم نسائم الأيام نحوي وقد تكونون الأمل، فرغم خوفي منكم إلا أن قلبي انفتح لرؤيتكم وهو من أقفل بابه لسنوات...

ويوم فتحت منزلي لكم فتح صدري قفله الذي ضيعت مفتاحه بين الخوف وطرح الاحتمالات السيئة والأفكار السوداء، لأن ثقتي بالناس زُلزِلت فأصبحت أفضل الوحدة وأمقتها في آن واحد... هذا ما سبب لي مرض ضغط الدم والسكر وأمراض أخرى، فأحيانا أنسى دوائي أو أتناساه حتى أتخلص من حياة جرت معها همومًا ومأسٍ وأضحت ملازمة لي، فلا أجِد حتى من يعطيني قطرة ماء...

وما رأيته اليوم من خوف في عينيك وعيني نعيمة أعاد البسمة التي خاصمت روعي الممزقة بموت إسماعيل، وكأن هذا الأخير يهديني وردتين بعد طول صبري.

كانت ليلةً لا تُنسى سقط فيها قناع السيدة زليخة، تلك السيدة القوية التي يهابها كل الناس خاصةً بسمة وأمها. كسرت جدار الخوف بينهن واعترفت بضعف امرأة أنهكها الزمن وغدر بها، حينها أدركت بسمة أنها ليست الوحيدة من تكابد همومًا أثقلت قلبها فهناك من هم أكثر منها رغم ثرائهم.

لتبدأ حكاية أخرى ونقطة التحول في حياة النسوة الثلاثة.



(٦)

لن تعلق الورقة على القلم، جعلت منك بحرًا وقلمي السفينة.
من قريتي وأنا القروية انطلقت لأواجه القدر، بل هو من أرادني أن
أكون في المواجهة، أو اصل خط أسطري بحبرك يا قلم. أكتب مذكراتي
وأرسم في كلمات سنوات قضيتها أقبل وأتقبل ما يرضيني وما يجرحني
في آن واحد...

حتى والدتي التي لم تعرف يومًا معنى كلمة كرامة وأزاحتها جانبًا
أمام اعتبارات الأمومة فجعلتها من المحرمات تدوس عليها لتعلمني
وتوصلني لأعلى المراتب، وأنا من سيرفع كرامتها فوق رؤوس كل من
أهانها وأذلها واستهان بها.

فالانكسارات صنعت منها قضية، وحلمي جعلت منه أمنية تحققت
بين طيات العذاب، وها أنا اليوم أكمل مذكراتي حتى تبقى عبرة لكل
من يأس أو أراد دفن طموحه في لحظة ضعف.

وأكملت بسمه مذكراتها وقد عادت بسنوات خلت وكأنها البارحة.

أخذت حياتي منعرجاً جديداً منذ تلك الليلة، والسيدة زليخة جعلت من موقعي معبراً لنجاتها وخيطاً طالما تمننت أن تمسك به، وأضحيت سيدة المكتبة وابنتها وأمي سيدة المنزل ورفيقتها تظلان في المنزل تتقاسمان أعماله، أُمِّي تطبخ لها من أكلنا وزليخة ترى في نفسها ملكة في قصر بعدما كانت كالذئب المجروح مخفية في كهف مظلم.

كما أنها قررت أن تشغل معي من يساعدني على إدارة المكتبة حتى أعود لدراستي بشكل منتظم في عامي الثاني وكان شرطها أن أكون من المتفوقين في دراستي.

وبدأت الحياة كزهرة تفتح لي بألوانها أوراقاً كانت مغلقة حتى أن ملامح وتجاويز وجهي الناعم خرجت من تقلصها واسترخت بابتسامة هادئة مرسومة في مقلتي، فتغير زليخة من جهتنا منحني الأمان والقوة وأن هناك من أستند عليه من الآن فصاعداً. وبدأت أندمج أكثر فأكثر في الجامعة كما أن حياة كانت من أعز زميلاتي ومن بين القليلات اللاتي أثق بهن وهي كذلك.

كان يوماً كباقي الأيام بينما أنا عائدة إلى المنزل حتى أساعد في تسيير المكتبة بعدما أنهيت محاضراتي لمحت حياة من بعيد ظننت أنها لم تحضر أساساً للجامعة وبقيت في سكن الطالبات. فناديتها وأنا مسرعة نحوها.

- حياة... حياة... (حتى وصلت إليها) حياة ما بك؟ ظننتك لن تحضري. ومالي أراك هكذا؟

- لا؛ جئت في أمر مهم وسأعود لسكن الطالبات.

ثم سكنت برهةً وكانت متوترةً حزينةً وفي لحظة انفجرت باكيةً وكأن روحها كانت مخزنةً ببركان انفجر من شدة الضغط. ولم أعِ ما أفعل. استغربت حالتها وما كان مني سوى تهدئتها وأخذها إلى مكان بعيد.

- تعبتي يا بسمة ولم أعد أطيق هذه الحالة.

- ولما أنت بهذه الحالة أصلاً. لا أفهم. صارحيني يا حياة وكأنك تتحدثين مع المرأة. تعرفيني جيداً. ثقي بي.

- لا أعرف من أين أبدأ.

ثم سكنت وتاهت بعينها في الأرض وكأنها تبحث عن شيء ضاع منها. ثم استطردت تكمل حديثها بعد أن هدأت واسترخت.

- دموعي هذه سببها حب منذ سنتين مع زميل لي بالثانوية كنا ندرس سوياً. أحببني وكنت أدرك ذلك، كنا في المدرسة الداخلية نلتقي وقت الدراسة، بدأت أحس بحبه لي من نظراته الغريبة والخجولة التي كانت تحكي الكثير لكن في صمت، خاصةً وأن كثير من الطلاب كانوا يظهرون لي نفس نظرات الإعجاب. لكنني كنت أتجاهل الجميع.

وفي أحد الأيام بينما كان جميع الطلاب في الساحة وقت راحتنا إذ بطالين يتشاجران واشتد الشجار بينهما لحد الضرب. وبعد أن تدخل الجميع وفك النزاع حاول الشباب كتم الموضوع حتى لا يصل إلى الإدارة وبعدها تفرق الجميع.

في الغد وعند الصباح جاءني «يوسف» الشاب الذي أحببته. وطلب مني أن أتحدث معه بعيداً عن الصف وأخبرني بلهجة حادة أنه بسببي تشاجر الطالبان والمدرسة كلها أضحت تتكلم عني وعن المعجبين الذين أصبح هدفهم التقاتل لظفر بست الحسن، وأصبحت قبلتهم عوض الدراسة.

وأظهر في عينيه بريق الغيرة ممزوجةً بلهجة المحب العاشق، حينها تشجع وكسر كل الحواجز وتعدى حدود المناقشات السطحية التي كانت تدور بيننا، وقدم كمجروح ناقم يوجه لي اتهاماً بأنني ألعب على أكثر من حبل حتى أستميل الشبان إلي.

هنا جن جنوني وتشاجرت معه وأمرته أن يلزم حدوده.

- افهم جيداً يا سيد يوسف أنني جئت بهدف متابعة دراستي وليس لاستمالة الشبان واللعب على الحبال كما ذكرت. كما أنك ممن يشهدون بحسن أدبي وسيرتي وخلقِي، فلا تفتعل أو تصدق كذبة أنني ممن يجذبون الشبان إليهم.

كما أنني لا أسمح ولن أسمح لك أن تطعنني في أخلاقي أنت أو أي شخص كان. إضافةً لهذا من تكون حتى تنصب نفسك ولياً علي وتتجراً لتصرخ في وجهي بأفعال لم أقم بها، وأنت تدرك جيداً من يكون ذينك الطالبان.

- ألم تفهمي لماذا أنصب نفسي ولياً عليك؟ بكل بساطة لأنني أحبك. قالها بعنف وحنان في نفس الوقت لو رأيته يا بسمه. قالها ثائراً ويائساً لم يكن في وعيه وإنما أخرج إحساساً ظن أنه سيتركه سراً ويبقيه بداخله حتى يموت هو أم يعلنه جهراً ويعيد بذلك الحياة لروحه.

ولا أستطيع وصف وقع تلك الكلمة علي يا بسمه، صحيح أنني كنت ألاحظ تصرفاته واهتمامه نحوي لكن أن يفاجئني بحبه نتيجة غيرته التي لم يستطع أن يخفيها من أول موقف حصل. هذا ما لم أكن أتوقعه - وأنت يا حياة كيف كان شعورك نحوه؟ وردة فعلك؟

(سألتها بسمه وهي متفاجئة بما سمعته).

- لا أخفيك كان إعجابي به قد وُلد وكبر مع أيام الدراسة وأنا ألاحظ هدوءه وورزاته. كان الشاب وسيماً أسمر معتدل القامة شعره أسود وسمرته زادت من وسامته ووجهه النحيف الحزين وعيناه السوداوان. ولا يزال كذلك...

من هنا بدأت حكايتنا... قبلت بحبه لكن فيما بيننا، وفي صمت دون أن نعلن لأحد، وبقيت حكايتنا تجمع أجمل المعاني ونحن نحمل سوياً في لحظتنا المسروقة القليلة أحلاماً سُطِّرت من ولدين ينتظران الكثير.

توالت الأيام ومرت الشهور وحان موعد الامتحان النهائي والجميع متشوق للعودة نهائياً لديار، إلا أنا وهو نريد أن تمر الساعة سنةً ولا نريد أن نتلفظ بكلمة العد التنازلي للرحيل وترك ذكريات تحوم كالخيال بين جدران الثانوية، لنحملها أنا وهو كأمنية في قلبينا، فأعود أنا لقرتي ويعود هو لمدينته. ويصعب الجمع بين حلمين ليتحول لواقع.

لتحين اللحظة التي لم نتمناها وهربنا منها مراراً: الفراق والوداع... بعد أن أُعلنت نتائج البكالوريا والتقيناً أمام قائمة الناجحين ولم نأبه بأسمائنا ولا بالتقدير. وإنما علقنا أعيننا ببريقين متبادلين وقلباننا بجدران صدرينا المجروحين.

تركته ورائي يبكي بصوت فضح حبنا وكتمت دمعتي في صدري لتخرج شهقات صارخة، أخذني بعيداً عن الأنظار وبقينا ننظر صامتين. أمسك يدي وقال بحرقه وصوت مبحوح:

- هل هو الوداع يا حياة أم هو فراق دون لقاء. من سأنهض من أجله عشقت الصباح ونسيمه برؤيتك، أعانق المشاجرة فقط لأنني أحاكيك

بلفظ الغيرة. ماذا سأقول؟ وما الحياة من دونك سوى فراغ وريح عاتية في الصحراء تلامس رملًا عوض الورد وأنت من كنت الورد؟

ثم أمسك بيدي مصافحًا وضغط عليها، فأحسست بألم كلامه وكأنني ذُبحْتُ وتُركَ دمي وإِديكي ويشكو الوحدة، وتفارقنا بدموع كأنها العلقم والألم. فتركنا اسمينا معلقين بباب الثانوية شاهدين على سنتين لم أستطيع أن ألخص أيامها في ساعات.

أأحكي أيام الشتاء التي جمعتنا ودفء كلامه يزيد من بهاء الليالي ومن سحر المطر وهو يلامس تراب الأرض ليكونا ذلك العطر؟ أم أقص عليك أيام الربيع وقد غير من لون وعطر الزهور بداخلي. وكنت أنا وروده داخل قلبه عوض الربيع؟ ماذا أقول وماذا؟

إلى أن سمعت بخبر انتقاله للغرب وبالضبط لمدينة «وهران» ليدرس اختصاصًا اختاره لا يُدرس إلا بجامعة الغرب، وهذا ما زاد من ألمي ورحلة فراقنا الغير منتهية.

لكنه كان يفاجئني بين الفينة والأخرى بزيارة مباغته يقطع فيها مئات الكيلومترات يراني ليوم واحد، ثم يعود أدراجه حاملاً بقلبه منديلي وأنا أحفظ برائله الوحيدة التي بقيت تواسي قلبي في ظلمة الليالي.

لكن للقدر أحكام لا نفهمها، فيوسف بدأ يتغير وفراقنا أطفأ لهيب حبي في قلبه فقلل من زيارته ورسائله، ولم يعد يرأسلني كما في

الماضي وما زاد من قلقي وحيرتي رسالته الأخيرة، وهو يطلب مني التحلي بالصبر، يحاول إقناع عائلته بالإسراع في خطبتنا، وبعدها يكون الزواج بعد الانتهاء من الدراسة لكنه لم يخبرني لحد الآن بردهم.

وهذه رسالته اليوم بعثها في سطرين يطمئن فيها علي ويبلغني بأن أصبر، لأنه ما يزال يحاول إقناع عائلته بأن تتقبل فكرة زواجنا... استلمتها حالاً، أحضرها زميل له بالجامعة، لم أستطع تمالك نفسي عندما تصفحتها ولا أفهم سر ابتعاده المفاجئ.

- والله يا حياة فاجأتني قصتك ولم أعد أستوعب، كل هذا كان مخبأً بين صفحات قلبك، وأسطره كل يوم تحفر في روحك. تعيشين قصة لا يعرفها سواك ومن أحبيته. لكن إلى متى؟

- دق حبه أبواب قلبي يا صديقتي. ترددت في فتح الباب، لكن عندما فتحته. آه لا أعرف النهاية وهل سأندم على اختياري أم ستستقبلني السعادة فاتحةً ذراعيها.

- اتركي حكايتك للأيام يا حياة هي من ستكملها كما بدأنها. وجلست الشابتان تنظران للسماء تنتظران تحقق الأحلام أم ستبقى مجرد أوهام مؤجلة لأجل غير مسمى.

تعاقبت الشهور...

لم تعد زليخة تلك المرأة الكتومة الغريبة الأطوار المتجهمة الوجه،
والتي تربطها ببسمة علاقة الرئيس بمرؤوسه. وهي من كانت تعيش في
الطابق العلوي وترسم تلك الحدود بينها وبين تلك المسكينتين.

لقد كسرت تلك العارضتين ووجدت بسمة محلها من الإعراب،
وأصبحت الأمر الناهي في المكتبة ومن تدير شؤونها، كما أضحت
ملكة المنزل وزليخة تنظر إليها بعيني الرضا والسعادة التي فارقت
مقلتيها منذ زمن؛ فأرجعت بريقهما من جديد، وحولت أيامها من شقاء
ووحدة إلى فرح وتلاق لم تحلم بهما يوماً...

ونعيمة ترافقها وتلازمها أينما ذهبت تحكي لزليخة ذكرياتها حتى
وإن لم تستطع محاورتها ومناقشتها، لكنها كانت تجد متعة في ذلك
وكانهما شقيقتان.

وكان الزمان يعوض سنين الجمر والقهر التي عانتهما نعيمة،
ويمنحها السند في مدينة جمعت كل الأجناس والمعتقدات عقب
حرب لا تزال راسخة في الأذهان ولم ينفذ غبارها بعد عن أبنائها.

في إحدى الليالي وبينما الثلاثة جالسات يتسامرن أمام المدفئة
تحتضنهن نسائم الشتاء القاسية وهي تطرق أبواب المدينة الصاخبة

نهارًا والحالمة ليلاً. وبسمة تحضر بحثًا كُلفت به من طرف أستاذ مادة القانون المدني. أما زليخة فكانت تتأمل نعيمة وهي تتفنن بأناملها في حياكة سترة صوفية، وقررت كسر جدار الصمت مفاجئةً الشابة بسؤالها.

- ألا تظنين أن حالة والدتك فيها أمل وغير ميؤوس منها، أقصد بخصوص النطق؟

كانت كلماتها وكأنها زلزال هز الاثنتين. وبقيت تنظران إليها حائرتين.

- ماذا تقصدين بكلامك يا خالتي؟

- قصدي واضح، أظن أن والدتك لم يعاينها طبيب مختص، ولم تُعرض حالتها على من يتابعها بشكل صحيح ومنتظم. لذا قررت أن أتكفل بحالتها إذا أراد الله لها الشفاء لتكون سببًا في ذلك، وبهذا أسمع صوت أختي نعيمة، ونصبح نتشاجر ونتسامر ونتناقش.

ولا أخفيك كما أنني نويت بعدها أن أهدي أمك عمرةً تذهب رفقتي، أعتمر لي وعن زوجي «إسماعيل» وأبي وأمي رحم الله أرواحهم الطاهرة. كان حلمًا بالنسبة لي وكنت أؤجله كل مرة ولم أعرف السبب لكن اليوم فهمت حكمة الله، وسبب تأخري هو لقاءكم حتى أعتمر رفقة أختي نعيمة.

وفي المقابل كان جواب بسمه ووالدتها الصمت ودموع تروي فرحة لم تصدقها. وما هي إلا لحظة حتى ارتمت بسمه في حضن زليخة لأول مرة دون أن تعي ما فعلت، تبكي وتروي شكرها وامتنانها. وقد عوض الله أيام حرمانهما ووحدتهما بسيدة جعلت من نعيمة المسكينة أختاً لها ومن بسمه ابنتها التي لم يلد لها رحمها.

- لا توجد عبارات أقولها ولو قلتها لن تكفي ولن توفيك حقك، ظننا للحظة أنا ووالدتي أن شقاءنا سيستمر.

وقدرنا يخفي آهات لن تتوقف إلا بتوقف الزمن. حلمنا بعائلة تضمنا وأشخاص نقلق عليهم ويحبوننا. وزادت الغربة من همنا ونحن بين مخالب مدينة لا نعرف عنها شيئاً سوى اسمها الذي كان يزلزل كل شخص «العاصمة».

قرويتان قدمتا من أقصى الريف ومن جبالها، أم مسكينة حتم عليها حلم ابنتها ترك أرضها ومقاطعة نسيم الصباح الذي كان يملأ رئتيها، وهي الفلاحة التي تتنفس هواء جبالها الذي يعطيها دعماً لتعيل نفسها وابنتها على العيش، كما أنها صنعت الاستثناء بتعليمي دون بنات قريتي رغم كل الظلم والقهر الذين تلقتهما.

وظننت أنني سأبقى أعاتب الألم وأمي ترافقني وتجنّي العذاب والأسى. وما زاد من يأسى أنه وبسببي أضحت والدتي خرساء عرجاء فلم

أعد أطيق الفرحة ولو طرقت بابي، أرفض أن أفتح لها ذراعي وأحتضنها،
ففرحتي كانت أمني وأنا ألبستها الألم وأخرستها عوض أن أكافئها.

كانت تحكي ودموعها تسبقها كأنها انتظرت هذه الفرصة حتى
تخرج تلك الدموع الحبيسة في صدرها المنقبض، أخرجتها بحرقة
تقص أيامها المرة وجروحها التي انفتحت على أيام قاست فيها لوعة
الفراق والبعد، وهي تترك والدتها في كل مرة وحيدة. تعاند قسوة الزمن
حتى تلقب بالطالبة الجامعية.

والنتيجة عذاب امرأة عانت الويلات وهي تحارب صفحات الأيام في
كتاب عمرها الحزين. وتبحث بين كلماته عن معنى السعادة الذي بقي لغزاً.

بعد مرور عامين: ١٩٨٤...

كانت فتاة شقراء حادة العينين رشيقة الجسم قدمت من قرية
حياة صديقة طفولتها، من بين الفتيات الطموحات تدرس اختصاص
بيولوجيا...

«جزائر» هكذا تُدعى. سماها والدها حباً لوطنه وعشقاً وتيمناً
بالثورة، فقرر بعد ولادتها أن يتبنى اسم الوطن لابنته فكانت هذه
الأخيرة فخورةً باسمها أينما ذهبت...

رغم دراستها العلمية إلا أن ميولها كان أدبيًا... كانت طالبةً نشيطةً طموحةً تحمل روح الفكاهة داخلها، وأحد أعضاء الاتحاد الطلابي في الجامعة، حيث تعرفت عليها من خلال حياة، وكونا نحن الثلاثة شلةً نسينا بها همومنا وغربتنا وتوطدت علاقتنا فصرنا لا نفترق أبدًا.

واصلت بسمة وهي تكمل في الليلة التالية وبشكل منتظم ملء صفحات مذكرتها التي أصبحت بدورها تنتظر إكمال تلك الأحداث متشوقةً لمعرفة نهايتها، وهي تنصت لقلم بسمة الحزين وصاحبته، فمع كل كلمة تطلق تنهيدةً طويلةً بها تحكي ماضيها الذي أبى تركها حتى ترسخه في أوراق تبقى شاهدةً على كل ما جرى لها...

ونظرت مرةً أخرى عبر النافذة تعانق ذكريات السنوات الماضية والقلم يلامس أناملها الناعمة.

- والله يا عزيزتي لا أعرف لما أنا منخرطة في الاتحاد أبدي أفكارًا اشتراكية وأدافع عنها وأتحمس لها، وكأنني سأعتلي كرسي الحكم. أفكر في الاعتزال والتفرغ لدراستي أحسن.

- من رأيي أن تتوقفي أحسن يا جزائر، يكفي أن والدك سماك تيمنا وفرحةً بالاستقلال، فاسمك وحده كفاح ونضال ما بعد الثورة، وعوض

الركض وراء أفكار الاتحاد ابحتي لك عن زوج أحسن، وكوني معه الاتحاد الأسري.

وأطلق الثلاثة ضحكةً عاليةً، وكعاداتها حياة ممازحة جزائر فقد كانتا كالقط والفأر. أما بسمة وبفضل زليخة فقد اندمجت في عالم الجامعة وأصبحت لا تقلق على أمها ولا على زليخة اللتين أضحتا كجسد واحد، تتراقبان في كل شيء، وزليخة تتابع علاج نعيمة عليها تُشْفَى لتعيد لها صوتها وأمل يرافقه.

وبعد المحاضرات تلتحق بسمة مباشرةً بالمكتبة لتدير شؤونها، فهي الأمر النهائي هناك وقد أهدتها زليخة الضوء الأخضر في التصرف والمتابعة.

- لا أعرف يا بسمة، لكن الحياة قاسية على كل واحد منا لكن بشكل مختلف فالسعادة لا تطرق بابنا إلا وهي تحمل تحت إبطها الحزن والألم فكل واحد عنده هموم لا تتركنا حتى آخر يوم في حياتنا.
- لكن لما تقولين هذا يا جزائر؟

كانت البنتان جالستان وقد تركتهما حياة التي ذهبت متشوقةً لرؤية يوسف الذي طال غيابه عنها مدة ثلاثة أشهر كاملة.

- آه يا بسمة لست أنتِ فقط من عانيت مرارة العيش وقسوة أيامها، فأنا عانيت الأمرين وصاحبت ليالٍ حالكة شاهدة على عذابي وأنا أحلم بفجر مشرق يشع بنوره الخافت على عائلي، لكن...

قصتي تعرفها حياة جيداً، وأنا اليوم أتجرع آثارها الملتصقة بروحي
المبعثرة بين عتبات السنين.

كانت جزائر تقص لبسمة حكايتها، نسيا العالم وغاصتا في همومهما
فبعد أن روت بسمة لجزائر تفاصيل أيامها وسبب قدومها للعاصمة.
لتجد الأخرى فرصتها وتمنح لروحها استراحة ألم أخرى تختصر فيها
تنهيدات العمر الطويل.

- عندما تعتنقين مسؤولية عائلة وأنت تحتاجين لأن تكوني تحت
المسؤولية، وعندما تُجبرين على اتخاذ القرارات عوض أن يُتخذ
بشأنك القرار. وحين تقفزين من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب أو
مرحلة الكهولة وأنت في ريعان شبابك...

كل هذا عشته يا بسمة ووالداي قد تناسيا مسؤوليتهما اتجاهنا،
وعوضاه بعناد ومصارعة يتنافسان على من سيكون الفائز في الجولة
الأخيرة، ولا يهمهما الحكم أو مصير صغارهما، وإنما كبرياء أمي كان
طفلها وشموخ والدي هو الأهم.

تزوجا والداي كما يدعيان كلاهما عن حب وحاربا العالم لأجل أن
يختبئا تحت سقف واحد.

لكن سنوات الزواج وروتينها ومرارتها على حد قول الاثنين منعتهما
من رؤية مصير أطفالهما. لكن عنادهما من كان سبباً في تدميري أنا
وأخوي خاصة أنا.

لم تعرف أُمِّي يوماً معنى كلمة تضحية ولم تتنازل يوماً عن كرامتها لأجلنا لأنها كانت غائبةً عن قاموسها تلك الكلمة الحاضرة في قاموس كل أم، لأن أبي كان صعب المراس لا يعجبه العجب، كثير التذمر شعاره الصراخ والمشاجرة مع والدتي التي كان شعارها أيضاً عدم المساس بكرامتها ففضلتها على شعار الأمومة.

كانت وفي كل شجار ترحل لبيت جدي وتقضي هناك شهوراً. تتركني أزواج بين الأدوار كنت الزوجة لأبي في قضاء حاجياته المنزلية وطلباته من أكل وغسل وتنظيف والأم لإخوتي أحاول إكمال النقص الذي تركته أُمِّي في قلوبهم البريئة.

أنظر لجاراتي وهن يضحين بحياتهن وسعادهن في سبيل فلذات أكبادهن. وأكثر ما كان يقتلني ويجعلني أحتضر ببطء الحزن والألم وأنا أفارق البسمة أيام الأعياد والأمهات نستعد لكسوة أولادهن، يتدللن على آبائهم، أما أنا أرافق أخوي وعمري لم أتجاوز الرابعة عشر، أبحث عن أُمِّي بين الوجوه لكن لا أجدها، ووالدي يصرخ يعايرنا بأمناء، وأن هذا دورها وليس هو من يجب عليه تحمل كل المسؤوليات...

ليتحول ذلك العيد إلى ألم، ولم نعرف معناه نود فقط لو يرحل عكس أترابنا لأننا نعيش فيه أنعس أيامنا عوض أن تكون العكس.

توالت السنوات ونحن على نفس المنوال وأمي تغضب وترجع وأيامها بيننا تُحسب على الأصابع. عهدنا غيابها وأصبحنا يتامى وهي حية تُرزق.

وخلال هذه السنوات الأخيرة وبعدما تُوفيت جدتي وكأن شيئاً هز كبرياء وكرامة أُمي، فأصبحت قليلة الغضب وأبي قلل من ثوراته اللامتناهية بعد أن سرقت السنوات حلم طفولتي والليالي اغتصبت ما يكفي من دموعي، ووسادتي أنبتت أزهاراً بلون الرماد، ولم أعد أستطعم معنى الأمومة أو الأبوة وعهدت العيش وحيدة في كهوف العزلة بين مخالفات الخوف والحرمان.

ولعلمك فوالدتي كانت موظفة تعمل كممرضة لكنها نسيت واجبها اتجاه أبنائها، وعمدت لتمرير الآخرين فتركت جروحنا بعد أن حفرت ونحتت في أرواحنا فأضحت نقشاً لا تمحوه لا الأيام ولا الأحلام المزيفة.

- لم تذرف جزائر دموعاً من مقلتيها يا أُمي، تدركين معنى أن تفقدي حناناً وُلدت للاستمتاع به يا خالتي زليخة، أحسست أنها تخفي صيحة سخط وثأر من نفسها تريد تفجيرها.

تبكي لحظات بسيطة حُرِّمت منها كانت من البديهيّات في حياة أقرانها أما هي فكانت حلمًا بالنسبة لها أن ترافق والديها الذين عاشا حياتهما بأكملها متخاصمين متباعدين...

ودفع نتيجة نفورهما وتباعدهما جزائر وشقيقيها، فكان عنوان حياتهما الشتات والتشرد تحت سقف لم يعرف كلمة حماية وحضن الأب وحنان وإحساس الأم المقدس الذي خلقه الله فيها، فحُرِّمت منه جزائر وبقيت حرقاً ألْهَبَتْ صدرها المجروح...

وقد نزف كل المشاعر الحلوة وأصبح فارغاً لا يملأه سوى الحزن. ومع ذلك فهي تخفيه بابتسامة لا تفارق شفاهها لكن بروح عارية مفتقدة لأسمى معاني الإحساس. إحساس طفل يتدلل على والدته. تستر وراء ضحكة وروح مرحة رائعة كلها حنان وعطاء. صحيح أنها فقدت شيئاً لكنها أعطت بالمقابل ما فقدته لكل من حولها رغم حرمانها.

- إذن يا عزيزتي فنعيمة كانت الاستثناء عن كل الأمهات، صحيح تحدثت العالم وهي الأمية وولدت ابنةً متعلّمةً رائعةً بعد أن قدمت لك كل شيء من دعم معنوي ومادي وكأنها المتعلّمة الواعية فهي فخر لك والنتيجة أمامي كتلة من الإحساس والتربية واللباقة والجمال هنيئاً لكم ببعضكما. حينها قامت بسمة من مكانها وخفضت رأسها مقبلةً يدي نعيمة. مجيبةً عن سؤال زليخة التي بقيت تنظر مبتسمةً وعيونها تفيض دمعاً من

ذلك المنظر ومن خيانة رحمها الذي لم يهداها طفلاً كما أهدها لكثير من الأمهات.

وسرعان ما انتبهت بسمة لها فقبلت رأسها، ولم تكن زليخة لتنتظر منها هذه اللفتة التي فجرت في داخلها إحساساً وُلِدَ لأول مرة، ولم تستطع تمالك تلك الدموع الهادئة، فمزجتها ببكاء فرحة وحزن في نفس الوقت وهي تحضن بسمة ونعيمة تجيب بدموع منهمرة.

عام ١٩٨٦...

أنهت رحلتي الجامعية. أربع سنوات مرت كأنها خطوط رُسمت بين ثنايا صفحات العمر، زليخة تلك المرأة الرائعة قدمت كل ما تملكه لي ولوالدي وعوضتنا تهميش أهل القرية التي كنا نعيش فيها.

ففي الصيف المنصرم قررنا الذهاب لقرية «أولاد عسكر» بعد غياب أربع سنوات. واصطحبنا زليخة معنا، أيام مرت كحلم تمازجت فيه آمنيات زليخة بالعيش البسيط وكرم أهل القرية الطيبين وعادت نعيمة لتحضن ماضيها المدفون بين جدران قصرها الصغير...

دموع غلبتها وهي تدخل أول مرة للمنزل بعد غياب طويل كأنها دخلته عروساً عندما رُفَّت لمراد. هذا الذي باغته قطار العمر فرحل

سريعاً لمحطة يكون الذهاب فيها دون رجعة. وتركها تكمل رحلته تتنقل بين المحطات حتى ينتهي بها المطاف لمدينة لم تتوقع يوماً زيارتها. ولا يزال القدر يصنع قراراته ونحن ننفذ دون إرادة.

أما عقيلة فكانت فرحتها أكبر من الصدمة وهي ترى إقبال نعيمة وبسمة عليها وقد تغيرت ملامحهما حتى لباسهما، وغطت على بسمة روح التمدن وعقلية طلاب الجامعة، فأضحت زهرة تفتحت وانطلقت لعالم آخر. تحولت لامرأة صغيرة يطمع فيها كل شاب.

وكم كانت لحظة اللقاء مؤثرة ودموع الجارتين تتطاير لتسقي أرضاً جمعتهما على الحلو والمر، وهما تبكيان فرحة اللقاء بعد غياب أربع سنوات، حين كانت عقيلة منشغلةً تحمل منجلها كالعادة، وتحصد ما أنتجت أرضها.

فجأةً وجدت نعيمة أمامها كأنها طيف تعبر عن لقاءها بقبلات حارة جمعت الصمت وحزن السنين في حضرة اللقاء الرائع. أما بسمة تشرح ذلك المنظر بدموع غزيرة تركت داخل روحها نبض قريتها، رحلت للمدينة واليوم تسترجع تلك الدقات وقد انتفضت بعدما استنشقت النسيم العليل وأنصت لتغريد طائر السنونو وترحيب النهر بخيريه.

بعد مرور شهرين في القرية.

زليخة والكون لم يسع فرحتها وهي تحضن الطبيعة بنظراتها،
وتمرغت في أرض طالما حلمت بخضرتها، وعانقت خيوط الشمس
وهي خجولة تفارق السماء لتترك الليل يسامر نجومه وهو يحرسنا.

أيام سُرقت من العمر وبسمة تتأهب مرتديةً تنورتها والفأس حبيس
قبضتها، تتذكر منذ سنين خلت خطوط هذه الأرض التي رسمت
بأناملها وكتابات الصداقة البريئة المنقوشة على أشجار التين والزيتون،
ونبع الماء المتفجر من الجبال يشهد قصصها...

لقاء طال والفراق دام أربع سنوات... جلست تتسامر مع جريان
النهر تحدثه وتتخيله يرد الجواب، كما كانت أيام طفولتها فهو صديقها
الوحيد رغم أنه من سرق أحلامها حين أخذ والدها. لكنها جعلت منه
حارسًا لأسرارها وحزنها.

كان الحوار وكأنه شعر يُرتل أو لحن تعزفه أوتار الماضي الحزين
وتشاركهما الطبيعة وبسمة تتحدث بصوتها الهادئ:

- تذكر يا صديقي. الصغر وطفولتنا؟

- تحنين يا عزيزتي. للماضي وأيامنا؟

- واشتياقك يا رفيقي. للمروج وأحلامنا؟... ننام ونغط في النوم
دون كوابيس ونستيقظ على مداعبة النسيم بلا جواسيس. كنا صغارًا

نأكل من أرضنا الخصبة ونمشي فوق تربتنا حفاةً، ونرتوي منك يا نهر وأنت المغرد ونسبح فيك عراةً.

آه. وأمام كوخنا نكمل قصتنا وأيادينا تحمل الأزهار، جالسين نودع خصلات الشمس وهي تعدنا بالرجوع قبل طلوع النهار.

كن يتناولن العشاء تحت نور القمر في فناء المنزل على الحصيرة مبهتجات سعيدات وكأنهما ملكتين وبسمة الأميرة بينهما. وفيما النسوة كذلك يتجاذبن أطراف الحديث حول المائدة إذ بزليخة تفاجئهما بقولها ودون سابق إنذار:

- لقد قررت يا بسمة بعد تفكير طويل بأن أتخذ بعض القرارات وأظن أن وقتها قد آن ولا داعي للمماطلة... المهم يا عزيزتي؛ أريد أن تلبني لي طلبتي وسيكون الأول والأخير؟

- خالتي ما بك اليوم؟ أنت تأمرين. ودائماً سأبقى طوع أو أمرك.

- في حقيقة الأمر مجيئكم إلى هنا سبب لي ارتباكاً في الأول. لكن الأيام أثبتت أن خوفي كان مجرد تخمين مزيف لعدم ثقتي بالجميع. فلقد أرملت تعيش وحدها في بيت كهذا وتملك مكتبةً مثل هذه تغري الكثيرين... رفضت الزواج وبقيت معتنقةً لذكرى زوجي. حاربت على إكمال ما حلم به لكن للعمر أحكامه أتعبتني الوحدة وثقل الأيام وسنوات

العزلة والخوف وفقدت معنى الثقة حتى في نفسي، لكن الله عوضني
بقدومكما والعمر لا يضمّنه أحد سوى الله.

بعد أن أحجمت بسمّة عن الكلام للحظة قالت:

- أقبل بكل ما تطلبينه، والله يعلم مدى حبي وامتناني لك يا خالتي.

- رجائي أن تنصتي إلي أنت ونعيمة وتعيّا ما سأقوله جيّدًا.

وجدت نفسي وحيدةً، وحلمي أنا وزوجي هو أن تبقى هذه المكتبة
في خدمة كل الطلاب للأبد. ولكن الله لم يرزقنا ولدًا وبقينا وحيدين
خائفين خاصةً وأن ابن عمه قد أصر على أخذ ملك ليس ملكه، لكن لله
حكمة في كل شيء.

بالمختصر أود أن أبيعك المنزل والمحل المجاور له ليكون مكتبًا
للمحاماة خاصتك، وأدرك أنه حلم حياتك، أما المكتبة فستكون
منفصلةً عنهما، وأحولها لوقف في خدمة الطلاب تبقى لأبد الآبدين،
وبذلك تكونين الحارسة على كل شيء المحققة لحلمي وزوجي
وتكملين رسالتك ورسالتي. ما رأيك يا حبيبتي؟

تلاشت العبارات أمام ما قاسته الثلاثة من ألم، كان قرارًا مصيريًا
اختصر خطوات كبيرة، وبسمّة تودع عالم الجامعة لتهدّي لها زليخة
مكتبًا ومنزلًا حلم به كل أقرانها، وهي اليوم تعوض يتمها بدخولها

الحرم الجامعي وبيت زليخة لتقطف ثمار عذابها. فاكهة حلوة لكنها من أشجار العلقم.

رفضت بسمة بشدة هذا العرض وأنها تتلثم في الكلام توافقها الرأي، لكن زليخة تمسكت بقرارها وكانت عند موقفها واختتمت الليلة بدموع وتشكرات، والاستعداد لعام آخر تكون فيه بسمة ناضجةً مسؤولةً عن أمانة ثقيلة حملت بها.

هي التي ظنت أنها ستعود لقريتها وتختبئ وراء أشجارها وتعيش فوق خضرة أرضها لا تعرف ما مصيرها وهل سيتحقق حلمها المستحيل المخفي وراء قضبان الواقع المرير، لكن زليخة كانت تخفي مفاجأة لم تكن الاثنتان تنتظرانها...

واليوم هي تجني سنوات عذابها نجاحًا لا يُقاس ولا يضاهيه نجاح، وستُلقب بالمحامية في مدينة البحر الأبيض المتوسط وتدخل عالم الشغل من أبوابه الواسعة.



(٧)

بعد مرور عامين ١٩٨٨...

أن تكون على كرسي وراء مكتب ليس تشريفًا وإنما تكليف وأنت تتلقى أولى القضايا، ويرتبط مصير من يقصدك بمدى شطارتك في طرح القضية، وربحها ليس بالأمر الهين.

وأن تنجح بمرتبة امتياز مع مرتبة الشرف وتُختار تلقائيًا من لجنة الجامعة لتلتحق بصفوف طلاب الماجستير هو أكبر شرف. وأنت من كنت تُلقَّبَ بالقروية المسكينة التي لا تتعدى أحلامها زرع الخضر وجنيها لتكلمي معها مسيرة البذر والحصد وإنجاب الأطفال والبقاء تحت جناح الحماية.

نجاح كان أكبر من الحلم ذاته ونعيمة تعانق دموع الفرح والكبرياء يعلو جبينها. أما زليخة ففساند بسمه وقد أهدتها مملكتها وجعلت منها ابنتها التي لم يهديه لها رحمها كما كانت تقول دائمًا.

تستهل أولى خطواتها بثوبها الأسود. ثوب المحاماة هدية من زليخة التي أثقلت كاهل بسمه بفضلها. كما كانت دائمًا والتي أصبحت مالكة

هذا المنزل المتصرفه فيه بعد أن باعته لها زليخة بعقد موثق، أما المكتبة فوُضعت كوقف لخدمة الطلاب.

أثقلت الأمانة كاهل بسمة تحاول التوفيق بين دراستها والبدء في أولى خطواتها نحو عالم المحاماة مبحرةً فيه ومراقبةً لأعمال المكتبة كما كانت زليخة تفعل، والتي بدأت بوادر المرض والكبر تظهر جلياً بين تقاسيم وجهها المجعد.

اليوم كان مزدحمًا بالأشغال وبسمة تقف على ترتيب الكتب تزامناً مع السنة الجامعية، غارقةً في ترتيب كل الكتب في المدرجات حسب الاختصاص. برفقة حياة وجزائر صديقتي الدراسة والعمر، فحياة أضحت صحفيةً بجريدة معروفة، وتخصصت في السياسة وأكملت دراستها واختارت القانون الدستوري.

أما جزائر فكانت مخبريةً بمستشفى «مصطفى باشا» بالجزائر العاصمة تعتبره منزلها الدائم بين المرضى وأستاذةً مساعدةً بالجامعة كذلك، وسمير برفقتهم.

فلقاءاتهم المستمرة في بيت زليخة هذه التي أضحت تعشق تلك الورود بينها كما تسميهم زادت من ربط أواصر المحبة بينهم فأخفوا أسرارهن في صندوق واحد وأغلقن عليه.

بينما الفتيات مشغولات إذ بشخص غريب يدخل المكتبة دون استئذان على الرغم من أن بابها كان موصداً قليلاً دليل على أنها ليست في الخدمة.

— السلام عليكم يا شباب.

كان شاباً طويلاً أسمر البشر ممتلئ الجسم، عيناه واسعتان كأنهما البحر وحاجباه كثيفان أسودان زاداً من وسامته، وقف ينظر ويتأمل ولم يعر اهتماماً لأحد وبقي يتفحص بعينه الجاحظتين الكتب ويدقق فيها وكأنه لوحده في المكتبة يحاكي عناوينها.

— أهلاً سيدي بماذا أخدمك؟ أظنك تبحث عن شيء محدد. مع أن المكتبة في حالة فوضى ولا نبيع حالياً كما ترى نحن ننظم العناوين الجديدة في الرفوف...

كان سمير من سألته.

نظر إليه الشاب بفوقية واضحة ورد عليه بصوت خافت.

— أبحث عن عنوان معين عن التعمير والبناء، لكن لا أظنني سأجده هنا.

— أخبرني عنه، ربما يكون متوفراً لدينا؟

— لا أظن ذلك. سأبحث في مكان آخر.

— دعه يا سمير. لن يجد ما يبحث عنه في مكتبتنا وحتى وإن وجد

طلبه فنحن لا نبيع الكتب. ردت بسملة بحزم وكأنها تتحداه.

نظر إليها باستعلاء وإعجاب وابتسامة مأكرة، ثم رحل دون أن ينظر للوراء.

- لا أفهم أي من نوع من البشر نتعامل معهم.

- لكنه جذاب عزيزتي «بسومة» لما لم تساييره وتركيه قليلاً.

- لست بمزاج جيد لخفة دمك جزائر، أو لمسايرة هذا النوع من البشر.

وتهاست الفتاتان عليها بأعينهما ضاحكتين. وواصل الجميع عملهم للتحضير لسنة جامعية جديدة، وبقي ما دون ذلك بين طيات القدر كل يوم يفتح صفحته ليحكي لنا حكايةً ويقلب الورقة ليوم آخر... وهكذا.

بعد مرور أيام.

لم تعد حياة كسابق عهدها كالفراشة تجعل من أحلامها ورود تقفز من زهرة لأخرى وهي ترسم بيتها وكأنه بستان، بيت يجمعها بيوسف وهما تجمعهما سنوات الحب لتكون الثمرة قصرهما الصغير.

- ما بالك يا حياة أراك شاردة الذهن، لا تتكلمين كالسابق ولا تمازحيننا. دائماً عينك سارحتان ذابلتان.

- لا أعرف يا جزائر، وخز بقلبي يوجعني كثيراً.

- وخز في قلبك ويوسف بقربك؟

- أين هو يوسف. يوسف القريب البعيد، لحد الآن لا أفهم موقفه وقد قلت لقاءاتنا ومكالماتنا، يعدني بالتقدم لخطبتي لكنه محتار. وحيرته سر لم أعد أفهمه.

- لا تقلقي فأنت تهولين من الموضوع. بحول الله سيكون أمرك سهلاً، ووراء كل غروب شروق، ستشرق حياتك برفقته عزيزتي، توكلي على الله فقط.

في تلك الأثناء كانت بسمه غارقةً في مكتبها. مع أنها لم تحض بقضايا مهمة أو صعبة. لكنها نالت شرف التدريس بالجامعة لنيها شهادة الماجستير. كما أنها مسؤولة عن المكتبة، أمانة أثقلت كاهلها لكن ما أتعبها هي صحة زليخة التي بقيت تندهور يوماً بعد الآخر محاولةً التخفيف عنها، ونعيمة ترافقها في صمت وتخدمها. أخت لم تلدها أمها، وابنة أهدتها لها الأيام بعد طول عذاب.

وفيما بسمه تحضر مذكراتها إذ بها تسمع طرقاً خفيفاً على الباب. همت بفتحه لأن السكرتيرة طلبت إذناً بعدم القدوم لظرف حل بها. لم تصدق ما رآته. ذلك الشاب المتعجرف الذي قدم للمكتبة منذ أيام، بقيت مسمرةً تنظر إليه.

- أدرك أنستي استغرابك. وتفاجئك بزيارتي الثانية وكما ألاحظ فهي غير مستحبة وأنا غير مرغوب بي.

- في الحقيقة ليس بيننا شيء حتى لا أرغب بقدمك، كما أنني لا أعرفك.

- بإمكانني الدخول لو سمحت؟

- آه، العفو تفضل. آسفة لم أنتبه.

بعد أن دعتة للجلوس واستضافته في مكتبها، استرسل في الكلام معلناً عن سبب مجيئه.

- صحيح في المرة السابقة كانت زيارتي عابرة، عرفت من أهل الحي أنك تقطنين وتعملين في مجال المحاماة، لذا وبعد تفكير وددت زيارتك لأستفسر عن بعض الأمور القانونية لأنني أريد أن أبتاع منزلاً هنا وأستقر في الجزائر.

- عفواً هل حضرتك مغرب؟

- كنت، وأود العودة وفتح مكتب في مجال التهيئة العمرانية فأنا مهندس معماري.

- آه جميل. هذا المجال لا يزال فتياً ومحتشماً في بلدنا خاصة بعد الاستقلال، ستجد بعض الصعوبات في بادئ الأمر لكن مع الوقت...

قاطعها قائلاً:

- جئت إليك لأنني سمعت بإرادتك وطموحك وما وصلت له رغم صغر سنك، وتمنيت أن ترفعي من معنوياتي وليس العكس.

تبسمت بسمة ولم ترد عليه.

- أدعى «مهدي» أصلي من الغرب من مدينة وهران، لكننا انتقلنا إلى العاصمة منذ سنوات، عمل والدي وجدي بفرنسا إبان الاستعمار. كانا يروحان ويجيئان كلما سمحت لهما الفرصة.

وبعد الاستقلال بحوالي ستة سنوات قرر والدي أخذنا معه لفرنسا لكن أمي رفضت الابتعاد عن الوطن خاصةً بعد الاستقلال. وبقينا أنا وأخوتي برفقتها إلى أن أتممت دراستي الثانوية والتحقت بوالدي وأكملت هناك دراستي بالجامعة بعد أن حصلت على منحة من الدولة لإتمام تخصصي الجامعي هناك.

وأنا الآن بصدد مناقشة رسالة الدكتوراه والعودة للتدريس بالجامعة تخصص هندسة، وفي نفس الوقت أنوي فتح مكتب وشراء منزل للعيش والاستقرار هنا. ولجأت إليك لإتمام معاملات البيع والشراء.

- في الحقيقة هذا من اختصاص الموثق، ومع ذلك لا بأس لي زملاء في هذا المجال، وسأرسلك لمن يساعدك وتوكله في إتمام الإجراءات.

وهم بالوقوف متحدًا لها وابتسامة واسعة ترتسم على محياه غيرت من شكله تمامًا وحدثها قائلاً:

- أشكرك أستاذة سعادتي اليوم لا توصف لأنك غيرت نظرتك عني في السابق، وزال سوء التفاهم بيننا وأنا متأكد أنني سأجد كل العناوين التي أبحث عنها عندكم والتي لم أعثر عليها، فمكتبة ابن باديس غنية عن التعريف.

ضحكت بسمة لكلامه وتفارقا بعد أن اتفقا على لقاء آخر يجمعهما ليقوم بإكمال كل إجراءاته العالقة.



تسارعت الأيام وكل في شأن، أما بسمة فولجت عالم المحاماة من أوسع أبوابه ترافق التدريس في الجامعة لتحقيق أمنية تلك المرأة القروية، لتلقب أم الدكتور.

حتى زليخة ففرحتها لا تُوصف بتلك الصحبة، وبسمة تدخل وتخرج عليهما سنوات خلقت من رفقتهم أسرةً سدت ثغرات الغربة بالنسبة لبسمة ووالدتها، وكسرت قضبان الوحدة التي سجنت زليخة خلفها لتحررها نعيمة وابتتها، وتخرج من عالم العزلة لعالم التألف، ومن الحزن لفرح سكن قلبها وهي تصنع منه مملكتها الخاصة وبسمة أميرة تُتوج على عرش قلبها.

كما أن مهدي ذلك الشاب الذي ظهر في حياة بسمه أصبح كثير التردد عليها بعد أن استقر في عمله وحياته يستشيرها في أمور قانونية. ويزور مكتبتها لاقتناء كتب يحتاجها، وتوطدت العلاقة بينهما في فترة وجيزة.

أما حياة فهي تعاند الأيام وكأنها أمواج ترتطم بها مرةً، وتعانق مياهها الساكنة مرةً أخرى محتارةً لا تعرف السبيل للوصول إلى يوسف الذي أضحى شخصاً آخر بارد المشاعر، فلم تعد أحلامهم تحملهما كما في السابق إلى بعيد، وإنما أصبحت هي من تلملم شتات تلك الأحلام عساها تخلق منها واقعاً ولو كان بسيطاً.

وجزائر ترافق أنابيب التحاليل تصاحب المرضى تعيش هي الأخرى عزلةً غريبةً لم تفهم سرها كل من بسمه وحياة، وجزائر تتظاهر بالفرح ترسم ابتسامةً خجولةً تملو شفيتها ترسم على وجهها الشاحب المصفر. أيام تتعاقب تحاكي نفسها لترسم لنا حياة هؤلاء الفتيات وهن تحمن في دوامة مغلقة، ورود تقاوم حتى لا تدبل أو تختفي ألوانها وهي تنتظر زخات المطر لتعيد لها الحياة. فيزداد جمالها بقطرة الندى الساقطة بين أوراقها.



توطدت العلاقة بين الشابين دون سابق إنذار وأضحت لقاءاتهما متكررةً، فمهدي الذي أصبح كثير التردد على المكتبة يشتري كتباً

ويطلب عناوين أخرى، يحاول في كل مرة أن يكون في المكتبة تزامناً مع وجود بسمه وهذا ما لاحظته الجميع.

بسمه التي أصبحت تجد حرجاً في زيارته المتكررة ولم تجد لها تفسيراً، أو بالأحرى تحاول التهرب من التفسير الواضح الذي أصبحت شبه متأكدة منه، لكنها لم تجد الوسيلة أو ما تقوله حتى تبعده وتطلب منه تخفيف زيارته الكثيرة.

- في الحقيقة كنت أنتظر أنسة بسمه ولم أجدك في المكتب لذا قدمت إلى هنا والأمر طارئ من فضلك.

- حسناً أستاذ مهدي لكن، ألا تستطيع تأجيل الموضوع للغد إنها الخامسة؟

ونظرت للساعة بحرج وهي تتأمل سمير بطرف عينها وقد لاحظت مراقبته لها واستغرابه في نفس الوقت. ثم صمتت قليلاً واستطردت قائلة:

- على العموم إذا كان الأمر مستعجلاً تفضل نتكلم هنا. وأخذته إلى مكتب في الزاوية وجلسا بعيدين عن الأنظار.

- في الحقيقة الأمر شخصي قليلاً ولا أعرف من أين أبدأ.

- قضية؟ تقصد استشارة في قضية خاصة؟

- تستطيعين قول ذلك. كما تعلمين عشت في فرنسا وحيداً، وبعدها رجعت إلى الوطن لأجد عائلتي كلها تفرقت بعد موت والدتي وحتى

والدي خطفه الموت وهو بين مخالب الغربة بقي متشوقاً للوطن لكن حكم القدر دائماً أقوى...

بعدهما يمكن القول أنني بقيت وحيداً فأخوتي كل واحد منهم أسس حياته الخاصة. لذا وبعد تفكير طويل قررت أنا أيضاً أن أسس حياتي الخاصة وأستقر نهائياً هنا.

— لكنني فهمت منك أنك تنوي العودة لفرنسا لإتمام دراستك؟

— صحيح أنستي لكن كان ذلك في السابق قبل أن ألتقي بك.

كلماته كانت كشمس حارة أحرقت وجنتي بسمة التي كانت تشك في الأمر لكن أن يصارحها بهذه السرعة. هذا ما لم تتوقعه وما كان منها سوى الصمت.

— أدرك أنها مفاجأة بالنسبة لك أو على الأقل كنت تشكين في الأمر، لكن معرفتي بك خلال هذه المدة جعلتني متأكداً من احترامي وإعجابي وتقديري لشخصك وهذا ما ولد بداخلي شيئاً أكبر مني لم أعرفه سوى معك...

لهذا وباختصار أنا أنوي التقدم لخطبتك بسمة، وأتمنى أن توافقي، خذي وقتك وأنا هنا بانتظارك، ولن أمل، فقط أتمنى موافقتك.

ثم ودعها على أمل أن يلتقي بها حاملّة بجعبتها ما يثلج صدره.

كانت ليلةً غير كل الليالي. وبسمة تتقاسم سهرتها كعادتها رفقة زليخة ونعيمة، تنصت لحديث زليخة لكن قلبها يعيد ترجمة ما قاله مهدي. تنظر إليها لكن عينها معلقتان بخياله، فهي التي لم تنس يوماً قرويتها والريف الذي قدمت منه...

فحلمها كان محصوراً في نجاحها والذي طالما استبعدت تحقيقه لكن أن تنجح في عملها ودراستها بعد أن وضع القدر زليخة في طريقها وبعدها يتقدم لخطبتها شاب كمهدي، وهي التي لم تعرف معنى هذه الكلمة أو لم تدخلها أصلاً في قاموسها، أما اليوم فهي تحاول شرحها وقد زُرعت بقلبها دون فهم معناها...

أتراه مجرد إعجاب؟ أو الحب الذي طالما روت عنه حياة ولم تفهمه بسمة سوى اليوم؟ لأنها ربما ستعيشه أو تربع بين ضلوعها بعدما دخل من بابه الواسع.

لتأخذ الأيام منعرجاً آخر ويداعب الربيع بنسائمه أشجار الياسمين وهي ترسل بعقبها رائحةً زكيةً، فيسحر بها العشاق والمحبين وتتناغم في صدورهم كلحن شجي.

هكذا كان حال بسمة وهي ترافق يومياً كلمات مهدي الذي أضحى يرسلها لها تلقائياً، يتركها في مغلف على أساس أنها أوراق عمل. لتجدها كل مساء في المكتبة يقدمها لها سمير.

كانت أشعارًا وكلمات تتناغم كل ليلة على أوتار قلبها الذي عانى من صراخ العذاب، واليوم تجد إنسانًا يقدم لها قلبه ونفسه دون سابق إنذار، عانقت هي تلك الكلمات التي أضحت كالهواء والماء لا تنام إلا بعد أن تعيد قراءتها.

لكن هذه المرة كانت كلمات مهدي مختلفة في رسالته الأخيرة. انغمست كسهم في صدرها البريء وهو يحاور قلبها قائلاً:

«كمان أحمله أم يحمل آهاتي، ووردة زرعتها فأهدتني جنةً بين صفحاتي لأقول لك: أجمل وأروع لقاء عندي فيه ألف حكاية، وصفحاتها جمعت بالسرد بيني وبينك وجمعنا بقلبين ما تسمى الرواية. وكأنك مولود جديد سميتَه حبًّا، عشقًا بل هيامًا. تعرفين لماذا؟ لأن نسמת الربيع تداولته وأوراق الخريف احتضنته. ماض أنت عشته لأنك خيالي، وحاضري، ظليت أبحث عنه لأنك بداخلي، وما حلمت به كنت أنت لأنك مستقبلي».

وبعدها أنهى خاطرته قائلاً: «وأتمنى أن ألقى الرد يا بسمة فقد سئمت ومل صبري، وقد أدرك قلبي مدى حبه وعشقه لقلبك الرائع فإما تقبلين وأجد المستقر في وطني وفي قلبك. وإما ترفضين ولن يعود لي مكان هنا سوى الرحيل...»

لن أتحمل أن أعيش أنا ومن أحب تحت سقف وطن واحد لا يجمعنا سوى سمائه. فما أحلم به أكبر من ذلك وهو أن يجمعنا سقف بيت صغير لا يراك فيه غيري ولا يتغزل بجمالك سواي. فإني خيرتك يا بسمه فاختاري وخيارك سيكون جنتي أو ناري».

وبعد عباراته هذه قررت إخبار زليخة ووالدتها لأن قلبها أصبح يصرخ وتخاف أن يفضحها يوماً.

كانت جلست مصارحة وعقدت بسمه العزم على البوح بمكنونات صدرها التي خنقتها محاولة كل يوم تجاهلها، لكن إعجابها به واهتمامه الزائد ورسائله، تعاملاته وخلق الأعذار لرؤيتها جعلها تهتم لأمره وتعتاد رؤيته أو على الأقل تتصفح ما يبعث لها من كلمات.

تحول الإعجاب لحب وهو شعور لم يسكن روحها يوماً، لكنه دخل وتسلسل ليستقر بين ضلوعها التي ارتوت من العذاب والتعب والوحدة.

- ما رأيك يا أمي بما قلته؟ وأنت يا خالتي زليخة؟ قصتي مع مهدي حدثت سريعاً لا أعرف كيف ومتى. وحتى أنني أستغرب جرأتي ووقاحتي وأنا أخبركم بالقصة لكنه ألح علي وطلب ردي وفي حالة قبولي سيأتي ليطلبني منكم.

قالتها بسمه ولون وجهها قد كسته حمرة الخجل وانطبعت على عينيها لغة الحياء وتحولت لطفلة صغيرة تخبر والديها بأمر ولا تعرف ردة فعلهما.

- لا أعتبرها وقاحةً يا حبيبتى، فأنت صبية جميلة متخلقة ومتعلمة ألف شاب يتمناك. استغربت حكايتك وكيف أنها مرت بسرعة، لكن إذا كان هذا الشاب مميزاً فلا مانع عندي.

واستدارت لنعيمة تسألها لكن عبرتها المنهمرة؛ أجابت عنها وهي الخرساء، أم ضحت لتسمع خبر خطبة ابنتها التي ستُزَف في مدينة لم تحلم يوماً بزيارتها، لكن القدر غير انتماءهما.

- لكن يا عزيزتي يجب أن نسأل عنه أليس كذلك؟

- الأمر يعود إليك يا خالتي؟ أنت من تقررين.

أجابت وهي تغرس عينيها في الأرض ولون وجهها تكسوه حمرة الخجل والفرح في آن واحد.

أضحت تلك المذكرة صديقة بسمه الوفية وهي تذكرها بسنين خلت. فأوراقها تداعب حبر قلمها؛ تنقش بين طياتها أياماً أبت أن تفارقها بالرغم من أنها أصبحت تلك الأستاذة الجامعية الموقرة بين زملائها والمحامية البارعة وهي تعالج قضايا أناس كانت يوماً من الأيام جزءاً منها.

اتكأت بسمه على كرسيها وراء مكتبها وأسندت رأسها للوراء تنظر للسقف، يستوقفها الزمن الجلابد وهي من كانت ضحيته وأمها كذلك.

لكنها وهي تسترجع تلك الأيام توقفت عن الكتابة عوضتها بدمعة سقطت من زاوية عينها لتمر على خذها وتسقط على كفها وقد تذكرت أَلَمًا آخر من آلام العمر. وهي من استعارت فرحةً مؤقتةً لتعيدها وتسترجع الوجود.

وماهي إلا لحظات حتى رن هاتف المنزل فانتفضت وفزعت وجعلها تستفيق من أَلَمها.

- ألو، نعم.

- أين أنت؟ وأين أجلك سيدتي؟ أسبوع كامل لا أراك فيه ولا أسمع عنك خبراً؟

- آه حبيبتي. حياة متى عدت؟ اشتقت لك يا ماكرة؟

- وأنا عزيزتي؛ والله اشتياقك زاد فصرت أراك في أحلامي. متى نلتقي؟ وماذا تفعلين؟

- نلتقي غداً بحول الله (ثم تنهدت طويلاً وأكملت) أرافق مذكراتي بعد أن نام الجميع.

- آه؛ شوقي يزيد كل يوم وفضولي أكبر لقراءتها.

- وما الفائدة فقد عشت لحظة بلحظة تلك الذكريات؟

- لكن أن أعرفك كصديقة شيء وأن أتعرف عليك ككاتبة شيء آخر.

وضحكت الاثنتان واتفقتا على موعد للقاء. كانت صداقتهما الشيء المميز الذي اكسبتهما من تجربتهما في الحياة. رغم مرور السنوات بقيتا وفيتين لبعضهما.

أفاقت بعدها لتكمل بأناملها رسم حروف أحداث كانت الأيام شاهدةً عليها، لكنها ذكرت عبارةً في مذكراتها قبل أن تكمل تريد أن تشفي غليلها وكأنها تتحدث إليها قائلةً:

سأكمل تلوين بياضك بحبري يا أوراق، قلم تشابك أنامله لتروي قصة تلك المزارعة ابنة الفلاحة. ومن كان ينظر إليها جميع البشر بعين الحقد والحسد لمجرد أنها حضيت بمقعد في مدرسة. وكُرسى في مدرج جامعة ومنصب لكل من يحمل نفحةً في قلبه لوطنه المجروح. أرض ترابها الأحمر طالما قلبتها أناملي ليتحول لونها لخضرة. فوطني أولى بأن أحمل علمه بين كتفي، وقد اخترت أن أكون رسولاً لتعليم أجيال من بعدي لتُرفع الراية. لكن الجميع لم يقبل لقب دكتورة محامية وإنما تمنوا أن يحصروا أحلامي في قطعة أرض. وأكون بسمه الفلاحة ابنة الفلاحة لا تعرف من أيامها سوى البذر والزرع.

لكن طموحاتي علت مكائدهم. وأحلامي حطمت أمانهم وكنت أنا من اعتلى القمة وصعدت إليها فوق عتبات العذاب والألم.

فشكرًا لألم كون داخلي الشخص الآخر بحبه وكرهه، بطيبته وقسوته والنتيجة أنني لم أَرْضُخ لأي عقبة، ورفعت عيني المبللتين لخالق الكون وكان هو من قرر ودبر.

هكذا قررت زليخة أن تعلن خطوبتنا وحددت الموعد. بعد أن أسفرت كل تحقیقاتها وأبحاثها عن مهدي أنه شاب رائع تتمناه كل بنت، شاب بنى العصامية وجعل مبدأه للعمل والتعلم ليكون بذلك في القمة وما زاد من علو قدره ارتباطه بصبيبة جعلت من نجاحها هاجسًا ترسمه في الواقع رصعته بالألماس واللؤلؤ فلقت نفسها بالملكة فقط لأن تاجها كان أمها.

يوم كان وكأنه حلم آخر يتحقق. لكنه كان حلمًا مخبأً داخلها لا تستطيع البوح به، ولم تتخيل أن تنام وتحلم بفارس الأحلام. فظروفها الصعبة والقاسية حجبت عنها رؤيته ولو ضمن أمنياتها المؤجلة.

لكن للقدر كلمته عجل ذلك الحلم الذي كان ينتظر دوره لكنه قفز وكان كالبرق؛ لتتوج بسمه أميرة بجانب أميرها، وحمرة الخجل كست وجهها المتلألئ بجمال الحياء وهي تنظر لمن حولها. حياة وجزائر وهما بضحكاتها وهمساتهما ترافقان بسمه، أما زليخة وبرغم صحتها

المتدهورة إلا أنها كانت الأمر الناهي والمنظم لتلك الخطبة. وأخت مهدي وخالاته وعماته يتراقصن ويزغردن.

كل ذلك كان أمام عيني نعيمة التي بقيت بصمتها وبساطتها تنظر للجميع وابنتها كالأميرة جالسة بين أناس من طبقة أخرى. أبناء المدينة الصاخبة وهما القرويتان اللتان أثبتتا وجودهما رغم الفقر والغربة والعوز. وثالثتهما جارتها عقيلة التي أصرت زليخة على دعوتها وزادت من فرحة بسمه ونعيمة بعد أن فاجأتهما بدعوتها، فكان حب زليخة كل يوم يكبر في قلبيهما لأنها الحارس لتحقيق آمانيتهما العالقة.

ويُشبك إصبع بسمه الناعم بخاتم ذاك الشاب الذي لم تتوقع يوماً أنها ستحبه وازدرائها له من أول يوم رآته فيه سيتحول لإعجاب وحب كبيرين. وفي الحين وأمام الجميع قامت بين الحضور والجميع مستغرب لتوجهه ببطء وكل الأعين تطلق سهامها باستغراب لجمالها من جهة ومن جهة أخرى يتملكهن الفضول إلى أين تتجه؟!

انحنى بقامتها الرشيقة ورفعت براحة يديها كف والدتها وقبلتها وقد تركت دمعيتين عليهما. قبلت تلك اليد التي كانت سبباً فيما هي عليه اليوم. واستقامت لتقبل جبينها. وأكملت ما فعلته وسط انبهار الجميع قائلة:

- أستمحكم. لكنني اليوم لا أُعْتَبَر شيئاً بدون هذه السيدة الجالسة أمامكم. هي ملكة هذه الجلسة فبسببها أنا ما عليه اليوم. امرأة بأناملها الضعيفة حبست حياتها وأمنياتها البسيطة في رقعة أرض لتقلبها وهي حمراء وقد لبست جسدها النحيل برودة الشتاء بقسوتها، وابتل قلبها البريء بأمطاره ليزرف دمعاً، وتقتلع بعدها المحصول صيفاً من أرضنا الخضراء وقد لبست حلتها الجميلة بفضل هذه السيدة، وتحملت حرارة ولفحات الشمس فقط لتجعلني امرأة نفتخر بها كل أم، وبقيت تتجرع سم ما ينطقه الآخرون. لذا فأنا أرض تدوس عليها أُمي وهي جبل شامخ أنظر إليه كل يوم.

والتفتت بعدها تقبل رأس زليخة. لتكمل قائلة:

- وينعم علي الله بوالدة أخرى احتضنت امرأتين غريبتين خائفتين من مخالب مدينة كهذه، فكانت نعم الرفيق ونعم الأم. فشكري لكما لن أفي به ولو عشت آلاف السنين.

منظر سقطت فيه العبرات من مقل الجالسات وهن ينظرن وينصتن لتلك العبارات التي اخترقت قلوبهن كأنها سهم؛ لتوقظ فيهن إحساساً لم يعيشه يوماً. فقط كان عنوانه وفاء ابنة بارة.

ليلة أخرى تُصَاف لعمر بسمه. وقلبها الصغير يعانق السعادة من جهة ويرتجف خوفاً لفقدانها من جهة أخرى، لأنه تعود على العذاب والألم ولم يعد يجد مكاناً للفرح والابتهاج.

نامت بعد سهرتها الطويلة رفقة زليخة ونعيمة، لتكمل ليلتها كأى
ابنة عاشقة تنظر لخاتم قيد قلبها دون سابق إنذار.

كانت الجامعة مكتظة كالعادة بين القادم والمغادر. طلاب يتنافسون
على طلب العلم والظفر بوظيفة لائقة وبسمة التي كانت تتردد هناك
لتلقي محاضراتها، وفي نفس الوقت تبدأ للتحضير للدكتوراه في مجال
قانون الأسرة، فرع اختارته عن حب.

بينما كانت في إدارة الجامعة منهمكة تملأ استمارات خاصة
بالدكتوراه طُلبت منها إذ بها تسمع صوتاً يناديها

— آنسة بسمة؟ لست مخطأ؟ صح؟

رفعت رأسها تنظر لمصدر الصوت.

— نعم سيدي؟!!

كان شاباً ممتلاً أبيض البشرة خجولاً وملامحه المبتسمة تدعو
للراحة.

— أظنك لم تعرفني علي. أنا «فيصل» كنت طالباً معك في مدرج
واحد، لكننا لم نكن نتحدث صحيح. كنت مشهورة بتفوقك في
الدراسة، نحن زملاء لكن من بعيد.

- آه! ممكن! لكن أعتذر منك. صحيح أن وجهك ليس غريباً عني، لكن لم أستطع التعرف عليك جيداً. أعتذر منك سيد فيصل.

- ليس مهماً. لم الاعتذار؟ فقط أحببت التعريف بنفسي. وإذا ما احتجت شيئاً فأنا أعمل هنا كما أنني سأحضر للدكتوراه مثلك غير أنني اخترت القانون الدولي.

- آه، جميل! أتمنى لك كل التوفيق وبهذه المناسبة أدعوك لزيارة المكتبة التي أشرف عليها لتقتني كتباً. أكيد على حسابي. وافترقا بضحكة هادئة على أن يتعاونوا في مجال بحثهما.

تمر الأيام وهي من تحكي لك قدرك وتروي قصتك بدلاً عنك، هي المفاجئة بعينها والصدف تتوالى لتجعل منها قصص قصيرة أو طويلة.

كانت من أجمل الأيام التي عاشتها بسمة وقلبها المرتجف يعانق عبارات مهدي الذي تحول لشاعر ملهم بحبها. فقط ما كان يعكر لها صفو تلك الأحلام الساكنة بين ضلوعها مرض زليخة وحالتها التي تتدهور يوماً بعد الآخر ونعيمة حائرة بصمتها تعتني بها بكل حب ومودة وامتنان.

غير أن أيام حياة تمر ببطء، لا تعرف فيها معنى النوم ولا تلامس الابتسامة شفتيها الجافتين، ووجهها الشاحب يحكي حزنها الصامت. وجزائر وبسمة دوماً إلى جانبها تساندانها وتبعدان عنها وساوس

سكنت عقلها وروحها بسبب يوسف الذي اختفى بين ليلة وأخرى، ولم تعد تسمع عنه خبراً...

علاقتهما أوضحت عابرةً سطحيةً خلال الشهور السابقة. صار يجتمعهما سلام وتحية عبر الهاتف بين الفينة والأخرى. والحجة عمل كليهما ومسؤولياته. وهو العذر الوحيد الذي بقي كحبل رفيع يربط بينهما حتى لا تنقطع تلك العلاقة التي جمعت قلوبهما حين كانا طالبين بين أسوار الثانوية.

كانت ليلةً باردةً عاصفةً تنبؤً بمطر قادم. وغضب خفي يسكن أحشاءها وقد غاب عنها القمر. في ذلك المنزل بين جدرانها أين كبرت أحلام بسمة كانت زليخة ممددةً شاخصةً بعينيها تنظر لبسمة ونعيمة وروحهما الممزقتان غرقت في دموع تنهمر كالمنزل. وقلبهما يعصف حزناً وألماً معلقتين بزليخة التي تنتظر زيارة الموت ليرحل بها بعيداً عن الدنيا لتفارقهما.

— أدرك أن أجلي حان وأحمد الله على هذه السنوات التي عوضني الله فيها بكما، طردتما الوحدة من بيتي ومن قلبي ونزعتما القسوة التي سكنت روحي وحولتماها إلى حنان ومودة فاكشفت زليخة الإنسانية الطيبة بداخلي بفضلكما.

أتمنى أن أرحل وقد تركت اسمي محفورًا بقلبيكما. تمنيت أن أزور البقاع المقدسة وكفي تحضن كفك يا نعيمة كما تمنيت أن أسمع صوتك ولو لمرة وأكمل بذلك حلمي، لكن للقدر أوامر تُطبق علينا شئنا أم أبينا.

لذا أتمنى أن تكلمي عني ما نويت القيام به، فأنت ابنتي التي سأتركها من بعدي. تجعل من المكتبة ذخراً لي ولزوجي في قبرنا ولا تنسينا بالدعاء. كما أتمنى أن تحققي أمنيّتي وترافقي أمك للحج بدلاً عني وتواصلني معالجتها. سأترك الحمل ثقیلاً يا حبيبتي، لكن الله يساعذك ويسانذك ما دمت قويةً متقيةً.

كما أتمنى أن لا تثقي بأحد مهما كان، سوى من أنجبتك وتعبت في تربيتك. تذكّراني بدعائكما وقد كنتما أهلي وسندي. أدعو الله أن يوفقك ويفتح في وجهك أبواب الخير كلها من حيث ولجت.

كانت كلماتها كعاصفة تنزل على رجليهما المعلقين بها. ودموعهما تصاحب العاصفة والأمطار في تلك الليلة الحالكة، وكأنها تنشد بصوتها الغاضب سيمفونيةً حزينةً على فراق زليخة.



امتلاً المنزل بالمعزين وبسمة جالسة بين حياة وجزائر تبكي بصوتها المرتجف موت زليخة وتردد كلماتها التي أحرقت قلبها الموجوع.

كانت جنازةً مهيبَةً لامرأة حاربت وكافحت لتحظى بتلك المكانة المرموقة بين مجتمعها وفي مدينتها. زليخة التي ودعت بسمة ونعيمة وهما من كانتا معلقتين بقلبها. أما هي فسكنت فؤاديهما بعدما أدخلت السكنينة على روجيهما الممزقتين والغريبتين.

واليوم تتركهما من جديد تواجهان غربة مدينة احتضنتهما بجناحيها العملاقين، ومن هونت عليهما خوف الأيام رحلت دون رجعة.

كل المعزين كانوا يعظمون أجر بسمة ونعيمة، هذه الأخيرة التي استعادت أيام فقدانها لكل من أحببهم، وتمنت أن لا تعاود الرجوع، هي اليوم بصمتها مجبرة ليست مخيرةً أن تتلقى عزاء أناس لا تعرفهم في أخت أهداها لها القدر، لكن سرعان ما استردها وأخذها منها، لتجد نفسها وحيدة صامتةً بين جذران تبكي رحيل سيدتها.

زليخة وفي آخر أيامها وصت بسمة بالمكتبة وبأن تحقق أمنيته وتأخذ نعيمة للحج. تؤدي المناسك عوضاً عنها وعن زوجها. وأن لا تنسيها بالدعاء. رحلت وتركت وراءها أمانٍ وأحلامًا معلقةً. وهي من كانت السند والرجاء، كانت الأم الثانية والصديقة. كلمات هزت كل من كان بالجنازة وبسمة تراثها وكأنها والدتها.

- لم أحضر موت والدي ولم أفهم معنى رحيله هو وجدتي لأنني كنت صغيرةً، أما اليوم فقد فهمت معنى الفراق. رحلت وتركت فؤادي وقلبي فارغين. ماذا فعلت بنا؟ ظلمنا الزمان وظلمتنا أنت برحيلك.

كنت شاطئاً ومرسى الأمان بعدما تلاطمتنا أمواج الغربة. فكيف ستكون الأيام من بعدك سوى بحر هائج ونحن الغرقى، وداعاً خالتي وداعاً.

وبقيت تبكي محتضنةً أمها تتبع التابوت والرجال يحملونه يتقدمهم مهدي. وقد سالت الأعين دموعاً حارةً على كلمات بسمة وحياة وجزائر تعانقان بسمة وهي تتخبط في حزنها.

- رحلت أحتك يا أمي وتركتك وحيدةً ومن بعدها سيؤنس غربتنا وضعفنا؟

وبقيت جزائر تساندها بكلماتها المتقطعة وعيونها قد سبحت في دموع الشفقة والألم على صديقتها.

- ادعي لها يا حبيبتي أن ينور الله قبرها، هذا ما سيفرحها ويعوضها. اصبري وتماسكي، ونتمنى من الله أن يطيل في عمر والدتك.

هكذا رحلت سيدة المنزل مخلفةً بسمة ونعيمة تتجرعان الحسرة وألم الفراق من وجعهما الجديد، بقينا نتذكران زليخة الحاضرة في قلوبهما وكأنها طيف لا يتركهما أبداً خاصةً في السهرة أين كانت تجمعهم ليال الشتاء أو نسائم الربيع تتجول لزياراتهن والبسمة تعانق شفاههن وأمنيتهن التي خططن لتحقيقها، لكن جاء الموت وألغى كل الأحلام.



(٨)

لتعيد الأيام طي صفحاتها وتستعد الأشجار بفرح لإعادة كسوتها من جديد. وقد نفضت عنها أوراقها وبقيت عاريةً شهور الخريف. تحاكي بأوراقها الصفراء المرمية أمامها حزن بسمه ونعيمة اللتين بقي قلباهما عارين من الفرح والابتهاج وقد أخذتهما زليخة معها.

بسمه المشتتة بين عملها والمنزل وحتى المكتب لأنها غير قادرة على ترك والدتها بمفردها تحاكي صمتها الدفين وحزنها المخبأ بين ضلوعها المنكسرة من قهر الزمان، حسبت أنها عوضت ألمها وعذابها بأخت أهدتها لها الدنيا، التي خانتها بعد أن وضعت فيها ثقتها من جديد وانتزعت منها زليخة من محت غربتها وكانت العائلة والحضن والسند.

- أحس أنك حزينة بسبب غياب خالتي فصمتك أرهقك وقد أُجبرت على السكوت، أعرف أنني السبب في كل عذابك وألمك، لا أتحمل رؤيتك هكذا وقد مر على وفاتها ثلاثة أشهر وأنت على نفس الحالة.

وما يهمني إرضائك. فهو همي الوحيد. لا أتخيل أن أفقدك أنت كذلك، لهذا أقترح أن نعود للقرية والأرض وأحاول فتح مكتب محاماة أو أقوم بالتدريس في ثانوية أو ابتدائية... المهم أن تكوني مرتاحة.

قاطعتها والدتها قبل أن تكمل، وبقيت تأن وتحاول الكلام بأحرف متقطعة وهي ثائرة كالمجنونة تنتقل من مكان لآخر تحاول أن تفهم بسمه أنها غير راضية عن فكرتها ودموعها المنهمرة تتساقط قبل أن تخرج كلماتها المتعثرة الغير مفهومة.

انفضت بسمه لحالها ونهضت نحوها تهدأ من روعها وقد فهمت قصدها وأكملت قائلة:

- حسناً يا أمي فهمت ما تقصدين لكن لا تتوتري، فأنا أود إسعادك ولا أريد أن تعذبي بسببي. لن أخيب ظنك ولن أهدم لا أحلامي ولا أمانيك. اقتربت منها مرتميةً في حضنها وهما غارقتين في دموعهما الهائجتين وكأنهما أمواج تتلاطمها عتبات الأيام وحياتها التي أبت أن تنتهي.

- لا تخافي يا بسمه فأنا بجانبك لن أتركك. سأكون الأب والأخ وكل من تفقدينه.

- أعلم ذلك. وأنت من تهون علي قسوة الأيام وجفاءها.

- أنت لا تدركين مدى حبي لك.

فكست الحمرة وجنيثها وصمتت لبرهة. وتلك الابتسامة تعلق وجهها النحيف.

أيام تجملت بلقائهما في الجامعة ومهدي يحاول أن يكون السند والحبيب وهو يخفف من وطأة الحزن على قلبها، يزورها في المكتب ويساعدها في المكتبة، ويكثر من مغازلتها معبراً عن حبه الكبير لها.

أما هي فتجيبه بصمتها الذي كان يزيد من حيائها وجمالها كما كان يقول لها دائماً. كانت تعرف جيداً أن حبه كان يكبر دائماً في قلبها الصغير ليصبح مهدي عائلتها والتي ستبني عليها آمالاً كثيرة.

أما حياة فكانت تعيش لحظات من التوتر وهي لا تعرف ما ذاك الشعور الذي يختلج صدرها ولا تجد له تفسيراً.

— أهلاً حياة. ما بالك مخفية؟

(بعد أن قبلتها بسمه، وقد اتفقتا على اللقاء في حرم الجامعة وبسمة تستعيدروتين أيامها من جديد، وعيناها تلمعان من حب ظاهر على وجهها).
بقيت حياة تنظر إليها مطولاً والأخرى حائرة تنتظر إجابتها. ثم انتفضت قائلة:

— لا شيء محدد، لكن اتفقت على موعد مع جزائر بالمستشفى لإجراء بعض التحاليل. تعرفين إصرارها.

— أظنها محقة، حالتك في تدهور مستمر، والتعب باد على وجهك؛ حتى أن طباعك تغيرت وابتسامتك رحلت. لا أفهم السبب؟

- عندما تعيشين حلمًا تحسبينه حقيقةً يحسدك عليه كل من يعرفك
لكن...

- ما بالك عزيزتي؟ حكايتك حقيقة، ننتظر يوم نzfك عروسًا
تجملت بسعادة الكون، وعريسك مفتون بحبك. فقط ظروف عمله
والبعد بينكما أثر سلبيًا على نفسيّتك.

- آه يا صديقتي؛ قلبي ينبئني بأمر سيء لا أعرف كيف أشرحه،
المهم جزائر تنتظرني تأخرت عليها أتركك الآن ونلتقي لاحقًا.

ذهبت تجر أذيال الخوف لا تعرف أي الاتجاه تختار؟ طريق
الانتظار والصبر؟ أم طريقًا آخر تكون فيه مجبرّة لا مخرّة. يزيد من
عذابها وقلقها؟ لم تعد تطيق الأسئلة فلم يعد للإجابات معنى.

- صباح الخير آنستي، أين أجد مخبر التحاليل أين تعمل الآنسة
جزائر. هي المسؤولة عنه؟

- آخر الرواق ستجدين منعرجًا على اليسار هناك المخبر.
- شكرًا جزيلاً.

بينما هي كذلك تهم بالذهاب متجهةً للمخبر إذ باسم يخترق أذنها
كالبرق، وتلك الممرضة تسأل زميلتها عن غرفة السيدة نوارة حجاج.

- نواره حجاج؟ هل تكون هي؟ لا أعتقد ذلك؟!
بقيت واقفةً تطرح الأسئلة ولا تجد إجابةً لها، ترددت في إكمال طريقها أو العودة لتتأكد عليها أصابت في تخمينها وبقيت حائرة لا تعرف ما العمل.
- سيدتي؛ إذا سمحت لي، سمعت زميلتك من دون قصد تسألك عن سيدة تُدعى نواره حجاج. هل هي مريضة عندكم؟
- ولم السؤال؟
- لأنها قريبتى. استغربت ذكر اسمها، وخفت إذا أصابها مكروه.
- نعم هي مريضة عندنا منذ أيام، تعاني من مرض السل.
- آه صح كنت أعرف ذلك فهي تعاني منه منذ زمن، لكن أستغرب عدم إعلامنا للإطمئنان عليها.
- وتظاهرت بأنها تعرفها وتعلم بأمر إصابتها بالمرض.
- حالتها كانت مستعجلةً ونُقلت على جناح السرعة إلى هنا وهي الآن تأخذ علاجها بشكل منتظم تحت مراقبة الطبيب ورعايتنا.
- إذا سمحت؛ هل بإمكانك أن تدليني على غرفتها، إذا لم يكن هناك إزعاج؟
- بكل تأكيد. على الرحب والسعة.

- ما الذي أقوم به؟ أهو الصواب؟ كيف سأزور إنسانة لا أعرفها، وإذا لم تكن هي ماذا أقول وكيف أفسر زيارتي وتطفلي؟ لا يهمني إذا لم تكن هي. سأقول أن الأسماء تشابهت علي، وكنت أعتقد أنها امرأة أخرى.

وواصلت السير بخطوات متثاقلة لا تعرف ما الذي تقوم به سوى أنها وجدت خيطاً سيوصلها إليها. أم ستعود لنقطة الصفر وهي مجرد تهيآت فقط، لكن لا ضرر من التأكد.

وعزمت على زيارة تلك السيدة التي تحمل نفس لقب يوسف عليها توصلها لأمر ما.

بعد أن وصلت للغرفة وجدت الباب مفتوحاً، والهدوء يعم المكان. ترددت مرةً أخرى في الدخول، لكن لا مجال للخوف والرجوع. ستكون مجرد تجربة لا معنى لها، فمن غير الممكن أن تكون هذه السيدة والددة يوسف، فلو كانت هي لأخبرها بمرضها.

- صباح الخير.

- مرحباً يا ابنتي. هل تبحثين عن شخص معين؟

كانت سيدةً مسنةً مستلقيةً على السرير تملأ وجهها تجاعيد كثيرة، لكنها كانت بدينةً نوعاً ما. بجانب السرير طاولة صغيرة وعليها أدوية كثيرة.

- بصراحة سمعت باسمك من الممرضة بمحض الصدفة. واستغربت الأمر.

- لماذا؟ وهل في اسمي شيء غريب؟!
- لا؛ العفو. لكن. اسمك نؤارة، أعتذر خالتي نؤارة حجاج؟
- نعم ابنتي؛ أُدعى نؤارة حجاج.
- آه. لأن هناك شخصًا أعرفه لقبه حجاج ومنذ زمن لم أره ولم أسمع بأخباره يُدعى... لكن قبل ذلك ما الذي أصابك سيدتي حتى دخلت للمستشفى؟
- والله يا عزيزتي منذ زمن وأنا مصابة بمرض السل، لكن لم أعر الأمر اهتمامًا ولم أتبِع نصائح الطبيب حتى وصلت لهذه الحالة. آه يا صغيرتي وهموم الدنيا ومشاكل الأولاد جعلتني أهمل صحتي وإليك النتيجة.
- لكن لا أفهم! من المفترض أن يكون الأولاد سببًا لسعادتك وهم من يهتمون لصحتك ويتابعون حالتك، الآن دورهم ليجازوك إن استطاعوا، لأنهم لن يوفوك حقك مهما فعلوا. الأم كائن آخر، آسفة تدخلت في شؤونك لكن من غير قصد.
- لا تهتمي، بالعكس حبيبتي؛ فقد جئت لزياراتي لوجه الله وأنا اعتبرتك قريبةً مني وارتحت واسترسلت في الكلام معك. الدنيا لا تخلو من الهموم يا صغيرتي...

وأنا حكايتي بدأت يوم تُوفيت شقيقتي الوحيدة بمرض السرطان. كانت الأخت والصديقة والرفيقة. تزوجنا أبناء العم. وكنا قريبتين من بعضنا كثيراً قبل الزواج وبعده.

رُزقت أول ابن لي وبعدها بعامين كانت لي بنت، كنا في قمة السعادة، لكن لا حال يدوم ولا بد للألم أن يدق أبواب قلوبنا وتُصاب شقيقتي بمرض السرطان، حينها انقلب حالنا وتحول فرحنا لدموع أبت أن تجف. كانت أختي إنسانة قوية، وطلبت مني طلباً اعتبرته وعداً سيبقى على كاهلي، لأنها كانت تعرف بقرب أجلها والمرض ينهش من جسمها النحيل، طلبت مني أن أعتنى بابتنتها وأن لا تبقى مع زوجة أبيها لأنه سيتزوج لا محال...

كما طلبت مني أن لا أفرط بنرجس وأزوجها بشخص غريب وإنما تبقى تحت رعايتي ولن يتحقق ذلك إلا بتزويجها من ابني البكر.

لينخر الحزن أرواحنا ونغرق في الألم بعد غيابها، تركت فراغاً رهيباً تجاوزته بوجود نرجس في حياتي وكان شقيقتي زرعت وردة وتركتني أعتنى بها، وأصبر بوجودها لتخفف عني غياب والدتها...

لكن ليس كل ما نشتهي ندركه. كبر ابني وصار شاباً بعدما انتظرت وصبرت طيلة هذه السنوات، وهو يعيش بعيداً عني بسبب دراسته

وبعدها التحاقه بالجامعة، لكنني نسيت أن ذلك الصبي الصغير كبر
وابتعد عني ليصبح له عالمه الخاص، يحلم ويتمنى ما يريد.

حلم رسمه بعيداً عنا وجاء بعد سنوات ليخبرني بقراره. وبأنه ينوي
الزواج بأخرى أحبها وتعرف عليها ويود إكمال حياته معها، وهو لا
يعلم أنه بقراره هذا يبني أحلامه على أنقاض آمنيات انتظرتها لسنوات.
أحلام سيجعل منها كوابيس أعيشها أنا ونرجس تلك اليتيمة التي
عاشت مطيعةً خادمةً.

لم أرزق بابنة وكانت ابنتي، ضحت بوالدها وأخويها بسببي، كنا
نحن عائلتها، كانت يتيمة الوالدين لكنها وجدت في حضني الأم وفي
زوجي الأب، وأحبت يوسف وانتظرت طيلة هذه السنوات، وأنا من
غرست حبه في قلبها ليفاجئني بعدها بأنه صار شاباً ومن حقه أن يختار
من يحبها...

خان عهدي لأختي وخان حب نرجس ليستبدله بشيء يعتبره حباً. ومن
هنا بدأت المشاكل ولم يعرف أحد بهذا الخبر سوى أنا ويوسف ووالده،
ونشب الصراع بيننا وأصبح يوسف غريباً لا يأتي لزيارتي إلا نادراً...

وزاد مرضي وحزني، وأنا أحاول جاهدة إخفاء حزني وحيرتي عن
تلك المسكينة اليتيمة إلى أن جاء اليوم الذي انفجرت فيه وعلمت أنه

سيترك المنزل، فأقسمت بأنني لن أكون عنه راضيةً وسأموت وقلبي كله غضب وسخط عليه، وشرطي سيكون الزواج في هذا الشهر أو سيُطرد من حياتنا إلى الأبد.

في هذه الفترة نسيت نفسي وعلاجي وبقيت أتابع أمر زواج ابني وأسارع لإتمام مراسيم الزواج قبل أن يخلف وعده لي، لكن المرض استفحل في جسمي من شدة الإرهاق والتعب وحتى التوتر.

سقطت كغصن من شجرة حارب ليبقى فيها شامخًا ككل الأغصان لكن انكسر ليسقط أرضًا.

ثم رسمت ابتسامة عريضةً وأكملت كلامها...

- واليوم ابني عريس وحققت أمنية شقيقي، صحيح أنني قطعت شهر عسله لما سمع بدخولي للمستشفى لكن سأعوضه له بحول الله. كل هذا وحياة تنظر حائرة جامدة لا تعي ما سمعته وبالضبط عندما ذكرت نوازة اسم ابنها، هل يكون هو يوسف؟ تراه حبيب العمر أم أنها أخطأت الظن؟

- ما بك يا ابنتي؟ لما وجهك شاحب مصفر؟

- هل يُدعى ابنك يوسف؟ يوسف حجاج؟

- نعم يوسف، هل هناك خطب ما؟

لكن الدموع هي المنتصر، فضحت ما كان مخبأً وأعلنت عن مفاجأة غير منتظرة. إحساسها لم يخيبها وهروب يوسف وابتعاده كان لسبب. والأيام أجابت عن كل ما كان يحيرها.

- لما كل هذه الدموع يا صغيرتي، هل قلت أمراً يزعجك. ولما تسألين عن اسم ولدي؟

ثم صمتت السيدة لفترة مندهشة حائرةً وبعدها صرخت واضعةً راحتها على فمها وفتحت عينيها الممتلئتين بالدموع.

- لا تخبريني أنك البنت التي... التي...

وبقيت الاثنتان تنظران لبعضهما في صمت والمتحدث الوحيد كان دموعاً منهمرةً من مقلتيهما تجيب عن كل ما أخفته الأيام في لقاء جمعهما لأن القدر قرر ذلك.

- نعم سيدتي. أنا من قررت بناء وعودكم على حساب أحلامي، أنا من وضع القدر ابنك في طريقي وبنى لي قصوراً، لكن لم أدرك أنها من رمال، لتهب ريح عاتية تأخذ كل أحلامي وتبعثرها. قررت تنفيذ الوعود ولم تعلموا أن ابنكم نكت بوعده...

كان خائناً لي ولكم كان المطيع، جرنى معه وأغرقني في حب جذوره وهم، واليوم أنا الضحية وهو الجلاذ. ابنك يا سيدتي بنى لي بيتاً

من ورق أُخْرِقَتْ كل حروفه اليوم، ومُزِّقَتْ كل الصفحات التي كُتِبَتْ
فيها عبارات الحب والوعود...

اليوم أدركت أنها مجرد كذبة... كانت سراباً... لعب ولدك على
الحبلين. ترك حبلي لأسقط في الهاوية، وشد حبلك لتبقى آمالك معلقةً
وتصل لبر الأمان.

شكراً لحب ابنك الكاذب... شكراً لأنه كان رجلاً ولم ينكث
بوعده وأهداني خبراً رائعاً، كان العريس لكن كنت العروس الغائبة
أو الضيفة المغفلة.

كلمات زعزعت نواره وهي ترى من حاربها ابنها لأجلها ظنتها
ظالمةً لكنها مظلومة ضحية. فابنها كان شهريار قتلهن كلهن وفي
الأخير بقي ينظر غير مبال.

بينما هما كذلك إذ بفتاة تدخل عليهن واقفةً كتمثال لا تحرك ساكناً،
التفت إليها حياة وهي في تلك الحالة وبقيت تنظر إليها.

- نرجس؟

كانت زوجته من أخذت المكان، وتربعت في عرش شيدته حياة لتنفرد
هي به. لكنها كانت مصدومةً مذهولةً وحالتها تبين أنها سمعت كل شيء.
حاولت نواره أن تخفي دموعها، وتغير من نبرة صوتها.

- أهلاً عزيزتي. أعرفك هذه...

ارتبكت ولم تعرف ما تقول محاولة إخفاء الحقيقة عنها.

- لا داع يا أمي. أنا من سأعرفك عليها من حارب العالم لأجلها وأراد أن يتركني من أجلها. من امتلكت قلبه وعقله وكنت أنا في الزاوية المظلمة، حاربت أنت حتى تسلطي علي الضوء، لكن قلبه كان مضيئاً بحبها.

ثم استدارت نحو حياة تخاطبها بدموع حارة.

- كل رسائلك تصفحتها. كان يخفيها في مكان آمن يحتفظ بها في حقيقته، تسافر معه وفي قلبه يحملها. لكن خاتنه الأيام مرةً ودخلت أنا لأكتشف ذلك الحب من خلال رسائلك، أدركت أنها أجوبة لعبارات أجمل كان يرسلها لك.

ومع ذلك تجاوزت الأمر على أساس أنها تفاهات وتلك الفتاة هي من تركض وراءه، فحبه يبقى ملكي وقلبه لا يسكنه سواي. رغم أن الألم سكن في زاوية من قلبي، ولم يعد هناك مجال للشك...

ومع ذلك تشجعت وتماسكت، وأمي نواراة تعد لزفافنا وترسم بمخيلتها حلم بناء منزل يجمعنا. وهي المسكينة كانت تبعدني عن كل ما كان يدور بينهما وحبه لك وإصراره على الزواج منك.

- لا يا صغيرتي ليس صحيحاً، يوسف يحبك والدليل زواجه منك. نرجس... نرجس...

لكنها ابتعدت وتركتهما ينظران، ويتألمان، يخرجان تلك الأنفاس المتقطعة من قلوب جرحها يوسف وترك بصمة لكل منهن.

- أعتذر سيدتي على كل ما حصل. المهم عندي أنني كنت مظلومةً وضحيةً من ضحايا ابنك الذي أخفى عني الحقيقة.

ولم تكمل كلماتها حتى تدهورت حالة نواراة وهي تخرج أنفاسها بصعوبة بالغة ولم تعد تستطيع التنفس بشكل طبيعي، وتأزمت حالتها. إثرها خرجت حياة مهرولةً تبحث عن الممرضة لتخبرها بحالة نواراة.

بقيت حياة تنتظر في الخارج تلوم نفسها على ما حدث. مرعوبةً خائفةً إذا ما حصل مكروه لوالدة يوسف فلن تسامح نفسها أبداً. وفي تلك اللحظات إذ بها تسمع صوته لم تصدق لكنه هو يخاطبها هي...

- حياة، ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

رفعت رأسها، يوسف أمامها يكلمها متعجباً مفزوعاً.

- القدر. هو من جاء بي إلى هنا مثلما جمعني بك في الماضي أعادني اليوم ليكون آخر لقاء بيننا، شكراً على وفائك حبك تضحياتك، أدركت أن وفاءك كان خيانةً وحبك كان كذبةً وتضحياتك كانت لأجل نفسك وعلى حسابي أنا.

رسمت فيك الرجل لكنك خذلتني. بقيت تطيل عمر السنين فقط
لتزيد من ألم كل من أحبك. اليوم أمامك النتيجة. بنيت قفصي معك
وتخيلته أجمل سجن أنت السجنان وأنا السجينة، حيث لا ولن أطلب
بالحرية يومًا.

لكن أدركت أن فراقك هو الحرية والقرب منك أبشع سجن،
وسأكون أتعس أسيرة حب، شكرًا يا جلادي، شكرًا على كل تلك
السنين التي أضعتها في انتظارك.

— حياة أنا... —

اقترب منها محاولًا أن يشرح لها لكنها ابتعدت ورفعت يدها مقابل
وجهه طالبةً منه الصمت.

— كفى كذبًا وتلاعبًا، سمعت ما يكفي من الوعود. شكرًا لأنك
جعلتني أعيش أجمل أيامي. وشكرًا لأنك ستجعلني أعيش أتعسها.
لكن أعدك لن تطول لأنني سأنسأك، لا بل سأمحيك من دفتر أيامي
وأدفن اسمك وكأنك طيف مر ورحل دون أن أحس به.

شكرًا على الخيانة والكذب، وشكرًا لأنك لطخت أجمل معاني
الحب وتركتني أعانق الألم، لكن ليس للأبد لأنك ستعيشها أنت،
أذهب لتطمئن على والدتك المسكينة وابحث عن زوجتك التي لم يكن

لها ذنب سوى أنها انتظرتك وأحببتك مثلي تمامًا، لكن الفرق الوحيد أنك في حياتها حقيقة أما أنا فانتظرت سرابًا.

سأودعك بكلمة واحدة: حسبي الله ونعم الوكيل.

رحلت وتركته قابلاً كالمثال ينظر إليها، أما هي فلم تستطع تمالك تلك الدموع وخرجت تجهش بالبكاء والكل ينظر إليها مخلفة حقيقةً جميلةً في حياتها تحولت لوهم وتلاشت بين ليلة وضحاها.

- لا أعرف ما بها انتظرتها في المستشفى حتى آخر النهار، حين عدت طرقت الباب مرارًا، وبعدها أجابني بأن أتركها لوحدها. ما الذي حصل يا بسمة؟

- وأنا أستغرب الأمر. أخبرني أنها ستلتقي بك لإجراء التحاليل.

- وماذا نفعل؟ أنا خائفة عليها.

- اتركها حتى تهدأ. تعرفين طباعها، وبعدها ستتحدث لوحدها.

بعد مرور ثلاثة أيام...

كانها أفاقت من صدمة وهي تجيب بسيل من دموع تروي فجيعتها بصمت.

- لا أظنني أحلم. كان واقعًا. كل ما رأيته وسمعته...

وقصت على الفتاتين ما حدث لها.

ثم حولت نظرها للأرض وجلست على ركبتيها تجهش بالبكاء؛ تخرج من صدرها الجريح أَلَمًا وحزنًا. وتركتها كل من بسمة وجزائر تبكي وتبكي حتى تتوقف من تلقاء نفسها وتخرج نفسها المخنوق من روحها المجروحة الممزقة. تردان عليها بدموع الأسى والشفقة وهما ترثيان لحالها.

— يا له من قدر زف لي خبرًا رائئًا، يوسف عريس؟! —

واسترسلت حياة في الكلام بدموع ترافق عباراتها وقد لبست وجهها صفرة كصفرة الموتى:

— ماذا أقول وهو من كان وطني، تربيت على حبه وأنا لا أزال أعانق جدران الثانوية. تركنا اسمينا معلقين محفورين لأجيال بعدنا. كنت أقات من عباراته وأعشق بعده لأنني أكبر على اشتياقه، أنتظر رنة صوته ولقاءه لأحكي له عن مستقبل رُسم وهو في زاوية هناك من العالم ينتظرنا...

لكن تبخرت كل الأحلام في لحظة. فيما كان هو يرسم مستقبله مع فتاة أخرى، أما أنا فكنت الاحتياط. كنت من عبث بمشاعرها، وبقيت أبني أحلامًا فوق كثران الرمال واليوم...

ثم انفجرت باكيةً وأصابتها حالة هستيرية، ولم تعد تعرف الفتاتان ما تفعلانه ولم تستطيعا مواساتها لأنهما لم تتقبلا الفكرة أصلاً وهما

تعرفان جيداً الحب الذي جمع بينهما أو على الأقل حب صديقتيهما له سوى معانقتها ومشاركتها ألمها بدموعهما وأسفهما عليها.

بعد مرور أسبوعين...

- لا أفهم يا مهدي لكنني مصدومة. لماذا خان جبهما وتركها تتخبط في حزنها. لماذا كان يعدها أصلاً بالزواج وهو غير قادر على تنفيذ وعده لأنه من كان يتبعها وأصر عليها حتى عشقته؟

كانت بسمة تحدث مهدي عبر الهاتف تروي له قصة حياة ويوسف التي لم تجد لنهايتها جواباً. وكيف أنه كان يعيش بمدينة «بومرداس» ولماذا ذهب ليدرس بمدينة «سطيف»، حيث تربى عند عمته لأنها عاشت وحيدة بعد وفاة زوجها، وانتقل للعيش معها وأكمل تعليمه هناك. بعدها سافر للغرب للدراسة بالجامعة لأنه اختار تخصصاً غير موجود إلا بجامعة وهران، وبقي التواصل بينهما وأحلامها تكبر لتستقر في بيت يجمعهما، لكن. تقرر الأقدار ما لا تهواه القلوب.

- ونحن؟. ما رأيك في حبنا؟

- ماذا تقصد؟

وقد رافقت كلمات بسمة ابتسامة خجولة، وكست وجنتيها حمرة زادت من جمالها.

- أنت تفهمين قصدي. جبي لك قتل الغربة في جسدي البارد وأنعش روحي التي أضحت ترقص كلما تطلعت لوجهك الملائكي. عدت لأنك قدري واتخذتك وطني الذي سأختبئ فيه من غدر الزمن، ومواقع الأيام التي عشتها. سيمحي حبك وحنانك لي كل الآلام؟ صح؟
- لم أعرف أنك شاعر ورومانسي لهذه الدرجة؟
- لم أكن كذلك. لكن اكتشفت هذه المواهب في مهدي عندما التقيت بك ومن أول نظرة.
- لا تذكرني بأول لقاء بيننا.
- ههه، أحسست بأنك كرهتني. صحيح؟
- ليس كرهًا، يمكن أن تقول أنني لمست فيك التكبر والتعجرف.
- والآن؟
- لن أخبرك.
- اعترفي وإلا سأنتقم كما فعل يوسف، وأتزوج بأخرى.
- وهل تجرأ؟
- تدركين جيدًا أنني لن أفعلها لأنك حياتي وفرحتي، وسأصبر حتى يأتي اليوم الذي تخبريني بحبك الذي تخفينه عني، حينها...
- حينها... ماذا؟ أكمل!

- سأنتحر من السعادة.

وضحك الإثنان وهما عاشقان طائران لا يعرفان حدودًا سوى
التحليق في سماء جعلت من زرقتها بحرًا للطيور المهاجرة تسبح فيها
بجناحيها الواسعتين كشراع زورق صغير.

صارت زيارات بسمة وجزائر لحياة متكررة لا تفوت يومًا إلا ومكثتا
معها بالساعات واقتрحت عليها بسمة في الأخير أن تنتقل معها للمنزل
بدل أن تبقى في شقق الأساتذة الجامعيين لوحدها، لكنها رفضت
وقررت مرافقة الوحدة والصمت وهذا ما كان يهون عليها حزنها كما
كانت تدعي.

بعد مرور شهرين...

كانت الشمس تودع ذلك النهار وهو يحتضن الغروب وقد لون
السماء بالبرتقالي. هذا الذي زاد من بهاء الطريق، وأوراق الشجر
تداعب تلك النسيمات لترقص على هبوبها، رحلة مع الطلاب. يوم
سُرِق من العمر وحياة ترافق الجميع رفقة جزائر التي أصرت عليها
للذهاب والاستمتاع...

أما يوسف ذلك الكائن الذي كان جزءًا من قلبها نزعته اليوم وأحرقت ذكراه مخلفةً وراءها كل شيء... ذكرياتها وحبها الذي اقتلعتة من سطور أيامها، وتوقفت عن كتابة الأمانى المزيفة.

كان الجميع صامتين عائدين إلى العاصمة وحياة جالسة في الخلف ودون أن ينتبه أحد أخرجت من حقيبة اليد صورةً جمعتها مع يوسف في يوم جاء لمقابلتها، وكم كانا سعيدين وضحكاتهما تعانق وجهيهما الحالمين.

قامت بتمزيقها ورمتها من نافذة السيارة بعدها رسمت ابتسامة انتصار عانقت معها دمة فراق ووداع ليس بعدهما لقاء، مزقتها لقطع صغيرة والدموع تبلل وجنتيها ثم أخرجت يدها من نافذة الحافلة وفتحت كفها وأطلقت العنان لتلك الرقائق الصغيرة بالرحيل مسافرةً في مهب الريح...

تركتها وراءها دون وداع كما تركت ذكرى يوسف ترحل للأبد وأخذت وعدًا على اقتلاع حبه من قلبها المرتجف للأبد... وداعًا يوسف... وداعًا...

بعد مرور شهر...

لم أستطع أن أغلق نوافذ الحزن المفتوحة على صدري وهذه الأخيرة أثبت إلا أن ترافقني في مسيرتي، لكن هذه المرة كانت أكبر ووجعها أعمق، أُمِّي وصديقتي كلهن كسرن ما تبقى لي من شجاعة ضعيفة أحاول الاحتفاظ بها.

كنت كالمجنونة أركض في حرم الجامعة أحاول تسوية كل متعلقاتي من محاضرات وامتحانات وحتى ترتيبات التحضير لرسالة الدكتوراه، حتى أنفرغ لقضاء العطلة رفقة والدتي وأتركها مع خالتي عقيلة بعد عودتي للعمل لتقضي رفقتها أسابيع أخرى ترفه عن نفسها بعد كل ما فات عليها من أحزان.

- آه، أين أنت؟ بحثت عنك طوال اليوم.

- تعرفين أحوال الطلاب وأيام الامتحانات. وأنت حياة كيف حالك ما زلت قلقة بشأنك؟

- لا تقلقي يا عزيزتي. أنا من سأمحو تلك الذكريات وأجعلها كزبد البحر تتلاشى بالتدرج. أحاول تدارك ما فاتني في العمل والعمل. (ثم ابتسمت وغيرت الموضوع) وكيف حال العصفورين العاشقين؟

- لا عاشقين ولا عصفورين، قلما نلتقي. أخبرت مهدي أنني سأسافر مع أُمِّي خلال هذه الأيام وطمأنني بأنه سيساعد سمير ويقوم بتسيير المكتبة في غيابي.

- وأنه سيشتاق لك وأنت ستفتقدينه ووو، أعرف كل هذه الأمور. عشتها من قبل لكن دون فائدة. (وتبسمت في صمت).
- أرجوا أن تتفوقى على نفسك يا حياة. أدرك أنك قوية ولست من النوع الذي يُهزَم وينكسر.
- أكيد. المهم لا تهتمي. إذن نلتقي غداً إن شاء الله ونناقش أمر سفرك.
- ولما لا تذهبين معنا تغيرين الجو والمكان وحتى الوجوه؟
- لا يا حبيبتي. أود زيارة أقاربي كما أنني أود وبشدة الخلوة بنفسى وإعادة ترتيب حياتي من جديد، ليس بالأمر الهين أن تتغير أهدافك وأحلامك بين ليلة وأخرى، لكن سأتفوق على نفسى بحول الله.
- وواصلنا حديثهما وهما متجهتين إلى إدارة الجامعة تضحكان تارةً وتأسفان أخرى.



- كل ممرات المنزل وغرفها كانت تبعث صوتاً هادئاً حزيناً، لفراق زليخة، ونعيمة بقيت وحيدةً ترافق ذكريات أحبتها من جديد تعاتب الأيام في صمت وهي من ظنت أن هذه الأخيرة ابتسمت لها بوجود زليخة، لكن عاد وخطفها تاركةً نعيمة ترافق الحزن ووجع الروح.
- أمي، أمي، لقد عدت. أين أنت؟

كانت بسمه وهي تحمل كتبها كالعادة. رجعت وهي متلهفة لرؤية والدتها على غير عادتها خاصةً بعد وفاة زليخة.

- أين هي؟! أمي! يا إلهي! أمي! أين أنت؟

وبقيت تبحث عن والدتها والخوف يملك قلبها.

تحول ذلك الصمت والهدوء لضوضاء وحياة رفيقة جزائر يخففان من هلع وخوف بسمه التي كانت في حالة هستيرية لا تعرف ما العمل، وأمها التي لم تفارقها يومًا، ولم تتعد حدود المنزل بمفردها لا تجد لها أثرًا...

لا تفهم سبب غيابها واختفائها دون سابق إنذار وهي تدرك جيدًا أن والدتها لا تخرج بمفردها سوى برفقتها أو برفقة زليخة رحمها الله.

كان تتحدث والعبرات كاللآلئ تنحدر من مقلتيها وجسمها يرتجف من خوفها على أمها وكأنها تحت عاصفة.

سكنت روحها المعلقة بوالدتها.

- لا أفهم سر اختفائها. كنت هنا طيلة اليوم ولم ألاحظ السيدة نعيمة تخرج أو تدخل للمنزل، وعندما اتصل بي صاحب الكتب ذهبت لمدة نصف ساعة استلمتها منه ورجعت فورًا.

- لكن يا سمير ألم تلاحظ أي أمر أو شيء مريب خلال عملك؟

- لا شيء يدعو للارتياح، حتى أن اليوم كان حضور الزبائن والطلبة للمكتبة محتشماً.

- ليس من عادة أمي الخروج لوحدها، وإذا احتاجت أمراً تطلب من سمير ليحضره لها وكان يفهمها من إشاراتها. آه يا ولي ما الذي جرى لأمي وأين ذهبت؟

- كيفينا انتظراً، يجب أن نتصل بالشرطة فوراً، ما رأيك يا مهدي؟

- أكيد، لم أترك مكاناً لم أبحث عنه أنا وسمير، والآن سأذهب لأقرب مركز للشرطة، وأبلغ عن اختفائها، هل ترافقني سمير؟ أو أقول لك لقد تأخرت الوقت. لا داعي لأؤخر أكثر. عد للمنزل سيقلق أهلك عليك، أما أنا فسأتولى مهمة الإبلاغ عن اختفاء خالتي نعيمة.

- يمكنني مرافقتك سيد مهدي، قد تحتاجني للإدلاء بأقوالي.

- شكراً لكن ليس هناك أمر مهم ستقوله ما دمت لم تر شيئاً.

ثم جذب حياة وجزائر برفق وأوصاهما ببسمة وترجاهما أن تمكثا معها الليلة.

- كيف توصينا ببسمة يا مهدي هي أختنا. فقط حاول أن تجد خالتي نعيمة واترك لنا أمر بسمة.

كان وجعاً مختلفاً لم تستطع بسمة شرحه سوى بكلمات البنت المعذبة الخائفة، وهي كالمجنونة تتمنى أن يتوقف الزمن لتسترجع

أمها وهي تحبس أنفاسها الممزقة داخلها، لتعود وتذكر أمها المسكينة فتنتفض بدموع الألم وبقيت على هذه الحالة ليلة كاملة.

حينها قررت جزائر أن تتصل بإحدى زميلاتها وكانت طيبةً لتعطيها حقنةً لتهدئها وتنام. وكانتا تدركان جيدًا أنه حل مؤقت لأنها عندما تستيقظ ستجتاحها آلام تعصف بقلبها المعذب على اختفاء من تعتبرها الهواء والماء.

بعد مرور أيام وأسابيع...

- رضينا بكل شيء واقتنعنا وأقنعنا أنفسنا بما قدره الله لنا، وبقينا نساير أوتار الأيام وهي تعزف أغنياتها الحزينة، لكن حتى تلك الأوتار انقطعت ولم يعد لها لا لحن ولا أنغام.

هذا ما لم أستطع تحمله يا جزائر لو ماتت أمام عيني أهون ألف مرة علي من أن أفقدها هكذا، سأجن، ولم أجد الجواب حتى الشرطة عجزت عن فك لغز اختفائها، هل رحلت؟ خُطِفت؟ أم قتلت؟ سأجن. سأجن.

رحلت من كانت تسقي الزرع بدموعها وتطعمني من بقولها. كبرت أنا على أنقاض أم مجروحة واليوم تركتني أصارع سراديب الحزن التي كنت قد نسيتها أو أتناساها بوجودها، آه، أين أجذك يا غالية؟ وما الذي حصل حتى تهجريني؟ تركتني بلا سند ولا رفيق يا رفيقتي يا نبض القلب.

قالتها بسمه بقلب كأنه حطب وأوقدت فيه نارًا، وعادت لحالتها الهستيرية تصرخ بألم وحرقة، وعندما تعبت أكملت تذرف دموعها المسترسلة دون توقف وفي صمت.

— هدئي من روعك يا بسمه. الله كبير ومن تمسك بحبله لن يخيب، كلنا معك صلي للقادر المقتدر ولن يتركك، وأملني به كبير.

كانت تقولها بدموع وصوت مرتجف وهي ترى صديقتها أضحت كالمجنونة، فدموعها وحزنها يأكلان من جسمها الذي أضحى هزيلًا وزنه وزن الريشة.

— تعود. هه، لا تمازحيني يا جزائر. امرأة خرساء لا أحد يفهمها غيري. كيف ستعبر عما يختلج صدرها وما تريده، هل هي مريضة؟ أين تنام؟ وماذا تأكل؟ لا تدركين بأن تلك السيدة هي هوائي ومائي، هي نسيمي وسمائي. يا الله، هي شمسي وهمسي وهي أرضي وعرضي، يا رحمن؛ هي ظلي وليلي وهي قمري وعمري.

اسمها «أمي» ونبضها قلبي ودمعها ألمي. حضنها مسكني وحزنها شجني وقلبها وطني. فاحفظها يا قادر يا جبار إن كانت حية.

أنت جزء من الجنة يا غاليتي، من أجلك ولأجلك أتنفس أما الآن الموت هو أهون مئة مرة من العيش دونك، أين أنت يا أمي؟ أين؟

صرخت بأعلى صوتها، ثم سقطت مغمى عليها، حينها دخلت حياة وبقيت جامدة لا تتحرك سوى دموع تنهمر من مقلتيها وركضت مفزوعة تساعد جزائر وهما تحملان بسمه لغرفتها وقلبهما يعتصر دمًا على تلك الوردة الذابلة تنتظر موتها أو اقتلاعها من أرض جفت لأن من كانت تسقيها رحلت دون سابق إنذار.

وبقيتا مكتوفتي الأيدي ما بيدهم حيلة سوى مواساتها والدعاء لها بعودة والدتها عليها تطفئ تلك الجمرة الملهبة في قلب ابنتها عليها. وأضحت بسمه بعد تلك الأسابيع طريحة الفراش لا تتكلم أو تتحدث وإذا نطقت تنادي أمها بصوتها الضعيف.

- رحلت تلك المرأة الخرساء لكنها كانت ملكة بالنسبة لبسمه.

- أكيد فهي والدتها يا حياة...

كانتا ساهرتين يتحدثان في الصالة وبسمه نائمة في غرفتها.

- ما العمل فالبنت تضيع أماننا ونحن ننظر إليها وننتظر نهايتها. وحالتها في تدهور مستمر ولا أظن أن والدتها ستعود. فقدت الأمل برجوعها. ويجب أن ننقذ ما يمكن إنقاذه ونعيد لبسمه الحياة، لنحاول بتر الكآبة من روحها لتستطيع مواصلة حياتها. وأظن أن الحل بعد الله سيكون مهدي، نعم هو من سيساعدنا في عودتها للعمل وإكمال دراستها.

كان يومًا رائعًا بنسيمه الهادئ يرفع معنويات كل من يرفع رأسه للسماء وهو يتمتع بزرقته والشمس تتربع وكأنها ملكة في قصرها، لكنه كان سيان عند بسمه فالיום الشمس المشرق كالיום الماطر المغيم.

- السلام عليكم، كيف حالها اليوم؟

- على حالها يا مهدي.

- حسنًا، هل هي في الصلاة؟

- نعم هي هناك.

- اترك لي مهمة انتشارها من هذا الضياع والحزن.

- نتمنى ذلك...

قالتها جزائر وهي يائسة غير مصدقة برجوع بسمه لسابق عهدا.

- صباح الخير، كيف حال الأميرة؟ أراك مشرقة كهذا اليوم.

نظرت إليه بسخرية. ثم استدارت للنافذة غير أبهة بقدومه، والفتاتان تنظران إلى ما يحدث باهتمام.

- تدركين يا جزائر وأنت يا حياة أن شخصًا عندما يحب الآخر بجنون مهما كانت نوعية علاقتهما يعيش على هاجس إرضائه وإسعاده والعيش من أجله فقط، فينسى من حوله ومن يحبونه كذلك. ويتناسى اهتمامهم وحاجتهم إليه.

تعرفن يا فتيات... حدث معي أمر أصعب وبكثير مما حدث لبسمة، وأنا أعاتب الغربة التي احتضنتني في كنف وطن آخر غير وطني، أعيش على أمل بالعودة لكن لمن ومع من؟ بعد أن فاجأني أو بالأحرى خانني القدر وفقدت أعز الناس ولم يكن لي هناك لا قريب ولا حبيب.

حتى إن عدت إلى هنا فأختي متزوجة وعمتي وعمي كل يعيش بعيداً عن الآخر. أعود لحضن من؟ وإذا بقيت؛ فمع من؟ عند عودتي لم أجد الحضن الذي يواسيني ويقربني منه لينزع من قلبي خوف الغربة التي سكنت روحي، فحولتها لوجع...

وبقيت دون هوية وأنا في بلدي، الغريب وأنا مواطن في وطني. فقط لأنني شاب لا يحمل هوية يتفاخر بها، ويجعل من نفسه صغيراً وهو يصرخ: نعم؛ أنا أيضاً لي أم أحتمي بها لأنني الضعيف رغم قوتي، وأنام في حضنها لأنني ولد يهوى التدلل على والدته...

تُوَفِّيت أُمِّي وأنا في أرض المهجر، ولم أسمع بخبر وفاتها إلا بعد أسبوع. كما أنني عانيت الأمرين، بقيت أرعى أبي المقعد بقلب يائس لأنه رفض العودة للوطن، ولمن يعود؟

ولما وافته المنية هناك قررت العودة نهائياً والرجوع لدفن والدي والعودة أدراجي أرافق وحدتي والغربة هي أُمِّي أحتضنها بوجع وأحوله لفرح والقسوة أتخيلها حناناً.

لكن الله من يقرر. فعند عودتي وجدت زهرة حياتي وجعلت من نفسي البستان حتى أزرعها بداخلي وأسقيها بدموعي، وحولت الكابوس لحلم جميل لأنني رأيت في بسمة الحياة.

صحيح أن وجعي لا يزال موجودًا بداخلي، وأحيانًا كثيرةً يوقظني بوخزة تسيل الدم في قلبي بدل الدموع لكن الحياة، تستمر ووالدي راضيان عني لأنني أبعث بدعواتي وصلواتي لهما، فلم أخسر حب من يعيشون لأجلي، ولم أتناسى ذكرى أعز أناس على قلبي... خائني الزمن برحيلهم، لكنني لم أحن ذراهم، ولم أتخلَّ عن أحبهم ولا يزالون أحياء.

ثم حول نظره لحياة وجزائر وقد كان يتحدث لبسمة وهي توليه ظهرها وتنظر للنافذة. ففوجئ بهما يمسحان أنفيهما وعيونهما من دموع كانت تسيل كالوديان؛ متأثرتين بما قاله لحبيته يواسيها بأجمل العبارات محاولاً محي حزنها بأرقى الكلمات وهو من عاش قسوتها، فكان الشاب الطموح المجابه للعقبات، وصنع لنفسه مستقبلًا، وأحب بسمة؛ لتعوضه حنان من فقدهم.

وفيما هم كذلك إذ ببسمة تلتفت إليهم. كانت تنصت لحديث خطيبها، تنظر بعينين منكسرتين ودموعها تواسيها وتحكي حالتها وهي من عاشت لأجل أمها، وكانت قصتهما من نوادر الحكايات، لكنها استسلمت لكلام مهدي ترد بصمت، تجيب بوجهها الناعم المتألم تلين لكلامه وتندمج في حزنه لتمحي ألمها.

بعد مرور بضعة أشهر...

أيام جافة مبعثرة أحمل أغصانها اليابسة في قلبي وقد أخذت لونها وعطرها مع من رحلت، «وتستمر الحياة» مقولة شائعة صحيحة في ظاهرها، لكنها كاذبة في فحواها.

استمرت حياتي من الخارج أمام صديقاتي ومن يحيطون بي، لكنني كنت شبه ميتة من الداخل لولا مهدي الذي كان يواسيني، ولا أنكر مساندة حياة وجزائر، لكن هذا لم ينسني ذكرى من صنعت مني وما أنا عليه اليوم بفضلها وفضل زليخة بعد الله.

أعذريني يا أوراقي واصبري يا مذكرتي؛ فيجب أن أكتب ما سطره لي القدر لأنكما ستفاجآن بما هو قادم. وأكملت دون كلل وملل مسترجعة ذكريات رحلت منذ أعوام وكأنها البارحة لأنني قاسيت فيها نكبات وخيانات لا تُنسى.

في أحد الأيام وبينما بسمه منهمكة كعادتها في مكتبها بين ملفات زبائنها محاطة بصمتها الحزين. لم تعد حلاوة تلك الأيام تثيرها رغم عذابها لأنها كانت ترافق أمها التي اختفت في ظروف مبهمة.

رحل الجميع وتُركت وحيدة تتجرع مرارة وحدتها، لكن الله لا يضيع عباده؛ فحب مهدي كان يسد بعض الفراغات في قلبها، وهي

تلمح الحزن في عينيه عليها، وتلمس من نبرة صوته حبها؛ يحاول دائماً التخفيف من وطأة فاجعة اختفاء أمها، الأمر الذي جعلها تكمل حياتها، وحبه ينمو ويزهر في قلبها الذي فقد كل من أحبهم.

— أستاذة؛ هناك رجل يود مقابلتك، وهذه المرة الثانية التي يأتي ويسأل فيها عنك.

— رجل؟ طيب! فليتفضل.

— صباح الخير أستاذة.

— صباح النور، أهلاً وسهلاً، تفضل بالجلوس.

هياته وشكله وحتى هندامه توحى بأنه من عائلة مرموقة.

— في الحقيقة سمعت عنك وعن عملك والأهم من كل هذا سمعتك، أرسلني إليك زميل لك كان يدرس معك في الجامعة وهو السيد فيصل؛ هو من أروع وأطيب الناس الذين التقيت بهم.

— آه؛ نعم، فيصل. صحيح، هو من أعز زملائي، كيف يمكنني أن أخدمكم؟

— أعرفك أولاً، أدعى السيد «مصطفى». عملت كمدير في البنك بإحدى الدول العربية لمدة عشرين سنة، بعدها قررت العودة رفقة «عائشة» زوجتي الوطن وهي تحمل الجنسية اليمنية يمنية المولد والأصل. باختصار يتعلق الأمر بقضية ميراث. لهذا السبب قدمت...

حيث تفاجأت أن منزل والدي والذي تُوفِّي منذ خمس سنوات يسكنه ابن عمي، فقد ورثت عن والدي هذا المنزل، وهو ورث عن عمي منزله. يعني جدي ترك لكل واحد من ولديه منزلاً، ولدي عمه تُوفِّيَت قبل جدي بسنين وهي غير متزوجة.

بعدما باع ابن عمي منزله، وضع نقوده في مشاريع وهمية غير مربحة احتل منزلي أو «الفيلا» بمعنى أصح. وأنا من كنت أظن أنه يقوم بتأجيرها ووكلته بذلك، حيث كان يخبرني أنه يضع النقود في حسابي الخاص فتحه هنا باسمي.

عند عودتي اكتشفت أنه لم يقم بتأجير المنزل، كما أنني لم أتحصل على فلس واحد خلال كل السنوات التي مضت. وأريد استرجاع منزل والدي أو بالأحرى منزلي، لأنه رفض الخروج منه بحجة أنه بقي لحراسته، وهو من يطلب وبكل وقاحة أن يتقاضى أجره عن سنوات حراسته له.

- لكن سيدي؛ هذه لا تُعتبر قضية ميراث، خاصة وأن جدكما كتب لكل واحد من أبنائه منزلاً، وأنتما ورثتما عن والديكما منزليهما...

إذن فابن عمك استولى على منزلك بغير وجه حق، كما أنه لم ينفذ ما أوصيته به، ولم ينفذ بنود التوكيل الممنوح له، ولم يقم بتأجير المنزل، وضع عليك طيلة هذه السنوات الاستفادة من تأجير منزلك، وبهذا فهو خائن للأمانة مع أضرار تسبب لك فيها.

لا عليك بحول الله سنقوم بكل الإجراءات المطلوبة.

فقط أريد من سيادتكم موافقتي ببعض الوثائق، وبعدها سأودع شكوى لدى وكيل الجمهورية بالمحكمة المختصة لإخلاء منزلك، وتعويضك عن كل الأضرار التي لحقت بك جراء عدم استفادتك من استغلال منزلك حسب التوكيل الذي أبرمته معه ليؤجره لك، وهو كان يستغله بغير وجه حق.

— شكرًا أستاذة، إذن زوديني بما أحضره لك من وثائق، ونحدد موعد لقائنا في المرة القادمة.

— أكيد بحول الله، لا تخف فأنت صاحب حق، وحقك لن يضع أبدًا.

— ألو، كيف هي أميرتي اليوم؟

— بخير، مع العمل، وأود أن لا ينتهي أبدًا. تعرف؟ لا أحب أن أفكر في شيء.

— لأنك عنيدة، ولا أفهم لم؟ عرضت عليك تعجيل موعد الزفاف أو بدونه إن أردت، أعرف الظروف جيدًا لأنني لست مطمئنًا وأنت وحدك، لكنك عنيدة، ولا أفهم سبب تأخيرك إلا بعد مرور سنة.

— دائمًا تعيد نفس الشيء، وأنت مدرك لحالتي، كما أنني اتخذت عهدًا على نفسي بأن تمر سنة على... على... لا أحب قولها، لكن...

على اختفاء أمي، وحتى موت خالتي زليخة، صحيح أن ما أفكر فيه وأقوم به لا معنى له، لكنني نفسيًا لست مستعدة. افهمني من فضلك.

- حسنًا بسمه، كما تشائين ولن أصبر عليك أكثر. فقط تأكدي من أمر واحد ووحيد أن حبي لك هو السبب الذي دفعني للصبر، واشتياقي للعيش معك هو من سيقتل الوحدة داخلنا. أنت الزهرة التي لونت حياتي، وأردت تعويضك كل سنوات الحرمان والعذاب التي عانيت منها.

- أدرك هذا جيدًا، كما أنني أتوق لأعوضك عن كل ما فعلته معي ومن أجلي. أعيش فراغًا لا يُوصَف. روعي كأنها تعيش في كهف مظلم. أنتظر بصيص أمل أو شعاع نور يطرق أبواب قلبي. آه؛ أصبح لقاء أمي حلمًا مستحيلًا وكابوسًا أعيشه كل لحظة، وأنت من تخفف عني هذا العذاب. على فكرة؛ هل طرأ أي جديد في قضية والدتي؟

- للأسف؛ حتى الآن لا شيء يُذكر، وأخاف أن يُغلق الملف، لكن لا داعي للقلق، فأنا أتابع الموضوع مع صديق لي. اتركي الأمر لي. قول لي؛ ما الذي تخططين له؟ أود رؤيتك؟

- في الحقيقة أعمال كثيرة تنتظرني، كما أن حياة وجزائر تملآن تلك الوحدة القاتلة في البيت، فهما لا تتركانني وحيدة منذ غياب أمي واختفائها. بالإضافة لذلك بعد غد عيد ميلاد جزائر، ونحن نحضر في سرية تامة.

- جميل، هذا ما جعلني أطمئن عليك ولا أعاندك بخصوص التعجيل في زواجنا لأن حياة وجزائر معك كما أن منطقكم آمنة. المهم هل أنا مدعو لعيد الميلاد. (قالها ممازحا وهو يبتسم)...

- لا. هههه، هي جلسة نسائية.

- آه نسائية، وبامتياز، إذن ويوم عيد ميلادي ستكون رجالية، لا، لا، غيرت رأيي، سنحتفل بها أنا وأنت فقط.

حينها توردت وجنتا الشابة، وعانقت شفتيها الحزيتين ابتسامة خجولة، وأنهت المكالمة قائلة:

- إذن أتركك الآن لأنني سألتقي بحياة.

- كالعادة تهربين دائماً من كلماتي، فقط أمر أخير تذكيره دائماً من فضلك: حبي لك كقطرات تجمعت في بحار ومحيطات، وقلبي أضحى كالجزر والمد ينتظر لقائك الدائم يا عزيزتي.

- شاعر. فعلاً شاعر! مع السلامة ولتقي.

كان يوماً جميلاً صاخباً بالقادم والذاهب من العاصمة، خاصةً وأنها نهاية الأسبوع. وقد اتفقت الفتاتان على اللقاء للتحضير لعيد ميلاد جزائر.

- ألا تلاحظين التعب البادي على وجه جزائر؟ حتى أن ملامحها سكنها حزن لا أفهم سببه.

- صح، أعرف أنني قصرت معها خلال الأشهر الماضية بسبب اختفاء والدتي، لكنني صرت في الفترة الأخيرة ألاحظ شرودها وكأنها في عالم غير عالمنا.

- أحس أنها تخفي أمراً ما. ما رأيك أنت؟

- ممكن، الأيام ستكشف لنا كل ما هو مخبأ، المهم تحركي لدينا أعمال كثيرة.

الهدوء هو سيد المنزل. لا أحد فيه ولا حركة، وجزائر تحوم بين غرفة حائرة لا تفهم ما يحصل.

- بسمه. حياة أين أنتما؟ لا أفهم تتصلان وتأكدان على قدومي وبأن لا أتأخر، وعندما أعود لا أجدهما.

ثم اتجهت للصالة لأن بابها كان مغلقاً بالمفتاح وسمعته يُفتح ببطء، فارتبكت وتناقلت خطواتها وهي تنظر خائفة حائرة، وما إن وصلت إليه دفعته برفق حتى فوجئت بالصالة وكأنها أُعدت لعروس يوم زفافها. بالونات معلقة بألوان زاهية.

- سنة حلوة يا جزائر. سنة حلوة يا جزائر. سنة حلوة يا جزائر. سنة حلوة يا جميل. كل عام وأنت وردة الجزائر حبيبتي...

وقفزتا تحضنانها وهي مصدومة لا تفهم أو تعي ما يحدث، وبقيت تنظر ووحدها الدموع تحاكي ضحكتها. بعدها ضمتها إليها بقوة وهي تشهق بفرحة مكبوتة وهما تجبيانها بالمثل.

- لم أتوقع منكما هذه المبادرة حتى أنني نسيت هذا اليوم، وصرت أمقته. بعد أن جلسن حول كعكة عيد الميلاد وهن يأكلن منها، والهدايا موضوعة أمامهن.

- لماذا يا جزائر؟ فأنت عزيزة، ويومك هذا أهدانا أجمل بنت في العالم.

- لا أدري، حتى أنت يا بسمّة كل ما تمرين به وأحزانك المتراكمة ومع ذلك تذكرت عيد ميلادي.

- لكن أحزاني أنا أتغلب عليها بفضلكما يا غاليتي، وقد رضيت بما قدره الله.

- عسى الله أن يجمعكما.

ثم سكّنت قليلاً ورافق صمتها تأوه واصفر وجهها.

- ما بك هذه الأيام؟ دائماً صامته، وفي أغلب الوقت تخلدين للنوم. حتى أن جسمك هزيل وفقدت الكثير من الوزن. مرت أيام كأنها كهف طويل من الحزن والألم، ولم تجمعني فرصة لأستفسر عن حالتك

التي لم أفهمها. حزنك مع بسمه ممكن بسبب والدتها. لكن تصرفاتك وحالتك كانت غير عادية.

- لا؛ أنتما تتوهمان فقط. كما قلت ما مررنا به وكل تلك الصدمات من أدخلتنا في دوامة لا نهاية لها، وأتمنى أن تنتهي على خير.
وقطعت جزائر حديثها الذي لم يقنعهما. وغيرت الموضوع وأكملن سهرتهن يتسامرن ويتجاذبن أطراف الحديث في لهو ومزاح. فكانت ليلةً نسائيةً بامتياز.



(٩)

رسمت بسمه نظرات الفرح وعبارات الترحيب حين فاجأها السيد مصطفى مرافقاً زوجته وابنتهما -التي كانت تبلغ الثالثة عشرة وتُدعى «ياسمين»- إلى مكتبها بعد أن ربح القضية في المحكمة الابتدائية بفضلها بعد الله، وهما يستبشران خيراً على حد قولهما.

بعدما عرف بسمه على زوجته وابنته التي جاءت شاكراً إياها، وعلامات السعادة تظهر جلياً على وجهيهما، لأنهما انتصرا على ابن عمه، فأخلى المسكن كمرحلة أولى.

- هذه زوجتي عائشة، أصرت على مرافقتي لشكري.

- العفو سيدتي هذا عملي. ولا أستحق عليه الشكر.

ثم أخذوا يتحادثون فيما حصل ويناقشون ما سيقومون به مستقبلاً، لتتفرع أحاديثهم في مجالات مختلفة وكأنهم يعرفون بعضهم من قبل. بعدها لاحظت بسمه صمت عائشة وتجههم وجهها انكمشت تجاعيده في لحظة وكانت قلقة حائرة.

- سيدتي أراك مرتبكة، العفو؛ هل هناك مشكلة؟

- مصطفى انظر! لا أصدق. ألا ترى ما أراه.

ثم أشارت للصورة الموضوعة فوق المكتب على يمين بسمه. حينها حول نظره للصورة وتجمد هو الآخر. وبسمه تنظر مستغربةً حالتهما.

- أستاذة فقط سؤال. من تكون هذه السيدة؟

- هذه والدتي السيدة نعيمة؟

- آه. أتمنى أن يطيل الله في عمرها.

- شكرا. لكن لا أعرف ماذا أدعو لله أن يطيل في عمرها وأتمكن من رؤيتها، أم أدعو لها بالرحمة.

وغرقت عيناها في موجة من الدموع محاولة إمساكها.

ولما سمعا الزوجان كلامها لم يصدقا ما قالته وانفجرت السيدة باكيةً، ولم تستطع التوقف. وزوجها يحاول تهدئتها وبسمه كذلك دون أن تعلم السبب وبقيت مستغربةً حائرةً.

بعد حوالي نصف ساعة.

- تاهت كل الكلمات مني، القدر أو الصدفة. أم ضميري المتعب

الذي ساقنا إليك اليوم في هذه القضية حتى أدرك أنك الضحية وربما أنا الجلال.

- لم أفهم شيئاً مما تقوله وما علاقتي أنا؟!
- لست أنت بل الصورة، أرجو أن تسمعي كل القصة بسمة وبعدها نفهم منك، إذا سمحت لنا.
- تفضل، لأنني لم أفهم شيئاً، ولا أطيق الانتظار...
كان قلبها يرتجف كطير مذبوح.
- عدت رفقة عائلتي كما أخبرتك منذ سنة. ولم نكن نعلم بحكاية استيلاء ابن عمي على المنزل، وقد أخبرني بأن المستأجر لا يزال بالمنزل، ولم ينتهي العقد إلا بعد ستة أشهر، خلالها سيأجر لنا منزلاً صغيراً لفترة مؤقتة ولم نكن نعرف بقضية استيلاءه على منزلي...
كنت أنوي بعد عودتي شراء قطعة أرض لأستثمر فيها، وكانت زوجتي قد نجت من حادث سير خطير كاد يودي بحياتها هي وابني، عندها أخذت عهداً على نفسها بأن نعتمر في بيت الله قبل أن نستقر هنا.
وبعد أن أخبرته عن المشروع الذي أنوي إنشاءه اقترح بأن يعرفني على صديق له يتعامل في مجال بيع وشراء الأراضي، فوافقت على الفور. وفعلاً التقينا بعدها، وقصصت له كل ما أنوي فعله، لكن بعد أن أعتمر وأعود.
ففاجأني بأنه كان يبحث منذ فترة عن شخص محل ثقة ينوي الذهاب للعمرة، حتى يبعث معه والدته، فهو لا يستطيع مرافقتها بسبب زوجته

المقعدة لأنها تعتمد عليه في قضاء أمورها. وقد ساقني الله إليه حتى يحقق أمنية والدته ويبعثها لتعتمر وترجانا أن لا نرد رجاءه.

حينها أخبرت زوجتي بطلب ذلك السيد....

ثم صمت ونظر لزوجته التي كانت تعيد معه أحداث القصة بشلال من الدموع، وأكملت حينها تسرد الأحداث وكأنهما روائيَّان يحكيان فيلماً بالتناوب...

- قبلت بالفكرة دون أن أفكر وبرحابة صدر خاصة بعد ذلك الحادث المروع، وقلت في نفسي: لقد عوضني الله بهذه المرأة، حتى أحقق لها حلمها بأن هداني الله لأداء مناسك العمرة، وأظن أن هذا من أجلها وليس من أجلي، واتفقت مع مصطفى لاصطحابها معنا، هي وابني. وهكذا جرت الأمور فعلاً.

يوم السفر وفي المطار قدم ذلك السيد وكان يُدعى «رشيد» على حد قوله جالباً معه أمه ممسكاً بيدها، وعرفنا عليها، في الوهلة الأولى استغربت حالتها. كانت متوترةً تنظر يميناً وشمالاً، ولم تنطق بكلمة حتى ابنها كانت تلون وجهه علامات القلق والتوتر، حينها استفسر زوجي عن حالتها الغربية فقال لنا.

- في الحقيقة تركت زوجتي لوحدها وقد تأثرت كثيراً بسفر والدتي للعمرة، تتخيلون مشهد الوداع خاصةً بين النساء ولهذا فوالدتي متوترة،

كما أنني نسيت إخباركم بأنها خرساء، فقد تعرضت لحادث، وتلقت صدمةً إثره فقدت النطق. أرجو أن تعتنوا بها من فضلكم، فهي خائفة ولا تعرف أحدًا...

كما أنها غيرت رأيها في آخر لحظة وترفض السفر لأنها خائفة علي، وتريد التوضيح حتى بالشيء الذي طالما حلمت به، لذلك لا تستغربا، فتوترها أمر عادي وستعود عليكم، فقد أخبرتها بموافقتكما، وكم كانت فرحتها كبيرة، واليوم توترت قليلاً لأنها ستفارقنا، ولأول مرة تسافر خارج حدود الوطن.

وعندما كان يكلمها تركها جالسةً في مقعد بعيداً عنا.

بعد أن أنهى ابنها كل الإجراءات سافرنا، وأخذناها معنا كانت متوترةً، ولا تكف عن البكاء ولم نفهم ما ترمي إليه، كانت مرهقةً كثيراً، وقضت وقتها كله نائمةً في الطائرة تقريباً وكأنها مخدرة.

المهم؛ لن أطيل عليك بسر كل التفاصيل. عند وصولنا إلى مكة بدأنا مناسكنا هناك، وأتممناها في المدينة. ذهلت تلك السيدة وأصبحت الدموع تنزل من عينيها في صمت، وفرحنا أنا وزوجي لأنها هدأت قليلاً، لكن دموعها لم تجف يوماً...

وعندما كنت أحدثها عن عائلتها وزوجة ابنها كانت دائماً ترد بالنفي. وقضينا مع بعض عشرة أيام كنت دائماً أصطحبها للصلاة، وكنا

نطوف سويًا. حاولت انتزاع الخوف منها بقدر المستطاع، ومع ذلك كنت أحس أنها يائسة وغير مرتاحة، ودائمًا كانت تود إخباري أمرًا معينًا، لكن كانت لا تستطيع، ونحن استحال علينا فهمها...

كنت أحس دائمًا اتجاهها بالذنب لأنني لم أكن مطمئنة لحالتها وتأثير فعليًا في اللحظات التي نذهب فيها للصلاة مقابل الكعبة؛ حيث كانت تلك السيدة تقضي كل وقتها تبكي وهي تدعو الله وتناجيه في صمت، ولم أجد تفسيرًا واضحًا للعذاب الساكن بروحها.

إلى أن جاء اليوم المشؤوم. وقت استعدادنا للرحيل إلى المدينة المنورة ومنها إلى هنا، أكملنا كل مناسكنا واستقلينا الحافلة، وبعد وصولنا للمطار وقبل إقلاع الطائرة بحوالي الساعة استدعينا من قبل شخص هناك من رجال الأمن يعمل بالمطار أخبرنا أن هناك إشكالية في جوازات سفرنا، وعلينا تصحيحها، وإلا فلن نسافر فبقي مصطفى في أخذ ورد معه...

ولم يقتنع بما كان يقوله، وبعدها طمأنه واستدعانا للحضور للمكتب لإتمام إجراءات معينة، وطلب منا ترك السيدة وولدي خارج المكتب مع العاملة. حيث يفصل بين المكتب وقاعة الانتظار نافذة زجاجية كبيرة، كنا نرى من خلالها تلك السيدة، وولدينا ولم يغيبا عن ناظري لحظة...

بعدها طلب منا توقيع بعض الأوراق الروتينية فقط لتفادي إزعاجنا من طرف الموظفين، وما هي إلا لحظات وعند خروجنا من المكتب لم أجد تلك السيدة، وكانا ولدي رفقة العاملة جالسين. وأخبرتنا أنها خرجت فقط لقضاء حاجتها لكنني لم أصدق، فهي لا تطلب شيئاً من أحد غيري...

تملكتني حالة هستيرية وأصبحت أصرخ والجميع يهدأ من روعي، وبدأنا بالبحث عنها، لكن دون جدوى، وحان موعد إقلاع الطائرة لكن لم نستطع السفر دونها، وأصبحت أنا وزوجي كمجنونين. واضطررنا للبقاء أسبوعاً آخر بعد أن أودعنا شكوى باختفائها...

لكن؛ للأسف لم يسفر البحث عن شيء، وتحتم علينا العودة للوطن، لأن بقائنا هناك لم يكن بفائدة، ولم يسفر عن أي نتيجة، فزودنا الشرطة بكل المعلومات وصورتها مع رقم هاتفنا، ورجعنا دونها حائرين تائهين كيف نخبر ابنها.

لكن المفاجأة كانت أكبر حين وصولنا لأرض الوطن وأخبرنا ابنها بما حدث. كنا ننتظر ردة فعله، إلا أنه استقبل الخبر ببرود بعد أن أسقط دمتين أحسست أنهما كاذبتين، وأخبرنا بأن ما جرى قضاء وقدر، وربما الله أحبها حتى تموت في تلك الأرض الطيبة، ومنذ ذلك الوقت لم يلتقي زوجي به كما أنه غير رقم هاتفه.

تركنا حائرين وكأننا غريقان في بحر مظلم، لا نعرف ما حدث وما قصة تلك السيدة.

كل هذا وبسمة لا تفهم شيئاً وكأنها حبيسة صدمة أو كابوس لا تفهم ولا تعي ما يقولانه. والصدفة كانت صورة والدتها الموضوعة على يمينها. سقطت وكأنها ريشة تكسر عودها الرفيع من غصن، لتهوي على الأرض...

بقيت تنظر بوجه شاحب حائر ودموعها شلال لا تفهم ما قيل لها عن أمها، ومن هو المستفيد من كل ذلك. بقيت صامتة وهي تنظر لمصطفى وزوجته وهما صامتان لا يفهمان السر الذي بقي يحيط بجدران حياتهما؛ لا يجدان له تفسيراً.

واليوم يكشف عن أول نقطة استفهام: تلك السيدة الخرساء والددة هذه الفتاة الجميلة الناجحة، المحامية الصغيرة أستاذة القانون.

- والله يا أستاذة سردت القصة وكأنني أعيش كابوساً، واليوم على قدر إحراجي وحيرتي على قدر فرحتي لأنني وجدت رأس الخيط الذي يمكن أن يوصلنا للحقيقة بحول الله، وها أنت ترين حكم القدر في لقائنا حتى نكشف ما كان مخبأً وتنطفئ النار التي أُشعلت في قلبك.

- انطفأت النار؟؟ آسفة سيدي، وإنما أضربت وألهبت لتنتشر اليوم أكثر بين ضلوعي. لا أفهم من وراء اختطاف أمي، وماذا يستفيد.

من امرأة عاشت طوال عمرها غارقةً في تربة أرض وبين جدران قرية،
لتكملها في منزل لا تعرف فيه أحدًا ولا يعرفها سوى ابنتها...

كانت تتكلم وهي تشفق وتبكي بحرقة وألم... تقدمت منها عائشة
وأخذتها في حضنها، وقد أحست بكل كلمة تقولها خاصةً وأنها قضت
مع والدتها تلك الأيام في العمرة، وكانت تشفق عليها كثيرًا. أحست
بالعجز والقهر وهي ترى دموع وصدمة تلك الشابة التي فقدت أمها في
ظروف غامضة، وجعل المجرم الخاطف منهم وسيلةً لذلك.

بعد مرور ساعتين...

كان الجو ملونًا بلون داكن يجمع الصمت وأحيانًا المناقشة، اليأس
وبصيص أمل بمكان وجودها هذا إذا ما زالت نعيمة على قيد الحياة.
- أستاذة؛ السيد مهدي خطيبك يود محادثتك وهو مستعجل، إنه
ينتظر.

- مهدي ليس من عادته؟! حسنًا سأحضر حالًا.

- إذن نستأذن نحن، ولنلتقي في أقرب وقت. لا ترعجي نفسك الله
كريم وسيمنحك القوة.

- شكرًا جزيلاً سيدتي، إلى اللقاء سأتصل بكم بحول الله.

ثم رافقتهم خارجًا، وكان مهدي جالسًا يتكلم في الهاتف بمكتب السكرتيرة، ولم يتبه لبسمة وهي ترافق مصطفى وعائلته للباب.

- مهدي؛ ما الذي جاء بك؟

- أعذر، لكن حصل أمر طارئ.

- ما الأمر مهدي؟ أخفطني.

- جزائر في المستشفى.

- ما الذي أصابها؟

بقي صامتًا لا يدري كيف يجيب.

كانت نائمةً وكأنها ملاك وزرقة تلون محيط عينيها، أنهكها التعب والصفرة، وتلون وجهها وجسمها الهزيل وكأنها شبح. وحياة واقفة عند رأسها وقطرات من دموعها تنزل لتمر على أنفها لتسقط أرضًا وكأنها المطر، تنظر لصديقة عمرها لا تفهم شيئًا وما الذي حصل لها.

- حياة، كيف حالها وما الذي جرى؟ (بعدما سلمت عليها وقبلت

جبين جزائر النائمة).

- لا أدري! تعرفين؛ منذ لقائنا الأخير في عيد ميلادها أخبرتك بأن

حالتها غريبة، لكنني لم أستطع محادثتها بالأمر، كانت متوترةً بسبب

سفرها للمؤتمر المنعقد بمدينة وهران، وعند رجوعها منذ يومين اتصلت بها لكنها لا تجيب...

واليوم اتصلت بي خديجة زميلتها في العمل وأخبرتني أنها سقطت في المخبر أثناء قيامها ببعض التحاليل، اتصلت بك في المكتب لكن وجدت الخط مقطوعاً، فاتصلت بمهدي وأخبرته أن يحضرك إلى هنا. ثم سكنت للحظة، وهي تنظر لبسمة مستغربةً ذاك الشحوب وهو يغم على محياها.

- وأنت؛ ما الذي أصابك فتلون وجهك بالسواد والحزن؟

- لا شيء، كل ما في الأمر خوفي على جزائر.

- يافتيات لقد حضر الدكتور يمكننا مقابلته... (أخبرتني الممرضة).

جلس الثلاثة تائهين غير مدركين لما قاله الطبيب عن حالة جزائر، بعد أن طلب هويتهم والصلة التي تربطهم بالمريضة، وأقنعوه بمصارحتهم وهو يرى صدقهم في أعين تترقب مرعوبة من الاستفسار عن حالتها.

- لا أصدق، العفو دكتور، لكن أظنك مخطئاً في حالة جزائر، ربما اختلط عليك المرضى وكثرتهم، جزائر؟ لا أصدق! جزائر مريضة بالقلب؟ ضعف في قلبها؟

قالت لها حياة وهي تائهة تبكي ولا تعي ما سمعته، أما بسمه فبقيت صامتةً جامدةً، خبران في يوم واحد، لم تستطع أن تبدي أي ردة فعل سوى الصمت والنظر لحياة.

- أعرف أن وقع الصدمة عليكم ليس بالأمر الهين، لكن أتمنى أن تكونا قويتين، شخصنا مرض جزائر منذ خمس سنوات، وكانت تتابع بشكل منتظم، لكن للأسف حالتها كانت تستدعي إجراء عملية، صحيح أن نسبة النجاح لم تكن عاليةً لكن كانت سهلةً منذ ذلك الوقت، وكان الأمل أكبر، ولو لا عنادها لما تأزمت لتصل إلى هذه الحالة، كما أنني أوصيت خديجة في حالة جرى أي تعقيد تأتي بها إلى هنا فوراً.

- والحل دكتور؟ بماذا ننصحنا؟

- والله يا أنستي لم يبق سوى إجراء العملية، لأن قلبها ضعيف والأدوية لم تعد تجدي، والقرار يعود لها أرجو أن تقنعوها، وفي أقرب وقت ممكن، فالوقت ليس في صالحها.

كانت تنظر للسقف مستلقيةً على السرير بمنامتها البيضاء وكأنها ملاك، وعيناها الذابلتان ترسمان حكايةً حزينةً. سرعان ما رافقتها ابتسامة محتشمة عندما لمحت بسمه وحياة تدخلان الغرفة.

- آه منك. لا أريد لا تقبيلك ولا التحدث معك ولا حتى سماع صوتك. لماذا يا جزائر أرعبتنا عليك؟

- لا تخافي حبيتي حياة، لن أموت الآن، سأعمر طويلاً لأنك القط الذي لا يستطيع العيش بدون الفأر، وهو ينغص عليه حياته، لأنه لم يلحقه وأنا سأبقى لأجنتك.

- نحن لا نمزح، والله لا أعرف من أين أبدأ وماذا أقول، خمس سنوات وأنت في هذه الحالة وتخفين...

ولم تستطع بسمه إتمام كلماتها المرتجفة بين شفيتها فقط لأن الدموع غالتها، وهي تنظر لوضع جزائر، دموع وجع وصدمة أو بالأحرى أوجاع وصددمات توالى عليها اليوم، وهي تُنبأ بأسوء الأخبار عن أعز الأشخاص على قلبها، بدايةً بخبر أمها الذي بقي سراً، وأنهت يومها بحالة جزائر.

- أعرفك قويةً. ما بك يا بسمه؟ وأنت يا حياة؟ الحمد لله مجرد هبوط في الضغط من الإرهاق والعمل.

- هبوط في الضغط؟ كل هذا وتستمرين في الكذب؟ لا داعي لإكمال تمثيليتك يا عزيزتي، فالطبيب أخبرنا بالتفصيل عن حالتك، الآن أريد معرفة سبب إخفائك الأمر عنا، ما الذي يحدث؟ فهناك سر

أود معرفته. وأنا من ظننت أنني ملجأ لأسرارك لكن ما خفي أعظم يا ابنة قريتي وشقيقتي.

- أرجوك يا حياة، لا تزيدني الأمر تعقيداً، فهو لا يستحق.

- لا يستحق؟ قلبك ضعيف وأنت تعانين منذ سنوات، ولا تريدین جراء العملية، تخفين الأمر على الجميع، وتقولين لا يستحق، سأجن من تصرفاتك، صدقيني إن لم تبوحى بكل شيء فلا أنت صديقتي، ولا أنا أختك، واليوم هو نهاية ما بدأناه، أحس وأنا متأكدة أن في الأمر خطب ما.

- حياة يكفي هل جنت، لا تضغطي عليها أكثر، ألا تلاحظين حالتها؟

- دعيها يا بسمة. الحمد لله أنني وجدت من يلومني وعيناه تفيض من الدمع لأجلي، تلومني وقلبها يتقطع حزناً علي، أنتما عائلتي وتعرفان ما يحمل قلبي المريض لكما من حب. من الممكن أن سبب إصابته هو حزني وألمي وقسوة الزمن وعباده أو بالأحرى أقرب الناس إلي...

النفاق والكذب وتمثيل التماسيح التي تحوم حولي هي من أوهنه، وبات ضعيفاً لا يتحمل. لكن وجودكما في حياتي وصدقتكما وحبكما هو من جعله يستمر ليقاوم. لكن لم يعد هناك داع لإخفاء ما في قلبي، وسأبوح بكل شيء. فقط اعلما أن سبب صمتي وعدم بوحى بما يختلج صدري أن حكايتي ميؤوس منها كمرضي تماماً...

تنهدت طويلاً ثم استرسلت في الكلام وخيالها معلق بالماضي؛ تود إخراجه لتريح قلبها الممتلئ بالأوجاع.

— حياة تعرف كيف عشت، وهي صديقتي منذ سنوات، جمعتنا ذكريات لا تُنسى... أما قصتي فهي امتداد لحكاية قديمة دفعت أنا ثمنها...

فجدي شهيد قُتل إبان الثورة من أجل أن تُحرر هذه الأرض الطيبة. وحكاية اغتياله على يد الاستعمار كان يعلمها الجميع وهي مفخرة لأهل قريننا، ففي إحدى عملياته السرية الثورية نصبوا له كميناً وهو يحمل بسيارته المؤونة والأسلحة للمجاهدين، لكنه تفتن لهم ووقع اشتباك كبير بينهم، ولم يستطع التغلب عليهم رفقة أصدقائه الثلاثة لقلّة عددهم؛ ففُضي عليهم...

وانتشر خبر استشهادهم في القرية، وبعدها بمدة تأكد خبر وجود جاسوس؛ كان دائماً يتعقب خطوات جدي في كل أمر يقوم به.

قبيل الاستقلال بفترة وجيزة تم إعلان الهدنة بين الثوار والمستعمر، ووقف إطلاق النار، حينها وجد ذلك الخائن التابع للاستعمار نفسه وحيداً في خطر مؤكد، فقرر الهرب لكن هناك من لحق به سرّاً وقتله.

وترك أيتاماً وبقيت زوجته أرملةً تعتني بأربعة أبناء أنت تعرفينها يا حياة خالتي «رقية»، كانت من أطيب النساء وكم كانت تخجل من

تصرفات زوجها، ودائمًا تدخل معه في عراك، وكان في كل مرة يشبعها ضربًا وسبًّا، فكان يحرمها من كل شيء هي وأولادها. وبعد وفاته تكفل بها أهل القرية لأنهم كانوا يعرفونها ويعرفون طباعها الطيبة.

مر الزمن وكبر أولادها. وتزوجوا وأنجبوا أبناء وبنات من بينهم «حسام».

ثم سكنت قليلًا، وأزاحت عن صدرها ضيقًا مكبوتًا بتنهيدة طويلة، والفتاتان تستمعان لها بإمعان.

- كان شابًا خجولًا متواضعًا لم أكن أراه كثيرًا، لم يكمل دراسته، وقرر الخوض في التجارة، وتعلم أصولها. كبرنا وكبر شيء في قلبي تجاهه على إثر حادثة وقعت وكنت حاضرة أثناءها، عندما ضرب شاب رجلًا كهلاً بسبب دين عليه تعسر على هذا الأخير دفعه...

كنت مارةً من هناك، فرأيت غضب حسام وهو يرد بلكمة على وجه الشاب، وسدد دين الرجل، ثم أخذه لدكان آخر وابتاع له كل ما يحتاجه، بعدها بشهر وبالصدفة رأيته يحمل قفةً ثقيلةً يضعها أمام منزل ذاك الرجل ليعود أدراجه. موقف اهتز قلبي له، لكن في صمت...

فحسام لم ينتبه يومًا لوجودي، وأنا أعرف السبب؛ أولاً بسبب فارق المستوى التعليمي بيننا، والأمر الثاني أهلي الذين اعتبروا عائلته من

الخونة، كانوا ينكرونه لأن جده كان خائناً للوطن، كما أنه سبب موت جدي، وأدركت حينها أن عنوان حبي سيكون «حباً مع وقف التنفيذ»... ذهبت لقصري بنفسي، وأنا من دفعت الثمن، ودست على الأشواك بقدمي لأترك البصمات دماً، صديقي كان العذاب في صمت ورفيقي المرض. نحن الثلاثة كنا نتسامر على ضوء القمر مع النجوم أو تحت المطر لا يهم. المهم أنني عهدت رفقتهم، فتحول العلقم لعسل والدموع لندى وهي همزة الوصل بيني وبين أحلام استحالت أن تكون واقعاً.

رحلت عن القرية حاملةً حبي واشتياقي له الدائمين إلى يوم سمعت بأنه فتح متجراً هنا بالعاصمة، ولا تخيلاً كم ابتهج صدري لهذا الخبر، حينها قررت البحث عنه ولم يهدأ لي بال حتى وجدته، والتقيت به في مدينة محايدة نحن الغريبيين فيها...

كنت أحمل في قلبي حبه، وتمنيت أن يصل إليه دفئه. حب خجلت من البوح به للجميع، وأن أتباهى بالحديث عنه ككل الفتيات والتفاخر في أي مكان أذهب إليه، لأنه حب من طرف واحد، فتحتم علي الصمت وكبته وسجنه بين قضبان ضلوعي المتصدية؛ لأتركه للزمن كشبح محنط، لا يحيا داخلي ولا يفنى أبداً.

وتكررت زياراتي له بدافع أنني أحتاج أغراضاً معينة؛ كانت توصيني بها صديقاتي، لأنني كنت دائماً أمدح محله وما يقننيه لبيعه، وتعودت عليه

وبدأت ألاحظ اهتمامه بي، لكنني لم أصدق ولم أوهم نفسي بأمل كاذب إلى أن صار حني في يوم بحبه بعدما أصبح يلمح لي في كل مرة أذهب عنده، كما أنه طلب يدي للزواج في نفس اليوم، لأنه يعرفني وأنا بنت قريته...

كانت أيامًا وكأنها حلم تبعثرت أوراقها مع نسيمات الربيع، شتائي تحول لربيع معه وغيوم تلاشت أمام خصلات حبه لأن هذا الأخير كان شمسي، وما زاد عشقي له هو تقبله لمرضي الذي لم يكن متأزمًا آنذاك، ولم يجده عائقًا بيننا لأنني كنت مؤمنةً بأن حبي سيبقى في الظل، إما لعدم معرفته وإحساسه بي، أو بسبب مرضي...

لكنه كسر كل الحواجز ولم يأبه بالمرض، ولم يجعل منه عائقًا؛ خاصةً لعلمه أن بإمكانني معالجته، وأردت مفاجأتكما في ذلك الوقت بخبر خطوبتي وليس بالقصة، بعدما اتفقنا على السفر للقرية، ويذهب ليكلم والدي.

رسمت أحلامي ليلا وتصورتها تُتَوَّج صباحًا تحت خصلات تلك الشمس وأهل القرية يشهدون ولادةً عسيرةً، تألمت وحدي وأنا أحمل هذا الحب داخلي لأراه يُولَد اليوم، لكنني سأنجب أروع ولد اسمه العشق. واتفقت مع إسماعيل بأن لا أخبر عائلتي بقدومه وهو يعرف مزاج والدي الصعب والحاد، ولأنه رجل متسلط صعب المراس، وأمثل بأنني

أجهل قدومه غير آبهة أصلاً هكذا كان اتفاقنا. وكنت أنوي مفاجأتكما، لكن أنا من فاجأها القدر.

كان قلبي يدق مع دقات الباب، حين قدم جارنا يخبر والدي بأن أب حسام يحتاجه، فخرج مسرعاً مستغرباً قدومه.

مرت حوالي الساعة على غيابه وأنا أمثل دور الغير مهتمة، لكن قلبي زاد من دقاته، وكأنه كان يدري ما ينتظرني، وأحسست أنه سيخرج من ضلوعي، وما هي إلا لحظات حتى سمعت الباب يُوصد بقوة، وزُلزِلت له جدران البيت. واهتز له قلبي، وتحولت دقات الانتظار لخوف وفزع. ركضت بعدها أُمي خلفه للغرفة تستفسر حالته الغريبة.

مرت الأيام والعد التنازلي للعودة إلى العاصمة، ولم يخبرني أحد بما جرى لا والدي ولا أُمي، وتركاني بفكري المشوش وقلبي المرتعش أحوم في دائرة مفرغة مظلمة؛ أحاول إيجاد بصيص من النور، لكن ما من مجيب...

وفي آخر ليلة لي هناك كنت أستعد للسفر بقلب مكسور أصبح لا يفرق بين ولادة الفرحة وموتها. لمحت أُمي تقترب مني بخطوات متثاقلة، جلست وبقيت تنظر إلي في صمت، لم أعر نظراتها اهتماماً وواصلت توظيف حقيقتي.

- تعرفين ماذا كان يريد ذلك الرجل من والدك؟

وقد فاجأني بسؤالها.

- من تقصدين؟

- ومن غيره؟ والد حسام.

- وما أدراني بسبب قدومه...

حينها أحسست روعي تكاد تخرج من مكانها وأنا أحاول إخفاء خوفي.

كانت جزائر تسرد قصتها وهي ممددة تنظر للسقف لا تحرك عينيها ودموعها سقت وأغرقت تلك الوسادة، لو كانت تربةً لأنبتت ورودًا حزينَةً بلون رمادي، وعطرها نسيم الألم والوجع. وصديقتها تتمنعان وتسمعان صراخها الدفين من كلماتها الذابلة المبحوحة، وواصلت قائلةً:

- تخيلي؟ تقدم لخطبتك ابنه حسام، جاء وبكل وقاحة يطلب أن نزوجه

ابنتنا من حفيد الخائن، ومن تسبب في قتل جدك والوشاية به، أرادوا بكل وقاحة أن نمرغ اسم عائلتنا في الوحل بارتباطك من ابنه، لا أفهم جرأة البشر ووقاحتهم. لكن والدك أسمع ما كان يستحقه، وعلمه تاريخ بلاده المشرف والتي حملها جدك وتاريخ والده المخزي، وطرده من هنا.

- لكن لا أفهم ما دخل حسام ووالده في ذنب لم يقترفاه، كما

أنهما من أبناء هذا الوطن، وهناك من أهله من استشهد في سبيل

أن يُرْفَع علمنا، وهما وفيان لوطنهما، لست أفهم حقاً أفكاركم المتصلبة الظالمة.

- هل جُنِنت؟ إياك وذكر مثل هذه الأشياء أمام والدك. عائلة حسام من الخونة؛ قتلوا جدك، وتريديني أن أفرح بمصاهرتهم، على جثة والدك وجثتي تتزوجين من الخونة.

- لكن يا أمي؛ أي خونة وما ذنبهم؟

قاطعتني بغضب وسخط...

- كفى مناقشةً عقيمةً، أخبرتك لإعلامك فقط حتى تكوني على علم إذا ما حاول ذاك الفتى التقرب منك. صديهِ، وأظنه لن يحاول، فوالدك أسمعهُ ما يستحق. أتركك الآن لتكملي ما بدأت بتوطيهِه. غداً تستيقظين باكراً.

ثم استدارت جزائر على جنبها الأيمن تكمل سرد انكساراتها المتتالية وهي تفاجئ الفتاتين وكأنهما يعرفانها لأول مرة.

- تمنيت مفاجأتكما بأحلام تصورتها حقيقةً؛ لكنني انكسرت مرةً أخرى، ويا ليتني لم أتقرب منه وبقي حلمًا بالنسبة لي، وبقيت صورةً نقيّةً في عينيه، فوالدي لم يأبها بي وأنا طفلة، وفضلوا كرامتهم على التضحية من أجلنا، وعندما كبرت وكبر الحلم معي تمنيت تحقيق حلم جميل

حين دق الحب باب قلبي، لكن تبخر في لحظة بسبب وفائهم لوطنهم
كان في غير مكانه، وضد الشخص الخطأ، وعلى حسابي قلبي أنا.

- وحسام؛ أين ذهب؟

- لا أدري؛ أخبروني أنه ترك المحل، ولم أعد أسمع عنه شيئاً حتى
وصلتني في أحد الأيام رسالة منه يخبرني بأنه قرر شطب اسمي من
ذاكرته وأوراقه وحياته حتى ولو كان على حساب قلبه، وبما أنه خائن
للوطن من غير المشرف أن أتحدث أو أنظر حتى إليه...

وإن كلمات أبي تركت في نفسه جرحاً لن يُداوى بالرغم من أن
وطننا داوته الثورة والاستقلال، ومسحا بعض دموعه المنهمرة على
أرض سُقيت بدماء الشهداء، لكن هو؛ لن يكف دمه عن النزيف ما دام
اسمي ينبض في قلبه، وهو يريد إيقاف نزيفه، لذا سيعتبرني من اليوم
ميتةً وذكراي دُفنت مع اسمي.

ومنذ ذلك الوقت وأنا أصطنع فرحةً حزينةً حتى أحاول إخفاء
أوجاعي، ولا يراها الناس وأضغط على صدري وأخفي فضيحة عائلتي
المتسلطة، وبقيت أعاني وأعاني في صمت، لكن قلبي المسكين لم يعد
يحتمل كل جبهات الألم التي استهدفته وقصفته برصاصات كثيرة،
فسقط وهوى وهو الذي كان شامخاً لا يرضخ أبداً...

قررت الانتحار ومعاقبة أهلي بأن لا أخبرهم بحالتي التي تأزمت، والفضل يرجع لهم. لم أطلب المجيء إلى هذه الدنيا، وليس ذنبي أنني أحببت حفيد رجل خان الوطن، كما أنه ليس ملزمًا بتحمل ماض لم يقترفه، فأجدادنا قاموا بواجبهم، ورحلوا ونحن من تحملنا أوزار بعضهم، وغُصِب حسام على الرحيل، واغتصب أقرب الناس ضحكتي المسروقة، استعدادها للحظات ثم هربت هي الأخرى.

صمت الجميع وأطلقوا العنان لدموعهم وجروحهم تفتحت. كل تبكي حالها وترثي صديقتها، وبقيت الإثنتان تنظران لبعضهما وفي لحظة. هوت الشابتان على جزائر تحضنانها وتقبلانها فهي عزاءهما وهي سندهما.

وأكملن حوارهن بعد أن هدأن، وفي الأخير اقتنعت بإجراء العملية. فسكتت ورضخت وكأن الأمر لا يعنيه.

خرجتا من الغرفة وتركنا جزائر نائمة، وكانت مرهقة متعبة وهما راحتا تتحدثان في رواق المستشفى:

- لا أدري يا حياة، لكن أحس جزائر تسايرنا فهي غير آبهة لحياتها، ولم يعد يهمها شيء، وأنا خائفة جدًا.

- فعلاً. كانت تخفي الكثير ولم تظهر سرها، أحسست اليوم وكأنني أراها للمرة الأولى. لكن لن تكتمل حكايتها هكذا، ويجب أن نتدخل لنغير المسار بإذن من الله.

- ماذا تقصدين بقولك؟

- سأخبرك لاحقاً. وأنت مالي أراك على غير حالتك، فصحة جزائر وما طرأ مؤخراً منعي من سؤالك. ومهدي هو الآخر منذ اليوم الأول على دخول جزائر للمستشفى لم أعد ألمحه. لا في المكتبة ولا في مكتبك؟ أجابت بعدما أخرجت تنهيدة قوية استنشقت فيها الألم وطردت الأمل والبسمة.

- مهدي سافر لفرنسا استدعوه لأمر عاجل حتى يكمل أوراق والده رحمه الله، والمكتبة تعلمين أن سمير حصل على وظيفة حكومية، وتركني غارقة لا أعرف ما أفعله من دونه، كان يدي اليمنى في إدارة المكتبة، أما أنا فلن تصدقي ما سمعت. آه والله، تعبت واختلطت علي كل الأوراق.

وفيما هما كذلك حتى لمحت مصطفى موكلها قادماً من بعيد يتفحص الغرف الواحدة تلو الأخرى. فقطعت كلامها مستغربةً.

- السيد مصطفى. نعم إنه هو. ما الذي يفعله هنا؟!

- نادته، فقترب مسرعاً باتجاههما.
- كيف حالك أستاذة، وصديقتك كيف هو وضعها؟
- شكرًا سيدي؛ الحمد لله حتى هذه الساعة وضعها مستقر، لكن العفو منك؛ لما أنت هنا؟ هل عندك مريض؟
- في الحقيقة لا؛ أردت رؤيتك وطلبت من السكرتيرة تزويدي باسم المستشفى. هناك أمر طارئ، وأتمنى أنني لم أتأخر بقדومي.
- ما الأمر سيد مصطفى؟ أربكتني!
- أريد مكالمتك على انفراد لو سمحت.
- حسنًا بسمه، سأترككما الآن لأذهب وأتفقد حالة جزائر، سَعدت بالتعرف عليك سيدي.

- بعد مرور ساعة ونصف تقريبًا.
- كانت حياة تمعن النظر في جزائر وهي نائمة كملاك كأنها فتاة أخرى، سعيدةً بغفوتها تخاصم العالم كله أو تحاول الابتعاد عنه بأي طريقة.
- كانت تنظر إليها بقلب يتقلب على الجمر ويحترق لحال صديقتها.
- آه، بسمه؟ عدت؟ لماذا تأخرت؟ هل هناك خطب ما؟
- لكنها بقيت صامتةً، وأسرعت بالجلوس على الكرسي. كان وجهها شاحبًا وكأنه سيُغمى عليها.

- ما بك بسمه؟ لما أنت على هذه الحالة؟ ما الذي قاله ذلك الرجل؟
- لا أدري، وما عدت متأكدةً من شيء، آه يا إلهي كثير ما يحصل
لنا. ألطف بحالي يا رب.

وبقيت تائهةً تردد كلماتها الغير مفهومة بنبرة تتقدمها موجة من
الدموع، وبصوت مبحوح وهي مصدومة مطأطئة الرأس لا تعي ما
يدور حولها.

- بسمه. بسمه. انظري إلي، أنت تخيفيني. أخبريني بما يحصل.
كل هذا وجزائر غارقة في نومها لا تحس بما يدور حولها.
- لن تصدقي يا حياة، فأنا لم أخبرك بالقصة الأولى لأفاجأ بالثانية،
لم أعد أستطيع التحمل.

وبعدما هدأت قصت عليها حقيقة خبر اختفاء أمها، لتكمل لها
سبب قدوم مصطفى للمستشفى.

كانت المفاجأة والصدمة وحياة تنصت باهتمام لبسمه حتى أنهت
كل قصتها، بعدها ساد الصمت لدقائق.

- من سيستفيد من خطف أمك؟ ولم هي بالذات؟ من له مصلحة
في كل هذا؟

- قلت لك ما أخبرني به مصطفى تَوًّا، أكاد أجن.

- بسمه لن تصدقي كلام طفلة صغيرة، كما أن ما قاله منذ قليل
ذاك السيد يحتمل الصواب كما يحتمل الخطأ انتبهى ولا تتسرعي ولا
تخلطي أوراقك في لحظة ضعف.

- أنا أيضًا لم أصدق كلامه، وقد احترم رأيي. لكنه أرضى ضميره
على حسب قوله، وأخبرني بما قالته ابنته.

ولم تكمل كلامها حتى سمعت جزائر تنادييهما.

- حياة. ناوليني كوب ماء، أحس بألم شديد في صدري وكأنه وخز
إبر. آه؛ لا أستطيع التحمل.

أصبحت تن من الوجع بصوت ذابل متعب.

- بسمه؛ أسرعى نادي الطبيب، أسرعى. جزائر تحملي أنت بخير عزيزتي.

بعد مرور أسبوع...

- ألو كيف حالك؟ اشتقت لك كثيرًا.

- وأنا أيضًا، هل سيطول غيابك؟

- لا أدري، يتوقف ذلك على الأوراق والإجراءات، يجب أن أكملها.

تعرفين، تخصص والدي رحمه الله. دعيك مني، كيف هي جزائر؟

- شجاعة حتى هذه الساعة أو تتظاهر، لا نعرف، لكنها ضعيفة ومتعبة للغاية، بعد حوالي الساعة سيدخلونها لغرفة العمليات.
- تمنيت أن أكون بجانبك في هذه اللحظات، لكن.
- أنا أيضًا، مهدي؛ أحتاجك كثيرًا.
- بلغني تحياتي لجزائري وتمنياتني لها بالشفاء. كما أنني أشتاق لك اشتياق الأرض للمطر تعرفين ذلك.
- تبسمت، ثم ودعته على أمل لقاء قريب يجمعهما.
- كانت ترتدي بدلة زرقاء وقبعة من البلاستيك الشفاف تغطي رأسها وهي جالسة على كرسي متحرك، تتوسط حياة وبسمة، وهي ممسكة بهما وعائلتها خلفها، وكأنها عروس يوم عرسها، لكنها تُزف لغرفة العمليات عوض حبسها، تنظر للفتاتين وهما تشهقان بالبكاء، لم تتمالكا نفسيهما، أما هي فقد كانت تبسم في صمت ووجهها المنير زادها جمالاً، ثم ضغطت على راحة يديهما بيديها، وجذبتهم إليها ووضعت يديها على كتفيهما ممازحة كعادتها.
- هكذا كنا في الجامعة دوماً أنا من أتوسطكما، وإذا ما رحلت لا تعانقان بعضكما، وإنما أترك مكاني بينكما دوماً، سمعتما يا خائنتين.
- ثم قبلتهما وعائلتها ترافقها، وأدخلت للغرفة وهي تلوح بيديها ترافق شفيتها ابتسامة رائعة وكأنها ملاك.

بعد العملية، ومرور خمس ساعات...

كانت مُحاطَةً بأنابيب وآلات تكبلها، وهي كالميت ينتفض قلبها الحزين على تلك الآلات، وكأنها أسيرة تلك اللحظات والكل ينظر إليها بعين متلهفة خائفة دامعة، وشفاه تدعو الله وترجاه. حيث أكد الطبيب لهم أن حالتها غير مستقرة، ولم يبق بيدهم شيء سوى الانتظار. ولم تشفع لها تلك الأجهزة وهي محاطة بجسمها تحسه يتوسل ليتحرر من كل تلك القيود وكأنها أخطبوط يلفها.

فجسمها الذي كان يرقص وهو يحمل روحها المرحمة المبتسمة المازحة اليوم هو كالخشبة؛ مسلمةً نفسها لا حول لها ولا قوة، فاتحةً فمها لجهاز اغتصب ابتسامتها التي لم تفارقها يومًا، لكن قلبها حكم عليه بأن يكون أسير الزمن لم يحقق لها ما كانت تتمناه، فدفع قلبها ثمن ألمها ووجعها.

- ألو. بسمّة صباح الخير، كيف هي جزائر اليوم؟

- أحسها متعبّة. مر أسبوع وحالتها غير مستقرة، أين أنت الآن؟ وهل ما نويت فعله سيتحقق؟

- لن تتخيلي؟ وجدت مكانه بفضل طالب عندي، وتبين أنه يعيش هنا في العاصمة، لكنه يقطن في حي غير معروف. قابلته وقصصت عليه ما حدث مؤخرًا بالجزائر، فتأثر كثيرًا ووعدني بأنه سيأتي غدًا.

- أحسنت. وأتمنى أن تسعد بهذه المفاجأة.
- كان اليوم جميلاً يصاحب شمسُه الخجولة نسيماً بارداً يوحي
بقدوم الشتاء، وبسمة جالسة عند رأس جزائر وقت الزيارة تحاول
إقناعها بأن تأكل.
- فعلاً أتعبتني، حاولي أن تأكلي اضغطي على نفسك يا جزائر.
- لا أقدر يا بسمة فقدت شهيتي.
- وكيف ستعافين؟ لن يحدث ذلك بهذه الوتيرة.
- ههه، أتعافى؟ أشك في ذلك، فأنا أزيف ما بقي لي من أيام بأمل
كاذب، لكن الحمد لله رضيت بقضائه.
- أحست بسمة وهي تسمع هذه العبارات وكأن سكيناً غُرِزَ في قلبها،
وبقيت تنظر إليها حزينةً، ثم قطعت ذلك الصمت مواصلةً.
- يكفي. مزاحك ثقيل اليوم، فأنت كالوردة تتفتحين يوماً بعد الآخر.
- أين حياة؟ تأخرت اليوم، ألن تأتي لزيارتي؟
- بلى؛ ستحضر، فقط أخرها أمر خاص. لقد اتصلت بي.
- واستمرت تحاول إقناعها بأن تأكل.
- مرت الدقائق وهما كذلك حتى سمعتا الباب يفتح. إنها حياة.
- مرحباً يا حلوة، أراك مشرقةً.

- لما تأخرت في القدوم؟

- هناك من ينتظر في الخارج؛ يود مقابلتك جزائر، وهذا سبب تأخري.

- أكيد؛ فليفضل...

كانت مستلقيةً تحاول الكلام بصعوبة.

لم تصدق عينيها. رأتها دخل الغرفة بخطوات متثاقلة، كما كان في السابق فقط. تغير وجهه بتلك اللحية والشارب، تحسه أصبح مسؤولاً وأكثر نضجاً، تكلم. ابتسامته خجولة ترافق شفثيه وبنبرة هادئة بعدما ألقى السلام على الفتاتين.

- حسام؟! -

- نعم؛ حسام... ظننت أنني لن أزورك. نحن جيران يا جزائر وعشرة طويلة جمعتنا.

فهمت كل شيء، وعرفت أن هذا اللقاء كان مخططاً له، والتفتت تنظر بحدة لحياة، هذه الأخيرة التي توترت وتجنبت نظراتها محاولة الهرب.

- بسمه، تعالي من فضلك أريدك في أمر خاص نتكلم خارجاً.

بقي الاثنان نظران صامتتين، وجزائر لا تستطيع حتى الجلوس، وكل تلك الأنابيب الطبية تلف يدها، والتعب باد على وجهها المصفر.

- لم أعلم بما جرى لك لولا صديقتك التي بحثت عني وهي مشكورة في سعيها.

- آه؛ حياة. أجل، لكن لم يكن هناك داع لتتعب نفسك.

- ما الذي تقولينه يا جزائر؟ فلك مكانة خاصة في قلبي.

- أجل أعرف ذلك، لكن كان ذلك في السابق، فما قاله والذي جرح لن يداويه شيء، وأنا وحدي من دفعت الثمن... تعرف يا حسام، المهم عندي أنك حضرت. أعرف أنها ستكون المرة الأخيرة التي أراك فيها، تذكرني من فضلك ولو مرة في السنة، وأتمنى أنني سأترك في قلبك أجمل ذكرى...

بنيت آمالاً عليك، وأنت من ستعوض حزني بفرح، وتمحو ألمي بابتسامة، لكن قررت عائلتي أن تغرس بدلها جرحاً غائراً...

صحيح أنني افتقدتك كثيراً، لكن تمنيت لك الأجل، وأدركت أن الله يحبك حتى لا يربطك بزوجة مريضة تعاني معها بقية حياتك، لكن الفضل لو الذي اختصر عليك كل هذا العناء.

ثم لمست بإصبعيها خاتم الزواج في يده وأخذت تديره وأكملت.

- لا تحاول إخفائه حتى لو نزعت من إصبعك لكن لن تحذفه من حياتك، ولن تنتزعه من قلبي. أنصفني القدر لكن عائلتي من خذلتني،

وأهدت من سميته حببي لامرأة لم تصنع من حياتها معك حلمًا، ولم تسطره بين أوراق ألمها، وهي تنتظر أن تتبعثر الورود على صفحاتها لوجودك بقربها.

لكن قرر العالم إبعادنا لسبب لم يكن لنا فيه أي ذنب سوى أننا نحمل نفس الدماء، ويجمعنا نفس الوطن.

خجل من دموعه التي تساقطت ومسحها بسرعة. وأخفى وجهه بكفه وهو ينصت لمن تمنى مرافقتها طوال العمر. لكن كرامته جُرحت وأراد إعادة الاعتبار لها على حساب قلبه فرحل هو، وجرح الآخر.

- أتمنى أن تبقى صامتًا وتكون آخر صورة لك وأنا أودع قلبي، لأنني سأتركه بين يديك وأفصله عن روحي. أتمنى لك كل السعادة التي حلمت بإهدائها لك. ارحل يا حسام ولا تعد، فغيابك وبعذك أضحيا جنةً بالنسبة لي، ارحل أرجوك. وأشكرك على زيارتك. ستكون آخر ذكرى أخذها معي.

لم تستطع إيقاف دموع عاهدت نفسها على عدم ذرفها. وهي تنظر لآخر خطواته، وتستنشق بقايا عطره لتطلق زفيرها المتعب المنهك.

- لا تبكي يا جزائر فالله سيعوضك سعادة الدنيا.

عندما دخلت عليها صديقتها ووجداها تبتسم بدموع غلبتها، ثم ضحكت وقالت لهما:

- فاجأتماني بحسام وأنا سأفاجئكما بالرحيل، فقط تذكرنا تلك
المجنونة وزوراني بدعائكما حبيبتني.
ثم دقت نظرها لبسمة وخاطبتها:
- وما يحز في نفسي أنني لن أرى خالتي نعيمة. فالحياة مفاجآت.
ثقي بالله يا بسمة، فهو أكبر من الجميع ورحمته سبقت كل شيء.
استغربت بسمة حديثها وقاطعتها حياة.
- مزاحك اليوم ثقيل، أرجو أن تغيريه أو سرحل.
وبقيت تمازحان جزائر وتتجاذبان أطراف الحديث حتى تخففا من
أحداث اليوم وزيارة حسام لكن لا مرد ولا تغيير لقدر الله.

سأت حالة جزائر التي رافقت بعينها الذابلتين غيبوبةً طويلةً بعد مرور
أسبوع من لقاءها بحسام، وتركت وصيةً لعائلتها بدفنها أمام قبر جدتها.
كان الجميع ينتظر في الرواق وأمها تبكي بصوت مسموع، تندب
فراق ابنتها والكل مجتمع بعدما دخل الدكاترة مسرعين لغرفة الإنعاش،
وبين كل ذلك الجمع بقيت الفتاتان تنتظران أملًا يطرق قلبيهما بعودة
جزائر فأكهة الشلة كما كانتا تقولان عنها دائمًا.
- آسف....عظم الله أجركم ورزقكم الصبر. {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}.

رحلت جزائر كالعروس تحمل طرحتها وفستانها كان كفنها، وقلبها الصغير الذي لم يتحمل خيبتها وأحلامها المؤجلة المبخرة كدخان يلامس الغيوم. رحلت وهي كالوردة تاركةً صراخًا يتبعها يلومها على رحيلها المبكر.

كان حسام بين الموجودين، وأسرع ووضع المحمل على كتفه، وكان على يمينه والد جزائر، رmqه بنظرة خاطفة مصدومًا حائرًا بعدها انفجر باكيًا وفهم ما اقترف في حق الشابين، لكن بعد فوات الأوان. أما بسمه وحياة فتبعتا جزائر للطريق متعانقتين تبكيان بحرقة، تنظران إليها وهي محملة كأميرة على الأكتاف، وتخيلتا صورتها وهي تودعهما بابتسامة مرحة مشرقة.

كان منزل جزائر يعج بالنسوة، وكما تجري العادات يحضرن العشاء لكل الذين حضروا العزاء، أما بسمه وحياة فكانتا تساعدان أهل جزائر بقلب يعتصر ألمًا ويقطر دمًا، في صمت تعملان وتخيّلان صورة صديقتهما التي رحلت وتركت بصمتها في روح كل من عرفتهم.

كان قبرها يتوسط المقبرة بين كل تلك الأعشاب والحصى والقبور، وقفت الشابتان جامدتين وكأنهما صخرتان لا تتحركان فيهما سوى عيون تذرّف دموعًا حارةً في صمت، وبقيتا تنظران لتربة غطت جسد رفيقة دربهما...

قرأنا الفاتحة على روحها ورفعنا كفيهما لله تشهقان وتتضرعان
له برحمتها وتنوير قبرها، ودعنا صديقة العمر للأبد ثم شبكتا يديهما
ورجعتا أدراجهما للعاصمة بعدما مكثتا ثلاثة أيام. وتركنا أمها تتوسل
إليهما قائلةً بقلب يعتصر وجع الفراق.

- تذكرا في من فضلكما، فقدت ابنتي، لكن الله عوضني باثنتين،
حملت في قلبها حبها لكما، لكن لم يتحمل هو فرحتها البريئة، وقرر
خطفها وهي في ريعان شبابها، الحمد لله بما أعطى وبما أخذ...

وعانقتهما كأنها تعانق ابنتها، عناق ألم واشتياق ليس بعده لقاء. ثم
حملتا حقيبتيهما وتركنا الجميع خلفهما يودعوهما، نظرنا آملتين عليهما
تجدان جزائر بينهم، لكن قرار الموت لا رجعة فيه لا يتراجع، ولا يأبه
بالدموع ولا بالتوسلات.

وداعاً جزائر، لكنك في قلوبنا حاضرة. وحدها ابتسامتك من تجعلنا
نستمر رغم مرارة الأيام بدونك. وداعاً صديقتي.



(١٠)

بعد مرور عشرين يومًا...

كعادتها؛ بسمّة منهمكة في مكتبها، وتذكر رحيل جزائر، ولا تستطيع نزعها من عقلها وقلبها المتألم.

— أستاذة السيد مصطفى يريدك في أمر عاجل.

— السيد مصطفى، خيرًا إن شاء الله، أدخله فورًا.

— صباح الخير أستاذة، أريد أن ترافقيني فورًا وفي الحال.

كان مستعجلًا وملاحه تكسوها صفرة قاتلة.

— ما بك أستاذ؟ يكفي ما أنا عليه. لا أريد صدمات أكثر.

— من فضلك أستاذة، ثقي بي هذه المرة أرجوك.

كان رواق المستشفى طويلاً وقدمائها تتشابك؛ لا تعرف كيف تخطو

خطواتها من شدة ارتباكها وهي ترافق مصطفى وزوجته الذين رفضا إخبارها أي شيء... دخلت متثاقلة الخطى مرعوبة وقلبها يتنفص.

— مرحبًا أستاذة، تفضلي.

كان شرطياً يلبس بدلته برتبة عالية في المكتب رفقة طبيب هو الآخر بادلها بالسلام، ورحب بها مبتسماً والجميع ينظر إليها وهي حائرة تنظر في صمت.

- أدرك أنك مستغربة، نحن من أمرنا السيد مصطفى بإحضارك إلى هنا. اتصلنا به منذ ثلاثة أيام وأخبرنا أنك مسافرة، وما إن وصلت استدعيناك فوراً.

- نعم؛ كان عندي مؤتمر خارج المدينة. لا أفهم سيدي سبب قدومي. هل هناك خطب ما؟

- لا تخافي، كل خير. يمكنك مرافقتنا من فضلك.

- إلى أين؟

- لا تستعجلي الأمور، سيتوضح كل شيء.

دخل الشرطي الغرفة رفقة الطبيب وبسمة تتبعهما لا تعي ما يدور حولها، وجدت ممرضتين واقفتين تحاولان مساعدة شخص يظهر أنه مريض، لكنها لم تستطع رؤيته.

- هل أنهيتما عملكما وحقتما ذراعها ليصلها المصل.

- نعم دكتور.

- تقديمي أستاذة أرجو أن تتعرفي على مريضتنا.

فعلت بسمة ما قاله الطبيب وهي ترتعد لا تفهم شيئاً، واقتربت من السرير والجميع محاط بها يترقبون ما ستفعله، وهل ستتعرف على هذه المريضة. فتحت عيناها وأغلقت فمها بيدها من هول المفاجأة، قبل أن تترك العنان لصرختها وفشلت في كبت انفجارها، بقيت مصدومة كأنها في حلم أو كابوس؛ لا تفهم نوعه سوى أنه أمر فاق تصورها ليكون واقعاً وحقيقة أمامها...

وأول كلمة أعلنت بها صدمتها صرخة مدوية جمعت كل من كان في غرفته قريباً أو بعيداً عنها؛ وكأنها تبعث رسالة تدعو العالم كله لسمعها ويراها.

- أميسيسبي!!

تجمع كل من في المستشفى على صراخ بسمة التي وثبت على ركبتيها تقبل أمها المستلقية على فراشها من رأسها لأخمص قدميها غير مصدقة. وأمها تنظر إليها لا تستطيع الحركة سوى أنها تمسح براحتها على شعر ابتتها تذرف الدموع بصمت كعادتها...

كانت نحيفة جداً وعلامات الوهن والتعب بادية على ملامحها الحزينة، والجميع ملتفون حول بسمة -من يعرفها ومن لا يعرفها- يكون أمام ذلك المشهد حائرين متألمين من ذلك المنظر وتلك العبارات.

- ما الذي حدث لك عزيزتي؟ ومن فعل بك هذا وأخذك خارج الوطن؟ آه يا إلهي. وجسمك تكسوه جروح وكدمات؛ أصبحت كطفلة من شدة النحافة، حسبي الله في من فعل بك ذلك.

وأكملت تقبل يديها ورجليها تبكي بحرقة حالة والدتها التي كانت تجيبها بدموع مجروحة...

- تعالي يا بسمة... اتركها تستريح. يريد مفتش الشرطة التحدث معك.

وأمسكتها عائشة ومصطفى وأوقفها وأخذها إلى مكتب الطبيب. بعد أن استرجعت بعضاً من هدوئها وطردت خوفها وارتباكها حينما اطمأنت على أمها التي تركتها نائمة.

- سيقص عليك هذا السيد «عبد المالك» ما حدث لوالدتك فهو من اكتشف أمرها، تفضل سيدي...

- أولاً الحمد لله على سلامة والدتك، ولا داعي للبكاء. لو تعرفين ما حدث لها، وبالرغم من كل شيء فالله يحبكما أنتما الاثنين.

- قررت الذهاب لأداء مناسك الحج رفقة والدتي وزوجتي ووفقنا الله لذلك... وبعد مرور أيام - وبالضبط يوم الانتهاء من عرفة وقد دتم نصب الخيام للحجاج. كان يوماً حاراً، ونحن نسبح وندعو الله

متلهفين قانتين خاشعين - لاحظت زوجتي امرأةً تتجول بين الخيام، تنام أمام واحدة وتجلس بجانب الأخرى، وهي في حالة يُرثى لها... كانت تتجول بملابس متسخة وقدمها نصفهما يلامس الأرض ووجهها متسخ، وكلما جلست أمام خيمة يتصدق عليها أهلها بالأكل والماء. حتى وصلت لخيمتنا...

راحت زوجتي تنظر إليها باهتمام وأخبرتني بأمرها، لكنني لم أعرها أي اهتمام، لكن الفضول دفع بها لملاحقتها، ثم لاحظت جمعاً من النسوة يحمن حولها، ويسألنها إن كانت تحتاج لشيء أم أنها ضائعة، فردت امرأة من بينهن قائلةً: أظنها متسولة؛ تعيش على صدقات الحجاج، دعنها وشأنها.

وما إن رأيت والدتك كل تلك النسوة يحاورنها ويتجمعن حولها بدأت بالبكاء وهي خائفة، ثم أمسكت بطرف إحداهن تتوسل إليها وتئن، لكن أحداً لم يفهمها، وبقيت تبكي وتبكي...

بقي الجميع محتاراً كيف يعاملها، لم تستطع زوجتي النظر من بعيد وهي ترى حالتها التي تبكي الصخر، فتقدمت منها بعدما طلبت منهن الابتعاد قليلاً لأنهن أخفنها، وحاولت طرح الأسئلة عليها وهي تحاول تهدئتها...

وما إن سمعت لهجتها أمسكت بها وضغطت على كفيها بكلتي راحتيها، ورفضت تركها وأصبحت تبكي، وهي تئن وتستنجد بها حينها اجتمع جمع غفير بهما حتى حضرت الشرطة.

رفضت زوجتي تركها وأصررت على مرافقتها. حاولت الشرطة استجوابها لكن دون فائدة، ووالدتك خائفة تمسك يد زوجتي ورفضت أن تتركها. استغرب الجميع إصرارها وحسبوا أنها كانت معنا، ونحن نود التخلي عنها لكننا أفهمناهم كل الحكاية، وبعدها تأكدنا أنها خرساء - آسف على التعبير - ولم نجد حلاً لمعضلتها، وبقينا كذلك حتى تنبعت لفكرة فطرحتها عليهم:

أظن أن هذه السيدة كانت تتجول منذ مدة طويلة، ولم ينتبه لأمرها، أحد كما أنني متأكد من أنها كانت فاقدة للذاكرة، ورجعت إليها بعدما تجمعت النسوة عليها، وكانت مرعوبةً منهن...

وما إن وصلت زوجتي وسمعتها تحدثها حتى التصقت بها، ورفضت مفارقتها، وكأنها تفهم لهجتنا، لذا أقترح أن نعرض عليها كل أعلام الدول العربية حتى نتأكد من جنسيتها، وبعدها نحاول أن نعرف سرها، فأجابني شرطي سعودي ساخرًا.

- لكن يا سيدي أظنك تمزح، السيدة مجنونة.

- وكيف تأكدت من ذلك، دعنا نجرب ولن نخسر شيئاً.

وفعلاً قمنا بالتجربة وأخذناها لغرفة سطرت فيها كل الأعلام العربية، وأمسكت زوجتي بيدها وأصبحت تمررها بكل الأعلام وتسألها: هل أنت من مصر؟ هل أنت من تونس؟ هل أنت من...؟

لكن المرأة صامته لا تعير الأمر أي اهتمام، وبقيت تسألها وهي تمر بها على كل علم، لكن دون جدوى. وبدأنا نفقد الأمل، إلى أن حصلت المفاجأة حين استدارت زوجتي للشرطي وهو يكلمنا بعدم جدوى سؤالها لأنها لا تعي ما يدور حولها، وسيتم نقلها لمصلحة لمعالجتها، ثم لدار المسنين...

فبينما نحن نتناقش إذ بنا نسمع صراخها، وأنيباً حزيناً؛ ووجدناها تعانق علم وطننا الجزائر، تبكي وتقبله بحرقه ثم تعاود احتضانه، لتختم دموعها وأنيبها بلحن حزين وكأنها تغني...

فعلاً؛ كان لحناً كما كانت جداتنا تدمدم به، هنا فهمنا سبب تمسكها بزوجتي لأنها فهمت لهجتها الجزائرية وحت لها، فهي وطنية حتى النخاع ممن يحنون للوطن ويعشقونه؛ فسرى في دمه حبه، ولفت بالعلم نفسها، وبقيت تغرد بصوت حزين غير مفهوم...

بكينا كلنا ونحن نرى ذلك المنظر: حب ووفاء لامرأة خرساء هاجت كل أحاسيسها عندما لامست لهجة وطنها أذنيها؛ فذغدغت

فيها حس الوطنية، وعبرت عن غربتها بإشاراتها البسيطة، لكنها كانت من أعظم النساء وكأنها ملكة.

تحركت الشرطة، وبدأت تفتش في السجلات والكمبيوتر على كل من ترك أهله اسمه وصورته من المفقودين، فوجدنا صورة أمك وأنها فُقدت في المدينة المنورة، لكن لم نفهم كيف رجعت لمكة...

وهذه مدة عشرة أشهر وهي غائبة؛ حتى أن ملامحها تغيرت عن الصورة لأن جسمها هزل كثيرًا وبه جروح من جراء الحوادث، ومن النوم خارجًا بين الخيام دون أن ينتبه إليها أحد مع كثرة الحجاج ووفودهم لأداء مناسك العمرة والحج طوال السنة.

بعدها وعلى الفور اتصلنا بالسيد مصطفى لأنه ترك رقم هاتفه بالمحضر المحرر. وأكد لنا أن هناك امرأة تاهت منهم عند عودتهم لوطنهم في المدينة، وبعد التحريات تأكدت الشرطة من هوية أمك، ورجعت برفقتنا لأرض الوطن، وتعرف عليها السيد مصطفى وزوجته...

قصة رجوع والدتك يا أستاذة هي معجزة، وتغلبت على كل المستحيل بسبب حبها لوطنها. قطعة قماش تحمل علم وطنها كانت قادرة على إيقاظ الحنين داخلها؛ لتعبر بأسمى عبارات الحب والوفاء والوطنية، وتتحدى الجميع معلنة رجوعها للجزائر، أهنتك بأمر مثلها، وأهنتها ببنت بارة مثلك.

حكاية امرأة قروية تتواصل مآسيها يوماً من القدر والآخر من البشر،
وذنبها الوحيد أنها أحبت ابنتها حد الجنون لأنها من بقي لها في هذه
الدنيا، وحتى هذا الحب الغريزي لم يُترك ليعيش في سلام.

ولما سمعت بسمه رواية والدتها نرف جرح مخبأ في قلبها، ولم تستطع
ترجمته إلا بدموع غزيرة من مقلتيها قد تجفان يوماً ما من كثرة الآلام.

— أقسم بالذي فطر السموات والأرض أنني حين أكتشف من فعل
هذا بأمي؛ سيدفع ثمن كل لحظة خوف طرقت قلبها وكل دمة سقطت
من عينيها بسبب غربتها ورعبها.

— هناك من سرق جواز سفر والدتك، كما أن مرض صديقتك وموتها
جاء في الوقت المناسب، اعذريني على صراحتي لأنك بقيت منهمكة معها
رحمها الله، وحتى يبقى أمر كشف الحقيقة سرّاً، ويمكننا متابعة القضية
عن كُتب، لكن لما لم تخبر الشرطة بأمر السيدة نعيمة، سيد مصطفى؟

— لم أعلم أنه اختطاف؛ لأن ابنها المزعوم قدم للمطار وتأسفت
منه لاختفائها في المدينة المنورة، أوهمني بالبكاء والحزن ولامني
قليلاً. ثم أخبرني أنه سيتكفل بكل شيء ولم يظهر، حتى جمعتني القدر
بالأستاذة وكانت الصدفة وضعها لصورة السيدة نعيمة فوق مكتبها؛
حينها اكتشفنا الحقيقة.

- إذن؛ يجب أن يتم فتح تحقيق، وسنسجل أقوالكما في المحضر؛ حتى نستطيع متابعة القضية، وأنت سيدي قص علي الحكاية كاملة، وزودني باسم ذاك الرجل، ولو أنه أعطاك اسماً وهمياً، كما أتمنى أن تصف لي ملامحه جيداً. وأنت أستاذة حاولي أن تتذكري كل التفاصيل المهمة وأرجو أن تخبرينا بها.

إضافةً إلى هذا، وعندما تتعافى والدتك؛ أتمنى أن تكون في مكان آمن وبعيداً عن المنزل، فيمكن أن يعاودوا خطفها حتى نوهم الجميع أنها لا تزال مختفيةً.

- لكن لا أستطيع أن أطمئن على والدتي إلا معي.

- هذا مجرد اقتراح حتى تتمكن من اكتشاف الفاعل بسهولة. وأتمنى أن تبقي الأمر سرّاً حفاظاً على أمن وسلامة والدتك، لأنني أظن الهدف من خطف امرأة بسيطة وخرساء -أعتذر على التعبير- يقصدونك من وراءه... فأنت المستهدفة لأن أمك وحسبما فهمت هي نقطة ضعفك.

- ما رأيك بسمة أن تقيم والدتك عندنا فهي عاشت معنا فترة تأديتنا لمناسك العمرة وتعودت علينا، كما أن لا أحد يعرفنا وأنا دائماً في المنزل رفقة ولدي.

- لا أعرف سيدة عائشة؛ لكن...

- لا تترددي في القبول يا بسمه زوجتي محقة، وكما أخبرك المفتش
لا يجب أن يعرف أحد. لا أحد مهما كانت ثقتك فيه.

بعد مرور ثلاثة أيام...

كان البيت جميلًا محاطًا ببستان صغير يزهر بألوان الورود
والأعشاب المزروعة فيه، وحتى مدخل المنزل والصالة كانت من
أبهى ما يكون وهي مزخرفة بأثاث فاخر.

- تفضلي بسمه. والله شرفني يا خالتي نعيمة، وكأن والدتي من
تزورني. وبحول الله لن ينقصها شيء عندنا، فاطمئني يا عزيزتي.

كانت بسمه جالسةً أمام والدتها تقبل يديها وعيناها غارقتان في الدموع.

- أعرف ذلك سيدتي. لولا الخوف عليها وكشف تفاصيل المؤامرة
والخاطف فلن أقبل بأن تبتعد عني ولو للحظة. ثم استدارت لأمها.

- هل ستكونين بخير يا غاليتي، أنت مع السيدة عائشة. تذكرتها؟
فأومأت برأسها مبتسمةً.

- الحمد لله، أعرف أنك تحبينها، لكن ألم تذكر شيئا يوم
اختطافك. من كان الفاعل؟ وماذا قال لك؟

واستهلت نعيمة مرعوبةً تحاول شرح انفعالها بالإشارات وهي
مرتبكة متوترة.

- حسنًا يا أمي، لا تخافي، لن أسألك؟ ارتاحي اليوم وبعدها نتحدث.
- حسنًا؛ يجب أن أرحل. عندي أعمال كثيرة تنتظرني وإذا طرأ أي أمر أخبراني من فضلكما، وأعتذر مرةً أخرى على الإزعاج، شاكراً موقفكما النبيل، وسيبقى جميلاً في عنقي.
- لا تتفوهي بالحماقات. أشكر الله على الصدفة التي جمعتنا، صحيح أنها كانت قاسيةً، لكن الحمد لله أنها انتهت إلى ذلك، ولا نعرف ما يخبئ القدر. عساه خيراً. وهذا منزلك تعالي لتزوري والدتك في أي وقت حتى يأذن الله بالفرج. كما أن مصطفى مصر على التقصي والعثور على ذلك الرجل، والأمر سيكون هيناً بإذن الله، وسنكتشف كل الحقيقة.
- أشكر صنيعك سيدتي، ولن أنسى جميلك ما حييت، ثم قبلتها، وعادت لتقبل والدتها من جبينها ويديها وهي تحمد الله على عودتها.

- كل هذا جرى لوالدتي يا حياة، وغيايبي عنك سببه عودتها، لم أستطع إخبارها عن موت جزائر فهي في حالة صدمة. ولا تزال مرتبكة خائفةً كما أنها متعبة للغاية وهزيلة.
- لكن لما لم تحضرها إلى هنا أم أنك تشكين بي أنا أيضاً؟

- ما الذي دهاك، لو كان كذلك ما أخبرتك الحقيقة، لكن ربما الخاطف يعرفك أنت أيضًا، كما أن اقتراح السيد مصطفى وزوجته كان في محله، وستمكث أمني هناك لفترة وجيزة إلى حين اكتشاف الفاعل وأنا متفائلة بذلك.

المهم أتركك الآن اليوم سيعود مهدي... واتفقنا على اللقاء في المكتب أراك غدًا.

- لم أكن أتوقع أن إشتياقي لك سيأخذ مني الصبر، كما أنك لا تتخيلين مدى حزني وأنا أتلقي نبأ وفاة جزائر. تمنيت لو كنت معك لأساندك في ظروف كهذه، لكن ظروفك كانت أقوى مني.

- لا داعي للتبرير. أعرف تمامًا أنك لن تقصر أبدًا لو كنت هنا، لكنك كنت مجبرًا وأنت خارج الوطن... أخبرني كيف كانت أمورك هناك؟
- لا بأس بإجراءات تسوية أوراق والدي رحمه الله كانت معقدة نوعًا ما، لكن الحمد لله أتممت جميع الإجراءات.

- أستاذة عفواً، هناك زبائن ينتظرونك.

- إذن بسمه أنا أيضًا يجب أن أستريح قليلًا لأنني جئت من المطار مباشرة، كما أنه يجب أن أتنقل للبلدة حتى أسوي ما بقي من أوراق.

- ستذهب لمسقط رأس والدك؟

- صحيح، وربما سأمكنك أسبوعًا على أقل تقدير، ولا أعرف كيف سيمر علي دون رؤيتك. لكن هذه المرة سنحل أمر زواجنا ونحدد الموعد.
- أكيد؛ مع مفاجأة سأريها لك، لن تصدق. اعتبرها هديةً، ولا أريد أن أشغل بالك اليوم.
- هل الأمر خطير.
- لم يعد كذلك إلى أجل غير مسمى. ستكلم في التفاصيل يوم عودتك.
- حسنًا؛ اتفقنا، أحبك تعلمين ذلك. وأنت؟
- وأنت تعرف جوابي...
- ورسمت ابتسامتها المعتادة على وجهها.
- كانت فرحة بسمه لا تُوصف بعودة أمها حتى وإن كانت تلك الفرحة مسروقةً منها تزورها سرًا، وهي تشتاق كل لحظة لرؤيتها وتقبل يديها وجبينها كما كانت في السابق.
- وفي ذلك اليوم وبينما هي جالسة تتجاذب أطراف الحديث مع عائشة تحدثها عن زليخة والقدر الذي جمع بينهما وفي خضم حديثها ذكرت أمر المكتبة واسم سمير ذلك الشاب الذي تركته زليخة إرثًا مع كل ممتلكاتها لكنه رحل، وما إن سمعت نعيمة اسمه حتى ثارت وأصبحت ترتجف وهي تنن تحاول أن تقول شيئًا لكنها لا تستطيع.

- أمي؛ اهدئي من فضلك. ما الذي حصل لك؟!
- خالتي نعيمة لا تخافي. ماذا جرى وما بها خائفة؟!
- لا أفهم! سأحاول تهدئتها. لا تخافي يا غاليتي؛ أنا بجانبك، لن أتركك. فقط اشرحي لي بالإشارات ما الذي يربكك؟
- وبدأت أمها تشرح لها كعادتها ترسم شاربين تحت أنفها وتتخيل أنها ترفع كتابًا وتقلب صفحاته، هنا صُدمت بسمة وفهمت قصد والدتها.
- انتظري أمي. ما الذي تودين إخبارنا به؟ سمير؟ تقصدين سمير؟!
- ولأنها دائمًا كانت تشرح لي اسمه بشاربين وكتاب لأنه كان يعمل بالمكتبة. ولأنني ذكرته أومأت بالإيجاب، تمسك يدي وتضغط عليها تأكد تخميني...
- لا أصدق سمير؟! لا أفهم وما هدفه من خطفك؟
- وأصبحت تكلم نفسها حائرة، بعدها حدقت بوالدتها قائلة:
- وكيف أفنحك بالذهاب معه؟
- بدأت تشرح لها بيديها كيف دق الباب، وتحاول جاهدةً بالحركات قص ما أخبرها سمير، لكن بسمة لم تفهم ما تريد أن توصله أمها.
- حسنًا حسنًا، لا تقلقي يا غاليتي المهم فهمت سمير كان طرفًا في اختطافك.

فأجابت أمها بالإيجاب محرّكةً رأسها.

- حسنًا سيدتي؛ عندما يأتي السيد مصطفى أخبريه بكل ما سمعته،
وبعدها لكل حادث حديث.

- أين أنا وماذا أفعل هنا. أعاشر من؟ وأثق بمن؟ جئت بحثًا عن
النجاح، لكن على حساب أغلى الناس؛ من ضحت من أجلي اليوم
أضحى بها، كنت المستهدفة، وكانت هي الطعم! المياه تجري من
تحت قدمي وأنا أشكو لهم همي وهم من صنعوا ألمي.
كيف سأصل لسمير يا حياة؟ من ملأ رأسه بفكرة خطف أمي وماذا
كان المقابل؟

- ومهدي غير موجود ليكون معك هذه الظروف.

- هو أيضًا غارق في مشاكل الأوراق وأعماله وإخوانه. المهم حياة
اليوم سأزور أمي وسأعيدها للمنزل طال غيابها وهي مريضة. كما أظن
أنها لن تكون مرتاحةً سوى معي.

- أدرك ذلك يا بسمه لكن لا تتسرعي. يمكن أن تنقش الغيوم
وتترأى لنا الحقيقة.

كانت جالسةً كعادتها تقبل يدي والدتها، وتسأل عنها وعائشة تنظر إليهما في حيرة؛ ترى هذا الحب الأسطوري. وهن كذلك حتى لمحّن مصطفى واقفاً فوق رؤوسهن وهو يلهث.

— الحمد لله أنني لحقت بك قبل أن ترحلي أستاذة.

— ما بك مصطفى؟ أُلقي التحية أولاً.

— المَعذرة، السلام عليكِ، لكن لا يمكن أن تتخيلي ما سمعت ومن وجدت، ابن عمي في الخارج أحضرته بعدما ذهبنا للمكتب، وأخبرتنا السكرتيرة أنك هنا.

— وكيف أصبحت تتفق مع ابن عمك؟

— تعرفين يا عائشة، ابن عمي شيطان يعشق المساومة، طلب مني التنازل في المطالبة بحقي في الإيجار الذي نهبه مقابل أن يبحث لي عن ذلك الرجل. طبعاً وأنا قبلت دون تردد.

— لكن لماذا سيد مصطفى؟ أنا لن أقبل.

قاطعها قائلاً:

— ليس وقت المناقشة الآن لو تسمعين آخر التطورات لشكرتني على ما فعلته، المهم سأحضر ابن عمي الآن للمكتب حتى تسمعن بأنفسكن.

كان مرتبكاً صامتاً، غارساً رأسه بين كتفيه لا يستطيع حتى النظر لزوجته ابن عمه التي بادلتها بنظرات كأنها السم؛ تود لو قتلتها. لهذا فضل

أن يبدأ حديثه بمقدمة تخصه عساه يلفظ من توتر الجو قليلاً بينه وبين السيدة عائشة، أما بسمه ووالدتها كانتا تنظران إليه حائرتين تنتظران ما جاء للروح به.

- قبل كل شيء قدمت لأعتذر عما بدر مني يا عائشة. أدرك تمامًا أنك لا تودين رؤيتي أو حتى سماع صوتي، ضغطت على نفسك بسبب حكاية السيدة نعيمة...

أعترف أنني أخطأت وغرني الشيطان، لكن صدقيني لم أنوي يومًا الاستيلاء على ممتلكات مصطفى وعزمت على رد كل فلس أخذته من أجره منزلكم، فقد كنت في ضيق بسبب خسارتي في المشروع الذي أسسته مما اضطرني لبيع منزلي وتسديد ديوني... ولم أتوقع قدومكم المفاجئ... بعدها فتحت محلًا صغيرًا والحمد لله؛ أنا أسترزق منه، وجزء من ديني دفعته لمصطفى، صحيح أنه ضئيل لكن؛ المهم لا أود خسارة ابن عمي، فهو من بقي لي، صدقيني يا عائشة هذه نيتي...

وحتى عندما قايضته بالبحث عن ذلك السيد مقابل التنازل عن القضية نيتي كانت إرجاع الأمور لنصابها، فقصة السيدة نعيمة كانت فرصةً لأعيد المياه لمجاريها. وأنا أعتذر عن كل ما بدر مني.

- صدقت أكاذيبك ودموع التماسيح. (قالتها وهي تصوب بصرها للجهة الأخرى حتى لا ترى وجهه).

- حسنًا يا عائشة ليس وقت تصفية الحسابات. أتمنى أن لا تعاندي، حتى تسهل الأمور.

- إذن كمال لنؤجل موضوع المنزل لاحقًا. الآن نود معرفة ما جرى.
- حسنًا؛ سأخبركم بكل شيء. تعرفت على هذا الشخص بالصدفة، وأخبرني أنه يعمل في مجال بيع الأراضي والمساكن، وسمعت بأنك تنوي شراء أرض، فطلبت منه أن يساعدك مقابل مكافئتي بمبلغ جيد... قبل هو ومن دون تردد وأوصلته إليك، وقبضت عمولتي، لكن لم أنوي أذية أي شخص لأنني في الأصل لا أعرفه.

كان الجميع ينظرون باهتمام منصتين لما يقصه خاصةً بسمة.

- بعد مدة رجع إلي مصطفى وقص علي كل ما جرى لوالدتك يا أستاذة، وهددني بأنه سيخبر الشرطة في حال لم أدله على الرجل، حينها تأثرت كثيرًا بما سمعته...

صحيح أنني اشترطت عليه التنازل عن متابعتي قضائيًا، لكن صدقوني تأثرت كثيرًا بما سمعته، وألمتني قصة السيدة نعيمة، ونويت البحث عنه في كل مكان وبوسائلتي الخاصة...

عرفت بعدها أنه شخص خطير. خريج سجون يعمل في التهريب، ويقتات من السرقة والنهب، إلى أن جاء اليوم الموعود حين دعاني أحد

أصدقائي لحضور عرسه وبالصدفة وجدت ذلك الرجل، وكان مدعوًا هو كذلك...

سألت عنه فأخبروني أنه من أقارب العروس قدم مع أهلها، على الفور ودون أن يتفطن بوجودي اتصلت بمصطفى الذي اتصل بدوره بالشرطة، فاقترأته فورًا للمركز والآن يتم التحقيق معه.

- صحيح ما يقوله هذا الشخص سيد مصطفى هل تم القبض عليه وماذا قال؟

- حتى الآن ينكر كل التهم المنسوبة إليه وينفي نفياً قاطعاً معرفته لنعيمة، وأنه لم يتم باخطافها، لكن لا تقلقي قريباً سيعترف بكل شيء...

لم يبق الكثير لكشف كل الحقيقة ويجب أن نتوخى الحذر، ولن يكون ذلك إلا بالصبر والتخطيط جيداً للإيقاع بالرأس المدبر لكل ذلك.

- تأخرت بالعودة كثيراً، اشتقت لك.

- لا أصدق ما أسمع. أول مرة تبوحين بأشتياقك لي. كم كنت محتاجاً لمثل هذه الكلمات يا بسمه.

- عندما يجد المرء نفسه وحيداً يدرك قيمة من كانوا حوله يحبونه ويحبهم، يخافون عليه حتى من نسمة ربيع عصفت بحنان لتنبئ عن

قدوم ألوان الفرح وهي تزين ورود الفصل، وتبعث برائحتها للقلوب
البريئة...

كنت أنت يا مهدي من سددت فراغ حزني وألمي، وعوضت رحيل
كل من أحبهم، لذا فغيابك طيلة الأيام الماضية أعاد فتح تلك الثغرة
وأحسست بفراغ رهيب.

- آه؛ ما كله هذه الشاعرية؟ والله كأني أحلم! أشكر غيابي عنك
لأنه أظهر حبي في قلبك الذي ظننت أنك دفتته، ولن تخرجه يوماً
لتبوحى بمكنوناته. وأنا قلبي الصغير لا يحتمل تلك العاصفة الربيعية
الجميلة التي لعبت بنبضاته فبعثرتها بين رحيق الورود.

- هههه، أنت الشاعر وأنا المصغي الملهم. لكن أظنني سأنزع
لحظتنا هذه يا مهدي بخبر لا أعرف ربما سيفاجئك ولا يعجبك...

- لا أريد سماع حرف، إما تواصلين غزلك أو اصمتي واتركيني
أعيد شريط كلماتك السحرية لأخزنها وأغلق عليها أبواب صدري،
وأرمي مفاتيحها في نهر يجرفها لبعيد حتى أدفنها في قلبي.

- آه كم أنت متمكن! كفى مهدي والله أخجلتني...

وخفضت رأسها للحظة وتركت الصمت سيد الموقف، ثم
استطردت قائلةً:

- مهدي أود إعلامك أنني سأسافر خلال اليومين القادمين ولمدة أسبوع لمصر لحضور مؤتمر بخصوص موضوع رسالتي.

- ماذا. ما الذي تقولينه؟! أراك عازمةً مقررّةً، جئت فقط لإعلامي بخبر سفرك وكأنه من باب المجاملة، وهل تظنين أنني سأوافق على سفرك؟

- مهدي ما بك أظنك تمزح؟ أولاً سأسافر للعمل وهذه فرصتي لجلب بعض الكتب بخصوص رسالتي. كما أنني سأسافر مع وفد من الأساتذة ومنهم سيدات، صدمتني بردة فعلك. ظننت أنك ستشجعني وأنت المتعلم الواعي.

- وما دخل مستوأي بغيرتي عليك، مهما يكن فأنا رجل تقليدي، ولا أوافق على سفر زوجتي خارج الوطن ولوحدك.

- مهدي لا أصدق ما أرى وأسمع، أنا مسافرة في رحلة عمل ودراسة... أرجو أن تتفهم وضعي... منذ سنوات وأنا أنتظر هذه الفرصة.

عم الصمت بعد أن غضب الاثنين وانقلبت ملامح وجهيهما، واتفقا على الفراق كل لعمله دون أن يتفقا على حل لأجل غير مسمى، وتحول اللقاء بعد الاشتياق إلى نقاش حاد ورأيين متضاربين نتيجهما قلق وتوتر ونهاية غير محسومة.

ليلة كانت ظلمتها شهباء وغيومها تغطي نجومها لتحجب بريقها
كما حجب النور عن قلب بسمه. وقفت تراقب الغيوم في السماء في
منتصف الليل وقد اختلط بياضها بالسواد، فأضحت رمادية...

وزادت تلك الليلة من حزنها ووجعها، وراحت تفكر في كل ما قاله
مصطفى وابن عمه؛ تقلبه في عقلها، وتحاول إيجاد تفسير لكن... لا
يوجد تبرير سوى من الفاعل في حد ذاته...

إذ هي كذلك حتى سمعت صوت الهاتف یرن، ففزعت واستيقظت
من كوابيس لاحقتها تحسب خطبًا ما قد حصل لوالدتها.

- ألو، نعم؟

- أهلاً بسمه. لا تفزعني، أنا مهدي، أتأسف لاتصالي في هذا
الوقت المتأخر.

- آه؛ مهدي! أزعبتني... ما خطبك؟ ولم تتصل في هذه الساعة؟
- لم أستطع النوم وأظنك كذلك. تركتك غاضبةً وأنا بقيت متوترًا
من نقاشنا هذا الصباح.

- لا أفهم رد فعلك مهدي... فاجئتني وأنا التي...

لكنه قاطعها فوراً...

- أفهم ذلك، لكن أنت أيضًا قدرتي غيرتي عليك، لم أرفض المبدأ
في حد ذاته، لكن فكرة السفر خارج الوطن أربكتني.

- أعلم ذلك، لكن بغض النظر، فأنا مسافرة لمؤتمر بخصوص دراستي، ولإتمام رسالة الدكتوراه، ولتجاوز كل هذا. وثقتك بي تمنيتها تكون كوردة سقيناها من حبنا مهدي.

بعدها صمتا، ومرت دقائق قليلة وهما على هذه الحال. ليخرج بعدها من صمته قائلاً:

- واثقة بأنني أفتخر بنجاحك وتقدمك، لكن ليس على حساب خوفي وغيرتي.

- كما أنني أثق تمام الثقة أنك تعرف أخلاقي ومبادئ، كما أنها رحلة عمل ودراسة ليست للاستجمام. أتمنى أن أكون موضع ثقتك أكثر من هذا بكثير مهدي... صدمتني فعلاً بردة فعلك. أنا التي كنت أنتظر منك التشجيع والدعم، واليوم أضدَم بالرفض وعدم تقبلك الفكرة من الأساس.

- في الحقيقة..، لا أدري ما أقول أعلم أنك على حق وأن اعتراضني ليس في محله لكن اعذري غيرتي وحبتي. وعلى العموم أعذر عما بدر مني، لا أريد أن أخسرك بسبب أمر كهذا.

- أتمنى أنك اقتنعت أنها أهم خطوة في حياتي. صح؟

- صح، وما طلباتك الآن آنستي؟

تبسمت قائلةً:

- لا شيء سوى اعتنائك بالمكتبة، ومراقبة عمل الموظفة الجديدة
إذا سمحت، وسأترك لك مفاتيح المكتبة والمخزن في حالة احتجت
لشيء. لكنك في الغالب لن تحتاج إليها، فجميع العناوين متوفرة في
المكتبة. سأغيب لمدة أسبوع وأعود بحول الله.

- إذن سافر الغضب ورجع الأمل؟

- كيف؟ لم أفهم!

- يعني اشتقت لبسمتك وخجلك وأنا أنغزل بأميرتي بعد غياب
أسابيع وكأنها سنين.

- إذن؛ ستسافرين بعد غد عزيزتي؟

- بحول الله. المهم حياة؛ أتمنى أن تكوني حذرة، أعرف أن الأمر
لن يكون سهلاً، ولا يحتمل الأمر أي خطأ حتى أطرده الشك بداخلي.
والسيد مصطفى سيكون رفقتك.

- لا تخافي عزيزتي كوني مطمئنة.

- وبخصوص موافقتك على قريبك الذي تقدم لخطبتك. أظن أن
الوقت حان لتديري مفاتيح القفل الحديدي لبوابة قلبك، اقلبي صفحة

يوسف أو من الأحسن أحرقها. واعطي لنفسك المجروحة فرصة؛
ربما قريبك هو البلسم لها.

- سأقرر هذا الأسبوع بحول الله، لا تقلقي أنت، فقط انتبهي
لنفسك.

- انتبهي لأمي حياة، ولا تدعيها لوحدها، وزوريها لحين عودتي.
ولا تخبري أحداً.

- هي أمي كذلك، فلا تخافي، وكوني مطمئنةً حبسيتي.

حلقت الطائرة وبسمة تركت مصيرها معلقاً، تنتظر ما ستبوح به
الأيام. تتمنى صدق كذبة بدل دوامة عاشت فيها لوحدها...



(١١)

بعد مرور يومين...

كان المنزل هادئًا مظلمًا سوى غرفة نوم بسمه والصالة، فقد أخبرت مهدي أنها ستركها مشتعلة حتى توهم الجميع بوجودها في البيت خوفًا من السرقة والتعدي على المكتبة.

الوقت: الثانية صباحًا... الجميع نيام، لا حركة سوى نسائم الشتاء الباردة وصفيرها الحائم بين جدران المنازل؛ يرافق عتمة الليل، وزخات مطر خفيفة.

المكان: شارع ببلوزداد الراقي. بالضبط أمام منزل السيدة زليخة أو بالأحرى منزل بسمه حاليًا. توقفت سيارة لونها أسود من الطراز الفخم. وترجل منها شابان؛ فتحا بوابة المستودع وأدخلوا السيارة وأغلقوا الباب بعدها بحذر.

كانا شابين في مقتبل العمر؛ أحدهما مبتورة إحدى قدميه؛ يجلس على كرسي وأمامه صندوق من ورق أخرجه من بين رفوف الكتب

كان وراءها مخبأ؛ يمد الشاب الآخر بالأوراق النقدية، ليقوم بوضعها بشكل محكم داخل السيارة بعدما نزع منها أغطيتها الداخلية الجانبية، وتحت الكراسي وفي الصندوق الخلفي، واستمر منهمكين يسارعان في إنهاء مهمتهما لأن المنزل خال لا يوجد فيه أحد...

كانا يعرفان كل التفاصيل، لذا فهما يكملان عملهما بارتياح وبشكل منظم، يقومان بإخفاء أوراق نقدية بعناية فائقة في أوراق سميكة من عملة الدولار فئة المئات والخمسين، يحاولان إخفائها بطريقة جهنمية. وفيما هم كذلك يعانقان السكون ويحاولان ترتيب وإخفاء الأوراق جيداً إذ بهم يسمعون ضجيجاً اختلط بصوت الأمطار وهزيم الرعود.

- هل سمعت ما أسمعته؟ هناك أصوات في الخارج، لكن يصعب علي التمييز من المطر المتدفق.

- لا؛ أنت تتوهم فحسب. هيا فلنسرع بتنفيذ الأوامر وترتيب الصناديق قبل أن يكشفنا الفجر وضوء الشمس.

وما هي إلا لحظات...

- كل في مكانه، لا أحد منكم يتحرك...

وفي لحظة أصبح الشبان يهرولان لا يعرفان مصدر الصوت، وباب المستودع مقفل من الداخل لم يُفتح. لِفَاجَأً أخيراً بالشرطة تقتحم

المكان من باب المنزل الداخلي. بقيا مندهشين مصدومين لا يعيان ما يجري أمامهما.

وبعد دقائق وهما مكبلان وسط رجال الشرطة ظهرت فتاة؛ نزلت من الأعلى. فنظر إليها الشابان حائرين...

— من؟. حياة؟!

— لا أصدق. ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

— هل تعرفين هذا الشاب آنسة حياة؟

— نعم؛ سيد مصطفى. ولا أصدق ما تراه عيناى.

الثامنة صباحًا... مركز الشرطة...

لم تكن تتوقع حياة هذه المفاجئة أو الفاجعة بمعنى أدق وهي تلمح سمير داخل المستودع برفقة الشابين يحاولان إخفاء النقود لتهريبها.

— إذن آنستي؛ كيف انتبهت لما يحدث بالمستودع واتصلت بمصطفى؟ يمكن أن تزودينا بكافة التفاصيل؟

— كنت في الغرفة نائمةً بعد أن انتهيت من تحضير مذكراتي. تأخرت في العمل واستلقيت عند منتصف الليل، وبقيت أقلب في فراشي حتى

باغتني النوم، لم أنتبه إلا وأنا أصحو على صوت غريب في مستودع الكتب، في بادئ الأمر لم أعر الأمر أي اهتمام...

لكن؛ بعدها لازمني الشك ونزلت بخفة وببطء أستقصي الأمر، فسمعت صوت رجال يتحدثون بصوت منخفض ويحذر، هنا زلزل جسمي من الخوف، وأدركت أن هناك من اقتحم المستودع وأن أمرًا غريبًا يحصل بالداخل...

نزلت أتفقد يحذر، ونظرت من فتحة الباب للطابق السفلي الفاصل بين المنزل والمستودع فصدمت برجل جالس بُترت رجله على ما أظن اليسرى؛ كانت ملفوفة بقطعة قماش وقدم الدمية موضوعة بجانبه وشاب آخر يساعده...

وبعدما تأكدت اتصلت -فورًا- بالسيد مصطفى وأخبرته. فقدم مسرعًا وأدخلته من الباب الرئيسي رفقة الشرطة بعد أن أحضرهم دون أن يحس بنا الشابان، واقتحمت الشرطة المستودع من المنزل عبر الباب الفاصل بينهما عوض الباب الخارجي له...

لأفاجأ بوجود سمير الذي عمل لسنوات في المكتبة، وفي الفترة الأخيرة -منذ أشهر- أخبر صديقتي بأنه وجد عملاً أحسن وبراتب أفضل واستقال.

- لكن ما سبب وجودك في منزل صديقتك آنسة حياة؟

- هي مسافرة، وأوصتني على بيتها طيلة فترة غيابها، كما أنني تعودت العيش معها فترة اختفاء والدتها، لأفاجأ اليوم بوجود شاوين يقومان بتهريب العملة، وأولهم سمير؛ ذلك الشاب الذي أُؤْتِمِنَ على مكتبة بسمه، وقبلها السيدة زليخة في الماضي ليصدمنا اليوم بأنه أول من يخونها.

- حسناً أنستي سنكمل التحقيق، وإذا استدعيناك أتمنى أن توافينا بكل ما رأيته وسمعته.

بعد مرور أسبوع...

الكل مجتمع في منزل السيد مصطفى وحياة التي لم تتصور أنها ستلتقي مرةً ثانيةً بنعيمة، أول مرة تراها بعد اختفائها... كانت الفرحة هي سيدة الجلسة؛ تحاور أعينهم الدامعة وبسمة بينهم وقد عادت من سفرها.

- لا أصدق ما تراه عيناى، خالتي نعيمة! والله كم تعبنا وتعذبنا وقد فارقنا وجهك الملائكي دون سابق إنذار، لكن خيوط اللغز عقدتها تُفَكُّ يوماً بعد يوم والمفاجآت تتوالى علينا.

كانت نعيمة تحضن حياة وفي نفس الوقت تشير بيديها متوترةً تبكي بصوت يئن على خبر وفاة جزائر. حيث اضطرت الفتاتان لإخبارها

وهي تلح عليهما بسبب غيابها، أخبرتها حياة كيف تُوفيت جزائر، كما أنها كانت متأكدة بأن نعيمة ستعود، وتركت لها سلامًا وقبلة...

كلام قلب مواجههم، وعائشة تنظر لدموعهن تخطابها في صمت، وألم نعيمة يقهرها؛ ليعلن حكاية وجع السنين وهي تتوالى على روحها، وتخطف كل مرة من تحبهم، وتأخذ قطعة منها. وجزائر أكملت تمزيق ما تبقى من شتات تلك الروح الهزيلة من غدر الزمن...

أما بسمه؛ فتستمر في حزنها الدفين ودموعها الصارخة تعيد شريط ذكرياتها مع جزائر وكأنها تُوفيت البارحة، وصدمتها أكبر بما سمعته تحاور خيالها في صمت طويل وحزين؛ لا تعي ما يدور حولها، وقد غيرت حياة مجرى الحديث تقص ما جرى يوم تهريب العملة الأجنبية، والقبض على سمير واعترافه الخطير.

- بسمه... بسمه... أين رحلت يا صديقتي؟

- آه؛ العفو، لم أسمع ما قلتم؟

- أدرك جيدًا أن هذا الخبر قد صدمك وأزعجك، لكن لا نعرف حتى الآن سر اعتراف سمير بتورط مهدي في كل هذه الجرائم.

- ما الذي تقولينه يا حياة؟ (صُدمت وانزعجت) سأجن. كنت في كل مرة أخلق مبررات، وأكذب نفسي من يوم أخبرني السيد مصطفى

بأن ابنته تعرفت على مهدي يوم رآته في المكتب صدفةً عندما قدم ليخبرني عن جزائر رحمها الله. فهو لم ينتبه لهم...

أخبرت والدها أنها شاهدته في المطار يكلم ذاك الرجل الذي خطف والدتي. لكنني لم أصدقها، ولم آبه لكلامها، وظننت أنها شبّهت بينه وبين شخص آخر، لكن في نفس الوقت كان هناك ما يمنعني من إخباره بحقيقة ظهور والدتي...

لا أعرف لماذا؟ أهو الخوف أم الحذر؟ لكن مهدي؟ ولم يقدم على فعل أمر كهذا؟ لا أفهم!

— إذن؛ صدقت ابنتي فيما قالته، صح بسمّة؟

كان جوابها الصمت ترافقها حيرة عينيها الحزینتين. تحاول إيجاد تفسير لما يحصل.

قررت الذهاب إلى السجن وزيارته، لكنها اليوم لا تعرف من تكون المحامية أو الحبيبة لا تعرف محلها من الإعراب ولا تعي ما يدور حولها بين قضبان ذلك السجن وهي تنتظر رؤية مهدي.

عوض أن يقابلها في المطار فاتحاً ذراعيه لها، تجد نفسها اليوم بين فكي قدر ظالم؛ تنتظر خروج خطيبها من الزنزانة لتواسيه أم لتلومه، لتحل خيوط لغز حيرها، ولا تجد جواباً سوى الأمل في براءة من تحب.

كان هزياً شاحباً خجولاً يترنح في خطواته البطيئة لا يعرف، هل سيكمل قدماً نحو بسملة أو يعود أدراجه، فالقدر غير قراره وكان لقائهما في مكان لم يخطر ببالهما، فأصبح هو السجين وهي ضحية ذلك الاسم.

جلس مهدي وجهاً لوجه ينظر إلى بسملة، لا يعرف ما يقول وهي تجيبه بنظرات حائرة تائهة؛ تتمعن ملامحه الحزينة الخائفة، وترد بصمت ودموع؛ تتمنى التحرر من روحها السجينة بين صفحات أيام تجبرت في ظلمها والقسوة عليها...

وبقي الاثنان على هذه الحال مدةً من الزمن إلى أن أعلنت بسملة مخاصمةً صمتها، ومتحررةً من حيرتها لتظهر الحقيقة.

- لا أعرف ماذا أقول؟ من أين أبدأ؟ كأني أصاحب كابوساً؛ لا أعرف كيفية التخلص منه. أخبرني ما الذي يجري؟

ارتبك وقد احتضن الخجل ملامحه والصمت اعترى وجهه المتألم ولم يستطع الرد.

- ليس هناك مجال للصمت أو التردد. أنت في مرحلة حرجة للغاية. يجب أن تصارحني بكل شيء.

- إذن ستكونين محاميتي؟

- إن صارحتني بالحقيقة. لا تستطيع توكيلي لأن المتهمين تم توقيفهم في المستودع التابع لمنزلي، واستُدْعيت إلى المحكمة كضحية، لكن لا تخف سأكون إلى جانبك، وأعين لك محام أثق فيه... مهما يكن؛ ولولا الظروف لكنت الآن زوجي وأحمل اسمك، إذن اسرد علي كل الحقيقة من فضلك.

- ليست هناك حقيقة من الأصل، تلك الليلة كنت في المنزل أحضر في مخططات لسكنات كُلفت بها. وسهرت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ومن شدة تعبى غفوت على مكثبي، وبقيت هكذا حتى الصباح، صحت وكنت مرهقاً من العمل وقد تشنجت عضلاتي من النوم جالساً...

نهضت لأحضر فطوري كالعادة وكنت مسرعاً لأنني تأخرت على موعد مع أحد أصحاب المباني لأفاجأ بالشرطة تعتقلني أمام بيتي ودون سابق إنذار.

وعندما أحضروني إلى هنا أخبروني أنني متورط في قضية تهريب أموال، ولحد الساعة أعيش كابوساً رهيباً لكن ليس هناك أي دليل سوى اعتراف سمير بتورطي ولا أجد سبباً لكذبه.

- وما الفائدة التي سيجنيها سمير من توريطك؟

- ربما بسبب خوفه أو لأنني عاتبته يوم اختفت والدتك، لا أعرف. أظنه يريد تلفيق التهمة لأي شخص، ووجد أنني الأنسب لذلك.
- المهم مهدي؛ سأرسل لك زميلي. هو متمكن في مثل هذه القضايا، وسيتأسس في قضيتك وندرسها جيداً، وسنرى بعدها ما نستطيع القيام به.
- لكن أرى في عينيك الشك. لا يهمني أن تبرئني بقدر ما أنتظر أن تؤمني ببراءتي، العالم كله في كفة وقناعتك الشيء الوحيد الذي يريحني حتى وإن أدانتي المحكمة فإدانتك لي أكبر عقاب وأصعب عذاب.
- حسناً مهدي، جئت إلى هنا لسماعك حتى أزيل كل الشكوك وأقتنع، ولست بكباقي المحامين وأنت تعرفني جيداً.
- ثم رحلت وتركت حزنها أسيراً بين تلك القضبان يرافق مهدي، وأخذت تجر في ذيلها الشك والحيرة؛ لا تعرف ما سيجيب به القدر مرة أخرى وهي تحاول أن تستعد للمفاجآت والصدمات.



- لم أعد أحس بشيء يا حياة. فالقضية شائكة وأنا مشوشة. أتمنى براءته. من قضية تهريب الأموال هذه، وحتى قضية أُمي كلها ملفقة ضده، وبعد أيام يخبرونه بتورطه فيها.

- وهل يعلم بأمر والدتك؛ أي بظهورها؟

- ليس بعد، كما أن الضابط والسيد مصطفى وحتى زوجته أصروا على فتح تحقيق في القضية. لا أخفيك أنني سألت والدتي التي أومأت برأسها، ووافقت على ذلك، لم تتردد في الموافقة. هل كانت تحس بأن لمهدي علاقة في اختطافها، اختلطت علي كل الأمور، لكن يجب حسمها والخوض في غمار القضية وحل كل ألغازها يا حياة.

- وكيف ذلك؟

- ستجينا الأيام عزيزتي، لا تتعجلي الأمور، ستجينا بحول الله. سكون المكان بين قضبان السجن يحكي حكاية المظلوم وهو يعانق أنفاس الظالم غصبًا عنه. لا يفهم إن كان انتقامًا من القدر لأنه ظلم أناسًا آخرين. أم أنه مجرد امتحان مؤقت ليزول الكابوس بمضي الأيام. كانت بسمّة تنتظر من طلبت زيارته وقد قررت كشف الحقيقة بعد أن بدأت في نبش خبايا القضية والتحري عن ملابساتها.

خرج سمير خائفًا مذعورًا يبحث بعينه الذابلتين عن الشخص الذي طلب زيارته. يمشي ببطء لا يعرف أي الاتجاه يختار وحارس السجن يمسك بذراعه يوجهه كما يشاء، إلى أن وجد نفسه يجلس غصبًا عنه في مقابلة لم ينتظرها يومًا.

- كيف حالك يا سمير. أتمنى أنك تقضي وقتًا ممتعًا هنا؟

- آنسة بسمه؟! -

- أجل بسمه، بسمه التي أمتك على مالها وأمها لكنك خنت الاثنين. حاولت اختطاف من ظنتك ابنها ونهبت المال الذي كنت تقتات منه، كنت الذراع الأيمن للسيدة زليخة ونعم الصديق لي والمرافق حتى حسبتك فردًا من عائلتي.

وحتى عندما قررت ترك المكتبة لأنك وجدت بديلاً أحسن منها استغربت الأمر في الأول لأنك كنت تحظى بكل شيء وكأنك صاحب العمل، والربان في السفينة ولست العامل... ومع ذلك تمنيت لك الأفضل...

وأفاجأ بك اليوم تحاول خيانة من كان الملجأ لك، هرولت كالمجنونة أبحث لك عن أعذار إكرامًا لتلك السنوات التي قضيتها بيننا؛ أحاول أن أغفر خطيئتك، وأن أناسي جريمتك الأولى بالمشاركة في خطف والدتي، لأُصدَمَ بالثانية وخيانة المكان الذي آواك والذي يخفي بين جدرانها كتبًا تعلمت منها الأدب والوفاء لمن أعانوك وسلموك مالهم وأحلامهم لتكون أمانةً بين يديك، لكنك بعثرتها بطمعك وأمانيك القدرة.

- من قال لك أنني خطفت السيدة نعيمة؟ مجرد افتراءات كاذبة، كما أنني لم أهرب شيئاً ولم أدخل مكتبكم إلا بمحض الصدفة عندما كنت ماراً، وأنت تعلمين جيداً أنه طريق بيتي.

كان يتلعثم في كلامه ووجهه تكسوه صفرة الموتى والفارين من معركة يعلمون جيداً أن سيُهْزَمون...

- لا أصدق أنني أتكلم مع سمير؛ ذاك الشاب الخلق الطموح الذي كان يرسم أحلامه خلف سحب عالية، ويطمح للوصول إليها ببنائه سلماً يصعده درجةً درجةً، لم يأبه يوماً للصعاب وهو يحمل في فمه خبزاً ويده وردة...

ذاك الشاب الخجول حتى وهو يلتهم بعينه كلمات الكتب التي كان يتصفحها، وتحمر وجنتاه من سؤال زبون أو طالبة. اليوم يخاصم الصديق ليزوقه بخدعة وكذبة، لا أفهم إن كنت تتغابي، أو تحاول التستر وراء غطاء الغباء.

- هذه الحقيقة أنسة بسمه. تمنيت اليوم أنك جئت للدفاع عن مظلوم تقاسم معك سنوات التعب والجهد بفرح رغم الألم والوجع والفقر، وجدران المكتبة تشهد عشرينا، بسمتنا وحتى دموعنا...

ولم أتخيل يوماً أن تتحول علاقتنا لعداوة لسبب أجهله لحد الساعة لأنني أجهل سبب تواجدي هنا أصلاً والدفاع سيثبت براءتي، وسترين وستندمين لأنك لفقت تهماً لم تكن لي فيها ناقة ولا جمل.

- نعم؛ أنت قلتها تهمة لم تكن لك فيها ناقة ولا جمل؛ أقحمت نفسك فيها والسبب أجهله، أتمنى أن تكون مظلوماً فعلاً، ونصارحني بالحقيقة وأنت تعرفني جيداً؛ سأكون لك السند يا سمير.

- لست بحاجة لمساندتك، فهناك من سيتكفل بالدفاع عني.

- أظن أنني أخطأت بالمجيء إليك. لا أخفيك أنني أردت التأكد من الحقيقة، لأن السنوات التي جمعتنا همست في ضميري بأن أحضر وأسمع منك الحقيقة، فيعرض المظلوم مساعدته على الظالم عله يغفر له، ويلتمس لجريمته هذه عذر ما. لكن أظنني أخطأت العنوان.

ثم همت بالنهوض، ورسمت بضع الخطوات متجهةً نحو الباب، وفجأةً توقفت للحظات وهي تدير ظهرها لسمير الذي كان جالسًا على حافة الكرسي مسمرًا متفوقعًا في مكانه لا يحرك شيئًا من جسمه الهزيل سوى عينيه وهو يتابع خطوات بسمه.

- آه؛ على فكرة نسيت أمرًا مهمًّا جدًّا، لعلمك مهدي وكلني للدفاع عنه وأرى أن مركزه قوي جدًّا في القضية وكل الأدلة تشير إلى ذلك. تدرك أنه تم القبض عليه، وعندما أخبرته عن توقيفك لاحظت أن أمرك لم يعني له شيئًا، بل طلب مني التكفل بقضية تورطه، لأنه لا يعرف أصلاً الشاب المرافق لك وأكد لي أنه من طرفك.

لم أكن مضطرةً لإخبارك. فقط أردت أن تضيفها لمعلوماتك لأنني لا أتمنى أن تتعفن أحلامك المتناثرة بين قضبان هذا السجن المظلم. ومع هذا عرضي لا يزال قائمًا... تعرف رقم مكثبي. اتصل في أي وقت

إن كنت تريد النجاة ببعض ما تبقى لك. فقط اعط لضميرك صحوةً صغيرةً... مع السلامة يا صديقي.

كانت ليلةً جمعت كل التناقضات: دموع فرح ولقاء جمع الشمل، وألم فراق خطفهم القدر. وقد عادت نعيمة للمنزل مع بسمه ورافقتها حياة، دخلت نعيمة بدموع حجبت عنها رؤية المنزل، لكنها لم تحجب ذكريات عادت بها لسنوات مضت لما دخلت لأول مرة هذا البيت رفقة بسمه والخوف يعانق روحيهما الضائعتين، وعقليهما الساذجين...

قرويتان ممزقتان بين رائحة الأرض ونسيم أشجارها وألحان النهر تداعب بسواقيه المتفرعة خضرة وسحر تلك الأرض وبين محالب مدينة صاخبة بسياراتها ومصانعها، جامعاتها ومحلاتها.

لكن زليخة احتضنتهما، فكانت سفينة الأمان في ذلك المحيط والشرع المظلل لهما والذي يحجب عنهما شمس تلك المدينة والسقف الحامي لها من وحوش الليل القاسية، فكانت الداعم لأحلامها الممتدة بين شوارع العاصمة وفي أروقة الجامعة، وصنعت منها الطالبة المجتهدة وأدخلت الأمان على قلب تلك المرأة الريفية...

أما اليوم فهي غائبة عنهن، ولم يبق منها سوى غرفة مغلقة ترسل منها رائحتها الزكية، وصور تلاحق بسمه ووالدتها كأنها طيف جميل يحاكي أيامهما القادمة دونها.

جلست النسوة متقابلات يرسمن قائمةً بكل الأسماء التي لونت حياتهن بأزهى الألوان، لكنهم رحلوا وهم يحملون معهم أسماء تركتهم، زليخة، جزائر، وحتى يوسف، وأسماء أخرى... ينتظرون مفاجأتهم... هل ظلموا أنفسهم؟ أم القدر من ظلمهم؟ وستظهر عدالة الله...

مهدي وسمير أسماء أخرى في قائمة الانتظار داخل دائرة مفرغة يتمنين أن تسقط فيها جميع الأقنعة، ويُفك لغز خطف نعيمة وإخفاء الأموال ومحاولة تهريبها من المكتبة، وهل القضيتان مرتبطتان، وبطلهما واحد؟ أم هناك أعداء كثر، وهما لا يعيان ما يدور حولهما والسبب لا يزال مجهولاً؟

- أرى أنك جازفت بكلامك مع سمير. رميت الكرة في ملعبه وأنت لا تدري؛ هل سيسدد في شباكك؟ أم في شباك مهدي؟ أم أن هناك شخصاً آخر لا تعرفينه أصلاً ويكون الشابين هما الضحية وليسا المجرمين؟

- لا تزيد من توترى يا حياة، كان لا بد من المراوغة، فالقضية خيوطها معقدة، ولا بد من الإمساك بطرف الخيط لحلها أو لتعقيدها أكثر، وليس هناك من سبيل سوى المجازفة، ومفتاح اللغز هو سمير. وأظنه سيجر مفاجآت كثيرة معه.

- ومن الممكن أن لا يزودك بأي تفصيل يخدمك، صح؟

- لا أعرف، المهم أنني تنبعت لهذه الخطه، وطبقته - خاصة - عند لقاء الجميع أمام وكيل الجمهورية وإنكارهم، فلا سبيل سوى المراوغة.
- لا تخافي، فأنت مظلومة، وتبحثين عن الحقيقة وقريباً ستكون بين يديك. فقط توكلي على الله.

- يا رب؛ أنت المعين يا حي يا قيوم ساعدني، أنت سندي...
بعدها نظرت لأمها التي كانت تجيب براحتها وهي ترفعهما للسماء تصوب بصرها شاخصة سائلةً الله بقلبها، وقد أسكت الزمن كلماتها، وجعل من لغة العينين وسيلةً للتعبير وحركات يديها هما سلاحها، والوحيدة من كانت تفهمها بسمة، وتقرأ لغة الحزن المرسومة في عينيها المتعبتين وهما تهربان من كهف مظلم لطالما حاصرها وألف تعذيبها.

بعد مرور أسبوع...

روتين العمل... قضايا المكتب ومحاضرات في الجامعة وأبحاث لإكمال رسالة الدكتوراه، كلها ارتباطات لم تعرها بسمة اهتماماً وهي تقلب صفحات قضية مهدي الذي عاودت زيارته مرتين بعدما طلبت من زميلها تولي قضيته، وكل الأدلة تثبت براءته وابتعاده عن ساحة الجريمة، ومن معه ينكرون تواطؤه بعد أن غير سمير أقواله...

تحاول فك اللغز، وهل سَيُقَحَّم في قضية اختطاف والدته. وهل التحقيقات تسير في المسار الصحيح لتصل إلى نقطة التقاطع، أو ستأخذ منحى آخر، وتتوسط خطين متوازيين لا نهاية لهما، وتقيد القضية ضد مختطفها؛ الذي أصر على الإنكار، وأكد عدم معرفته لسمير ولقائه بمهدي؛ الذي لا يعرفه أصلاً...

هذا ما أسفرت عنه آخر المستجدات كما أخبرها الضابط والسيد مصطفى. بقيت بسمه تعيش تفاصيل لغز جديد لا تفهم سببه ومن المستفيد أصلاً من أذيتها...

أما النهاية ستكون لصالح مهدي وستكمل معه رحلة العمر المتبقي والهارب من تفاصيل الألم، أو ستكون ورقةٌ تُثْصَف إلى رماد النار التي أحرقتها بعدما خمدت. فيأتي من يعاود تحريكها بعصا الخيانة ليلهب النار من جديد.

خلال هذين اليومين كانت بسمه في أخذ ورد، رجعت مرةً أخرى لزيارة مهدي الذي كان متوترًا عاجزًا حتى عن الكلام، محبطًا وعلامات الخوف والتوتر والتعب تحوم حول وجهه المسود.

- لا أفهم سبب توقيفي إلى حد الساعة، وسمير تراجع عن أقواله، وأكد أنه ذكر اسمي هكذا فقط دون وعي؛ لأنه يضمن لي بعض الحقد

بسبب تأنيبي له يوم اخْتُطِفَت السيدة نعيمة «رحمها الله». لكن ضميره صرخ وعلم أن لا فائدة من إقحامي في هذه اللعبة القذرة.

اهتز كيان بسمة وهي تسمع كلمات مهدي خاصةً عندما ترحم على والدتها وهو يجهل حقيقة عودتها، وهذا دليل آخر على براءته، أم أن إنكار مختطف والدتها لمعرفته مجرد لعبة، لتتعد الأحداث مرةً أخرى، وتبقى بسمة حائرةً في متاهة لعبة قذرة لا تعرف حتى اللحظة أسبابها، لكن كانت هي ووالدتها الضحيتين فيها.



كانت جالسةً تقابل الكرسي الفارغ، وتنتظر حضوره وهو من استدعاها، وترك لها رسالةً في مكتبها... عرفت أن أمرًا طرأ، وقد يغير مجرى التحقيق، وتتمنى أن تسمع كل ما يرضيها، ولا يخيب آخر ما تبقى لها من أمل عاجز منكسر ينتظر خبرًا يلوح به للأفق.

بعد لحظات سمعت باب السجن المقابل لقاعات الزيارات يُفْتَح، وكأنه فُتِح صدرها المرتجف وهي كطائر يعانق غيوم الخوف والأمل في نفس الوقت، ويتنظر: هل ستبقى سوداء قاتمةً تبخل بمطرها على عشب يأمل في الحياة؛ ليتجرع خيبات أخرى؟ أم أنها ستعصر بسوادها لتنزل أمطار هي الغيث؟

هكذا كانت بسمه وهي تنظر إلى سمير يدخل بخطوات متثاقلة حزينًا يائسًا وكأنه بلغ من العمر قرونًا.

كانت دقائق صمت بالنسبة لسمير وحيرة وانتظار لبسمه قبل أن ينطق باعتراف يكون لصالحه أو ضده، فضميره صاح من غيبوبته، لكن ما الذي يخبئه بين طياته؟

- أعرف استغرابك وفي نفس الوقت تعطشك لسماع الحقيقة لأنها ستكشف لكل الكثير. لكن أنا من سيدفع ثمن غبائي وطمعي وجشعي، لا أخفيك أن قراري بالبوح جاء بعد لقائي بك...

ربما من حسن حظي، كما يمكن أن يكون من سوء حظي، لكن ما أعرفه ومتيقن من حدوثه أنني في كلتا الحالتين لن أخسر أكثر مما خسرت، وفي نفس الوقت لن أنقذ أحدًا على حسابي خاصة أنه كان السبب في توريطي.

المهم لن أطيل عليك، سأخبرك بكل ما أعرفه على الأقل عرفانًا للسيدة زليخة (رحمها الله) على صنيعها معي ولسنوات الصداقة التي جمعتني بك.

- وأنا ما زلت عند وعدي؛ سأدافع عنك، وأعمل كل ما في وسعي. بعد مرور ساعتين من لقائهما...

خرجت بسمة مسرعةً هاربةً من جدران ذلك السجن، لم تلتفت لأحد وهي تركض مصدومةً وقد كسا لون وجهها الناعم سواد قاتم. وعند أول خطوة خارج الزنانة أخذت تسرق من الهواء لتملاً رثيها وكأن المكان كان منعدماً من الأكسجين، وأصبحت تتنفس بسرعة وبصعوبة في نفس الوقت.

ركبت سيارتها وانطلقت مسرعةً، توجهت إلى غابة قريبة وركنت مركبتها وانزلت بعيداً في مكان لا يراها فيه أحد. وأطلقت صرختها مدويةً كل ما يحيط بها، وتغلغلت تلك الصرخة كأنها عاصفة خرجت من ضلوعها لتسقط أوراق الشجر، وتنحي الزهور حزناً، وتخفي لونها عن بسمة المذبوحة، وتحفظ عطرها من دموع روت قلباً صغيراً؛ ليتحول آخر ما بقي من دقائقه إلى رماد تتناثره الهموم حيث شاءت.

واتجهت بعدها مباشرةً إلى المكتب لتتنفس وتخرج من رثيها المختنقين بعضاً من الهموم والأوجاع، وحتى لا تقلق والدتها المسكينة التي تجرعت من المآسي ما يكفيها.

— أهلاً أستاذة.

— مرحباً، هل من جديد؟ جئت لأستعلم عن الأمور المستعجلة، وأرحل مباشرةً، أحس بصداع سيفجّر رأسي.

- أستاذة بسمه؛ السيد حسين بانتظارك فيما يخص قضيته المتعلقة بسرقة حقائبه.

- آه؛ أجل، أدخله عريضة من فضلك.

كان رجلاً حسن المظهر في العقد السادس من عمره، عندما تراه تحسبه أجنبياً أو سائحاً جاء للزيارة أو للاستجمام واكتشاف المناطق الجميلة.

- كيف حالك أستاذة؟

- الحمد لله.

- أتمنى أنك بخير، فأنا أراك متعباً.

- آه؛ وأنت سيد حسين، أراك بصحة جيدة؟

- فعلاً، في الحقيقة قدمت أشكر صنيعة، والله لا أعرف كيف أجازيك وقد اختصرت علي طريقاً شاقاً كنت سأسلكه، ولو قصدت محامياً آخر لانتهاز الفرصة وجعل منها قضية خاصة أن حقائبي كانت تحوي وثائق مهمة...

وأنت تعرفين: في الخارج القانون صارم، وليس هناك مجال للمزاح، وفي إيطاليا بالضبط أين أقيم تكثر المافيا والتلاعبات وشبكات التهريب والتزوير لذلك أحاول تفادي المشاكل بكل السبل.

- العفو سيدي؛ كل ما في الأمر أن هناك خلطاً حصل، صحيح لو تأخرنا قليلاً ولم نعالج الأمر لتأكدت عملية السرقة، لكننا لحقنا الأمر في الوقت المناسب.

- كان ذكاءً منك بتهديد المعنيين بإرجاع الحقائق والقيام بعملهم وإلا أودعت شكوى ضدهم، وتحول الأمر لقضية ومتابعة قضائية وهنا سيكون عليهم إرجاع الحقائق مع التعويض عن كل الأضرار التي ستلحقني.

- صحيح هناك من يعملون كأمناء على أموال وأغراض الناس، لكن في حقيقة الأمر نرى العكس، فهم من يقومون بالسرقة، وينطبق عليهم المثل القائل «حاميها حراميها»، الأهم في كل ذلك أنك استرددت حقائبك.

- ولهذا قدمت إليك، أريد مكافئتك على صنيعة هذا، ولأنك رفضت أن تتقاضى أجره تعبك أستاذة...

- أنا لم أقم بجهد حتى أتقاضى مقابلًا، وإنما القصة استغرق معي يومًا واحدًا. لذا فلا داعي للمبالغة سيد حسين. ولا تقلق نفسك. المهم عندي أن حقائبك وأوراقك رُدَّت إليك.

- والله يا أستاذة صدقيني، لو يرجع الزمن بي لسنوات مضت لما رميت بنفسي للغربة، وما اتخذت قرار السفر لكن الاستعمار وآثاره أجبرت الكثير على الرحيل والسفر للظفر بعمل جيد وظروف أحسن،

وأنا اخترت وجهتي نحو إيطاليا، لم يكن اختياري مخططاً له، لكنني تبعت مجموعة شباب كانوا عازمين على خوض هذه المغامرة...

كنا كقطيع من الغنم لا نعرف ما نحن مقدمون عليه سوى الوصول إلى تلك الأرض، وتحصيل لقمة العيش التي سرقها منا الاستعمار، وترك وطننا متناثراً يحاول لم شتاته، لم نكن من أبنائه المخلصين، وتركناه مجروحاً وسافرنا لنخدم أرضاً أخرى؛ كانت في يوم من الأيام حليفةً لفرنسا، وبالتالي فنحن نخدم عدونا...

هجرنا الوطن وتركناه ينزف، وعوض أن نهديه دمنا ونضخه لأرضها المبتورة كنا ممن يمتصون دمها أكثر، وتركناها جريحةً تتخبط في وجعها القادم. كنت شاباً لا أبصر الأمور على حقيقتها...

دارت بذهني خواطر وأفكار أو بمعنى أصح أحلام. لكن وبعد مرور أكثر من ربع قرن تأكدت أنني من نثرت جسدي وروحي على أحلام كاذبة... كانت كوايس، وتحايلت على نفسي لأصنع منها أمانني وأحلام مستعبدة... هكذا عنونتها...

عشت في شوارع إيطاليا خائفاً دائماً؛ أرى كفني فوق رأسي. السرقة والمافيا، والعمل الصعب والمجهود لأبني بيتاً هنا وأعود جاراً في ذيلي سنوات الضياع، فمن مات مات ومن كبر كبر، وأنا لا أعرف حتى من أكون، لا أقارب، لا أحباب...

والكارثة أنني تزوجت هناك من إيطالية، ورُزقت منها بولدين رفضا العودة معي، وفضلا الاستقرار في إيطاليا رفقة والدتهما ونحن الآن مطلّقين...

عشت معها عشر سنوات وانفصلنا. باختصار شديد هذه رحلتي الغير ممتعة في بلد التطور والمافيا في نفس الوقت.

في ذلك الوقت كانت بسمة تنظر إليه تائهة متمعنة في كلامه وحركة شفّتيه، لم تحرك جفونها قط وهي تنظر لما يبوح به باهتمام شديد وكأنها في محاضرة مهمة أو أمر مصيري.

- المهم لا أريد تأخيرك عن عملك بتفاهتي، أرجو أن تقبلي مني هذه الهدية المتواضعة كتذكّار من إيطاليا... أرجوك ابنتي، ولو أنه لا يساوي ما قمت به من أجلي، كما أنني سأترك لك هاتفي الخاص لأنني سأسافر ليلاً، اعتبريني والدك وأي أمر تحتاجينه أنا في الخدمة، لأن أمثالك نادرون في هذا الزمن.

- شكراً سيدي؛ والله أغرقتني بفضلك، وأنا لم أفعل شيئاً سوى ما يحتمه علي ضميري، لكن من فضلك وإذا سمحت، وأعرف أنك ستستغرب طلبي، وتظنني أود استغلال عرض خدماتك علي بهذه السرعة...

لكنه قاطعها على الفور...

- بالعكس يسرني ذلك. أي خدمة، واعتبريه أمراً واجباً علي تنفيذ.
- العفو سيدي، الأمر لله، في الحقيقة هو أمر شخصي، وأظن الله بعثك لي من السماء فقط أود الاستفسار عن شخص معين، والتأكد إن كان يقيم بإيطاليا أو على الأقل سافر إليها، وسأزودك بالفترة التي سافر فيها إلى الخارج، هل هو فعلاً كان يذهب لإيطاليا أم لا؟ وهل يقيم هناك أو مجرد سائح...

وزودته بكل المعلومات حول الشخص المطلوب، وتركت قرارها بعد إجابته، فالله أهدها فرصة؛ ربما من خلالها يتم فك رموز القضية وحل خيوطها المتشابكة.

- أمرك هين، وسأزودك بكل المعلومات خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة، فلي هناك معارف سيتولون هذا الأمر. كوني مطمئنةً.

كعادتها بسمة واصلت زيارة مهدي برغم صدمتها... هل تسايره؟ أم تساير نفسها المجروحة؟ لا تعرف ما ستقوله، أم أنها ستتحمل ما يوح به، هل يكذب عليها؟ أم سمير هو من زرع في قلبها الشك ليربكها منتقمًا منه؟ لكن ماذا سيستفيد من اعترافاته في توريط مهدي؟

أُسئلة أنهكت جسمها، وكادت تُجَن. لا تعرف السبيل إلى الحقيقة. واصلت تمثيليتها عليه كما مثل عليها وجعلا من حياتهما ممثلين؛ لبسا قناعاً آخر، فمتى يسقط القناع؟ «لأجل غير مسمى»... هكذا أجابت بسمه تحدث نفسها.

خرجت من السجن تائهة لا تعرف ما العمل، وقررت بعدها الذهاب إلى المكتب؛ لتكمل ما تبقى من أعمال عالقة، وتأخذ في طريقها إلى المنزل آلاماً لا تعرف كيف تتخلص منها.

— أهلاً عزيزة.

— تفضلي أستاذة، هذا الفاكس وصل منذ قليل من إيطاليا.

انتفضت بسمه لما سمعته، وأخذت الرسالة ودخلت مسرعة إلى مكتبها، وطلبت من السكريتيرة أن تلغي جميع مواعيدها.

«السلام عليكم، أتمنأك بخير أستاذة.

استطعت وبكل سهولة التقصي على المدعو «مهدي حرباوي».

وأخذت تلتهم ما كتب في الرسالة حائرة مندهشة لا تصدق أن ما خُطَّ فوقها صحيح، وقد أصابت بحيلتها وذكاؤها كشف كل ما حدث، حقائق أفرعتها وصدمتها، بقيت جامدة كالتمثال لا تعي ما تفعله وما

تقول والحقيقة تظهر جلياً أمامها، لكن السبب بقي لغزاً يحاصرها ويطاردها؛ لا تعرف كيف تكتشفه.

أغلقت كراس ذكرياتها بقوة ورمته ليرتطم بعرض الحائط ولم تستطع المواصلة، أيقظت أوجاعها النائمة منذ سنين. أيقظتها من سباتها لم تستطع دفنها للأبد رغم أن السنين عوضتها وكافأتها برها لوالدتها وحبها الأسطوري لها لكن تحول الحبيب لخائن منتقم.

نهضت متثاقلةً، وخرجت من مكتبها تاركةً ذكرياتها مرميةً على الأرض، وقد تحملت ما يكفي من أوجاع. سنوات مرت حين قررت إعادة حفر تلك الكلمات على كراسها. ولم تدري يوماً أن تلك الجروح ما تزال محفورةً في روحها، واليوم بإعادة فتحها لهذه الأخيرة صُدمت بنزيف كأنه النهر الجاري يتدفق من جروحها رافضاً التوقف.

سنوات مرت ومع ذلك للجرح مكان لا يفارق قلبها، ويرافق نبضها حين تتذكر ماضي أثقلها بخيانته، وأهداها غدره ومكره. لكنها مجبرة على إتمام ما بدأته مستعينةً بالصبر وهي تتذكر ما مرت به.



مرت ثلاثة أيام وبسمة تحبس نفسها في غرفتها، تدفن قلبها المطعون بين جدران صدرها المتشقق من غدر الناس وخيانة القدر.

كانت ترفض الأكل أو الخروج ونعيمة المسكينة تتقلب كالمجنون، ويحترق قلبها وهي ترى وحيدتها تتألم في صمت لا تفهم السبب ولا تستطيع فعل شيء...

ولما رأت أن حالة ابنتها تتعقد اتصلت بحياة، وقد علمتها بسمه في الماضي ثلاث أرقام وكيفية الاتصال بها في حالة طرأ أي مكروه لها، رقم هاتف حياة وجزائر وسمير، ولم تجد سوى حياة منقذاً لها، وقد خطف الزمن جزائر دون رجعة أما سمير فقد رحل مختاراً طريقه، وهي الخرساء لا تعلم كيف تصرخ أو تبث حزنها سوى بأنين دفين أخرجته مستنجدةً باكيةً.

— ألو. ألو من المتكلم؟. ألو.

لكن حياة لا تفهم ولا يرد أحد، فقررت وضع السماعة، ليعاود الهاتف رنينه من جديد.

— ألو. من المتصل؟

ثم سكنت برهةً، وركزت في صمت؛ إذ بها تسمع أنيناً غير مفهوم، وواصلت الإنصات وهي غير متأكدة...

— ألو. نعم. خالتي نعيمة؟

هنا ارتفع الصوت والأنين حين نادى باسمها، فتأكدت بأنها المتصل.

ارتبكت بشدة وأيقنت أن خطباً ما قد حصل.

دخلت الغرفة رفقة نعيمة بعد أن دقت الباب واستأذنت، ففُوجئت
بسمة وهي في سريرها جالسة متدثرة بغطائها كالصنم لا تتكلم ولا تجيب.
- ما الذي حدث؟ ومالي أراك هكذا؟ لم أنت في هذه الحالة؟
بسمة؛ هل طرأ أمر جديد؟

لكن بسمة فضلت الصمت، ولم تستطع تمالك نفسها وقد غرقت
مقلتها في بحر هائج لتنسكب على وجنتيها، وانتفضت في حضن حياة
تبكي بحرقة ووجع.

بعد أن هدأت واسترخت قررت الكلام والإفصاح عن ألمها،
وبدأت في سرد كل ما قاله لها سمير. وبعد أن أنهت حديثها عادت
بدموع حارة أحرقت قلبها تعاتب الزمن على ظلمه.

- لم أتخيل أن الرصاصة التي أطلقتها وصوبتها نحو عدوي ستفرغ
في صدري. لم أصدق ما قاله سمير ولو لم أخلق كذبة مهدي، وأنه
سيخرج من هذه القضية كالشعرة من العجين، وستُلَقَّ ضد سمير،
ويتحمل هو كل شيء لأكملت دور البلهاء، والمحامية الغبية التي
عينت من يدافع عن حبيبها المظلوم والحبيبة العاشقة التي تحبس
أنفاسها داخل قلبه وروحها في صدره وابتسامتها في مقلتيه.

لست أصدق كل ما سمعته يا حياة، كأني أعانق كابوسًا وأحلامي
تلونت بالأسود وسمير يخبرني الحقيقة، ويقص بلسانه طقوس الخيانة
التي مارسها على والدتي، وعلي وبرئاسة من؟ مهدي؟
ظننت أن القدر ساقه نحوي لينزع كل تلك الأشواك الملتصقة
بروحي، وقدم ليمسح الدم عنها، ويزرع بدلها ورودًا تفوح بعطرها
لتترك أملاً؛ حسبته قد ضاع وداسته أقدام الظلم، لكنه ترك عطراً مزيفاً
ظاهره ألوان وباطنه غدر ومكر.

- لكن لا أفهم سبب تورطه في كل هذه الأمور، وما سر تخطيطه
لخطف والدتك وإخفاء العملة الأجنبية في المستودع، لم أستوعب
الأمر بعد... هناك خطب ما وحلقة مفقودة في كل هذه الحكاية، هل
من الممكن أن سمير لفق التهمة لمهدي. ولم لم يذكر ذاك الرجل تورط
مهدي معه في خطف خالتي نعيمة؟ أظن أن مهدي مظلوم.

- ما بك حياة؟ هربت من هذه الأكذوبة ووقعت فيها، كما أن ذلك
السيد لا يعرف بأن والدتي على قيد الحياة... هكذا اتفقنا أنا والضابط
والسيد مصطفى حتى نكشف الحقيقة كاملةً وملابساتها، ومن كان
وراءها، ومهدي يظنها تُوفيت؛ لذا ترحم عليها في لقائنا الأخير.

كل الفاعلين كُشِفوا حين قرر سمير الإفصاح عن كل ما يعرفه،
والسبب أن مهدي كان يخبره عندما يلتقيان في ساحة السجن وقت

الاستراحة أنه سيساعده من خلالي، وسيجتازون هذه المحنة، وأن قضيتهم سهلة وهو يملك النفوذ...

لكن في الآونة الأخيرة لم تعد هناك اتصالات بينهما، وحتى هو لمس في كلامه التهرب، وتحولت لحد اللامبالاة، ولم يفي بوعده ليوكل في قضيته محام، وأحس أنه الوحيد الخاسر في اللعبة، أنا أدافع عن خطيبي، والآخر تهتم به عائلته، وتحاول أن توكل له أخطر المحامين...

وأكد أن هذا من حسن حظي، وقد تزامن ذلك مع حالة مهدي التي أصبحت تندهور، وبدأ يفقد الأمل وقد لاحظت ذلك. لأنه لو كان بريئاً فعلاً لما استسلم ولا رضح، أعرف مهدي جيداً.

ثم صمتت لبرهة واستطردت قائلةً:

- لا؛ العفو، بل أنا أكتشف شخصاً جديداً لم أكن أعرف منه سوى كلامه الحلو، وهو يخفي سم الأفاعي ليقذفه في قلبي. وعشقت معه ضعفي وهو يخبئه في صدره ويواجه به العالم كله، كيف لا تتحطم روحي يا أمي؟

أخبريني يا صديقتي، وقد دست على كل أوجاعي معه ورسمت طريقاً للسعادة بوجوده، اليوم أُرّف بخبر خيانتته والسبب أجهله. وهذا ما يدعوني للجنون... أحوم في حلقة مفرغة؛ أجهل فيها المجرم والضحية، الجاني والمجني عليه، المنتقم ومن استُعْمِل كآداة للانتقام.

كان يرى موتى البطيء حين اختفت والدتي يواسيني وهو من
قتلني ومشى في جنازتي ليعزيني في أمي، وهو يعرف أنها قطعة من
روحي... كان الخائن بيننا والسبب أجهله، أكاد أُجَن لأعرف سبب
حقده ومؤامراته لتحطيمي.

كانت دموع نعيمة تنهمر، دموع أم تنهمر وهي تشاهد مسلسل
العذاب يلاحق بسمه. ونهايته مجهولة لا يعرفها سوى الله.

- إذن؛ وقرارك يا بسمه؟ لم تبق سوى تسعة أيام لموعد المحاكمة.
- سأخبرك بقراري. لكن قبل ذلك لي عندك رجاء يا حياة، بأن
تسدي إلي خدمة، وأظنها الأخيرة بإذن الله.

جلست حائرة ترتجف، أول مرة تزور السجن تنتظر وسط جدرانها في
قاعة الزيارة والسياج يفصل بين المسجون والزائر. هل فعلاً هناك من
ظلموا وأودعوا هذا المكان باسم المتهم ليتحول اسمهم إلى مساجين؟
وتتلاشى حريتهم أمام من يُدعى السجنان ويصبح الأمر الناهي.

لكن هناك من المجرمين ما لا يُعد ولا يُحصى، وللأسف ليس هناك
قانون يردعهم، أو صوت يؤنبهم وهم طلقاء أحرار، جرحوا أحاسيس
الناس، قتلوا فيهم الأمل والحب بلا رقيب وبلا حسيب سوى رب العباد.

حوار أجرته حياة بينها وبين نفسها تسأل وتجب وهي حائرة تنتظر مقابلةً مهدي كما طلبت منها بسمه.

خرج كعادته ولحيته تخفي ذقنه، وتزيد من تجهم وجهه المكتئب، يمشي مسرعاً يجر جسمه النحيل، وقد تحولت ملامحه لإنسان آخر غير مهدي.

- حياة؟

وراح يتأملها مستغرباً قدومها.

- مرحباً مهدي. كيف حالك؟

- بخير أشكرك حياة، لكن لا أفهم سر قدومك. أين بسمه؟ هل طراً أمر ما؟ لم تعد لزيارتي، وبعثت لها عن طريق المحامي زميلها؟

- لا داعي للقلق يا مهدي، لكن بسمه أرسلت معي رسالة إليك تعتذر فيها عن المجيء.

- هه. لا داعي للقلق وبسمه تعتذر، محاكمتي بعد أسبوع لأفاجأ اليوم بتورطي في قضية أخرى. تعرفين ما هي؟ قضية اختطاف السيدة نعيمة. كنت أنتظر انتهائها لتفسر لي ما معنى هذا، إذن هناك مؤامرة تُحاك ضدي. ما معنى أن تتخلى عني بسمه في هذا الوقت بالذات؟

- هل تريد أن أخبرها شيئاً محدداً؟

أمعن النظر في حياة هذه التي انكشيت في مكانها خائفةً من نظراته،
ثم رسم ابتسامةً على شفثيه البائستين تدل على خوف ومكر، حزن
وانتصار أشياء متناقضة لم تفهمها، بقيت تتبعه بعد أن وقف في صمت
وقرر الرحيل دون وداع ولم يجبها عن سؤالها، وتركه معلقاً لا إجابة
عنده سوى الصمت والعودة لزنزانتة.

- أتمنى ألا تندمي على قرارك هذا يا عزيزتي إذا ما تأكدت براءة
مهدي، وتخسرين القضية، أما الفاعلون الحقيقيون يبقون أحراراً،
والأهم من كل ذلك أنك خسرت مهدي.

- لا تزيدي من توتري يا حياة. يكفي ما أمر به. ليس لأي شخص
مصلحة في اتهام مهدي. كما أن محكمة الجench محكمة دليل، وهناك
ستُكشف كل الحقائق، وأُجبر الجميع على كشف أوراقهم، هناك
ستنكشف النوايا.

والتفتت إلى أمها وقبلت يديها مستطردةً:

- سأراجع حقلك بالكامل يا غاليتي، ولن أسمح لأحد بإهانتك ولو
كنت أنا، سترين ما سأفعل. والله لا يضيع حق مظلوم... واجهنا الكثير
سويًا، وسنكمل طريقنا يا حبيبتي...

ودفنت وجهها الحزين في صدر أمها وكأنها طفل صغير يبحث عن مكان آمن للاختباء، وليس له سوى ملجأ واحد: حضن أمه.

أما هو فقضى ليلته كالثور الهائج؛ يتذكر ما قالت له حياته على لسان بسمه، لا يفهم سر تغيرها، وراح يرسم خطواته ذهاباً ورجوعاً، وكل الدم الذي يجري في عروقه صار حمماً بركانيةً وكأن رأسه الفوهة التي انفجر منها البركان ليسري في جميع جسده، وتمنى لو كسر قضبان الحديد، وراح يستفسر سبب تخلي بسمه عنه والفضول والقلق يكادان يخنقانه...

لم يعد يحس بالهواء يدخل رئتيه وصار يتنفس غضبا وحرقة وما عليه سوى الانتظار والترقب والأيام ستمر عليه كالسنين.



(١٢)

المحكمة. بعد مرور أسبوع... التاسعة صباحًا...

الجميع جالس متأهب، وقاعة الجلسات تستقبل اليوم حشدًا وكأنها مسرح... منصة تعلوها كراسي للقضاة؛ يتوسطها على اليمين كرسي وكيل الجمهورية وعلى اليسار كاتب الضبط، أما في الأسفل فيُقابل القاضي قضاة خشبية يتوسطها المجرم دلالة على موقعه في القضية. ووراء القضاة كراسي يشغلها المحامون بيزات سوداء يتوسطها شريط أبيض على خلاف القاضي والنائب اللذين يتوسط بزتهما شريط أخضر. وفي الخلف يجلس كل من استُدعي لحضور الجلسة أو كان قريبًا للمتهم أو ضحية؛ حيث يفصل بينهم وبين الهيئة المكلفة بالمتابعة بجميع أطرافها - قاض ومحاميين والكاتب ووكيل الجمهورية - جدار خشبي منخفض، فهناك من الحضور من يأتي ليقول ساعات فراغه في قاعة المحاكمات، ويشبع فضوله ويجعل من التطفل على حياة الناس عملاً له دون مقابل عكس الصحافة؛ والتي عندما تشم رائحة قضية ثقيلة كما يقولون تسارع لتحجز الصفوف الأولى ككلاب الصيد؛ تصيد الخبر لترضي رئيسها وقراءها...

هكذا هم الصحافة يتهافتون على سبق صحفي لشغل الرأي العام وإشهار أسماء مجلاتهم وجرائدهم. ولا يهم إن كان ذلك على حساب من يشهرون بحياتهم الخاصة أبرياء كانوا أم مجرمين.

لأول مرة تظهر بسمة ببزتها كمحامية وهي لا تعرف أي المراكز تختار. هل تكون دفاع الضحية؟ أم لجانب المتهم؟ ستكون خصمًا لمهدي؟ أم معه؟ أسئلة كثيرة تحاصرها تقتلع من نفسها الثقة التي غرستها أو تحاول ذلك حتى تكشف الحقيقة...

إن أيام وشهور الحب التي جمعتها بمهدي ليس من السهل مسحها من ذاكرتها وكأنها كلمات كُتبت على السبورة لينزل فتات الطباشير على الأرض، ويأخذ نسيم الهواء ليخرجه عبر نافذة النسيان...

مع ذلك فهي غامرت بحبها وفي كلتا الحالتين فقد خسرت من قاسمته أحلامها، وبعد ساعات أو أيام ستظهر الحقيقة، ويظهر الظالم ومن ظلمه الزمن، ويجب أن تواصل في طريق اختاره لها القدر.

- بسمة؛ هل أنت مستعدة؟ أرى وجهك شاحبًا مصفرًا.

- لا تقلقي حياة، المهم عندي أن ننفذ ما اتفقنا عليه أرجوك انتبهي جيدًا، فقد أصبحت قضية حياة أو موت.

أعلن الجرس بدء المحاكمة ودخول القاضي ويرافقه الوكيل وكاتب الضبط. ليجلس بعدها الحضور الذين وقفوا احترامًا للمحكمة.

كان القاضي امرأةً في العقد الخامس من عمرها أو في نهاية الأربعينيات؛ ملامحها تدل على الحزم والصرامة؛ حتى في صمتها وهي تتمعن الجميع، وتدل على خبرتها وتمكنها من أداء وظيفتها، فصيتها كان واسعاً بين موظفي المحكمة والمحامين، والكل أشاد بها وبإنصافها في الأحكام التي تصدرها...

ففي جلستها المنعقدة مرةً في الأسبوع ترى الجميع يتحدثون عن حزمها وقوتها معلنين نصرهم في إنصافها كمظلومين، وخيبتهم إن كانوا يريدون ضربة حظ، فمع القاضية «زهوة» أنت تعيس الحظ لا محالة.

- نستهل الجلسة بقضايا الموقوفين.

هكذا افتتحت جلستها بصوتها العالي وهو يرافق صمت الحضور، وأبصارهم شاخصة نحو الباب ينتظرون خروج من تحولت أسمائهم إلى متهمين إلى حين صدور الحكم.

- من فضلك أيها الشرطي هل أحضرت جميع الموقوفين؟

- نعم؛ سيدي الرئيس.

- حسناً. فلنبدأ بأول قضية، القضية رقم ١٢٥٥.

ليكمل كاتب الضبط استدعاء المتهمين حسب رقم القضية:

- سمير ساعد، فاتح رميل، مهدي حرباوي. محمد رابحي، جمال مسعودي. حياة مكاوي، مصطفى بجاوي.

اسم مهدي الذي اهتزت لسماعه جدران قلبها وتوقف قلبها عن النبض للحظات وهي تلمحه مكبلاً يجبر مع البقية؛ ليقف كمتهم في مقابلة القاضي.

عند دخوله لم ينتبه لرؤيتها، كان هزياً تكسو وجهه لحية تزيد من حزنه ويأسه، ينظر حائراً لا يعي ما يحدث حوله. محاط بالشرطة ومحاط بأنظار المحامين والحضور.

قميص وسروال أسودان يغطيان جسمه أم يغلفان قلبه، هكذا كان واضحاً وبسمة تراه من الخلف وسط حشد المحامين ترتعش مرعوبة... لأول مرة لا تفهم ما سبب قدومها وما ستقوله وما دورها هنا، هل جاءت لتدافع؟ أم لتتهم شخصاً مظلوماً منكسر الجناحين وهي ستكمل ذبحه من الوريد إلى الوريد؟

- بسمة نعيمة، حياة فلاح، الممثل القانوني لإدارة الجمارك.

- حاضرة سيدي القاضي...

ظهرت بدون بزتها السوداء في مركز الضحية.

- إذن الجميع حاضر...

بعد أن تقدم محامين وتأسسا في القضية؛ أحدهما عينته بسمة لسمير كما وعدته، وحتى تظهر الحقيقة جليةً أما الجميع.

بعد أن تأكدت القاضية من هوية المتهمين وجهت سؤالها لمهدي الذي كان واقفاً خافضاً رأسه للأرض.

- أرجو من الشاهدين أن يغادرا قاعة المحاكمة حتى أنادي عليهما... وقبل أن نبدأ المرافعة؛ أود أن أسألك مهدي إن كنت تريد تعيين محام في قضية التشريع والتنظيم وحركة رؤوس الأموال من وإلى الخارج، وتأجيل القضية؟

- لا؛ سيدي القاضي لن أعين محامياً، لقد رفضت أن يكمل المحامي متابعته لقضيتي والتأسس فيها.

قالها وهو يخرج آخر أنفاس الحب التي كان يزرعها في قلبه وبسمة تقف بجانبه يفصلهما الشرطي، وتفصلهما الظروف القاهرة التي فيها أحدهما قهر الآخر.

- هل أنت متأكد؟ من واجبي إخبارك بالأمر.

- متأكد سيدي القاضي. أريد أن أحاكم اليوم وبدون محام.

- إذن؛ أنتم متهمون بمخالفة التشريع والتنظيم وحركة رؤوس الأموال من وإلى الخارج حسب الأمر ٩٦ / ٢٢. ماذا تقولون في التهم الموجهة إليكم؟

ساد الصمت والجميع يعانق هذا الأخير مصغين لما سيجري من مناقشة في هذه القضية؛ أولهم الصحافة وقد حجزوا لأنفسهم الأماكن الأولى عليهم يظفرون بسبق صحفي.

- أنسة بسمه؛ العملية تمت في منزلك، هل علمت بالوقائع؟
- نعم سيدي القاضي؛ كنت مسافرة لحضور مؤتمر خارج الوطن، ومن حسن الحظ أن صديقتي كانت في المنزل وشاهدت كل شيء، وهي من أخبرت السيد مصطفى وهو بدوره أحضر الشرطة، لتنتهي بما هو مدون في المحضر.
- لم تحدث أي سرقة، كسر، أو تخريب للمستودع؟
- لا؛ سيدي القاضي، فقط بعض الفوضى في الكتب بقيت مرمية على الأرض.
- شكرًا أنسة بسمه. نعود للمتهمين وأستهل بك، تفضل فاتح...
- وبقيت توجه نظراتها الحادة نحوه تخفيها بنظارتين شفافتين زادت من وقارها ورزانتها.
- بعد أن صمت لبرهة استهل كلامه متلعثمًا خائفًا. كان يجلس على كرسي متحرك بسبب قدمه المبتورة حيث يستحيل عليه الوقوف على قدم واحدة لوقت طويل.
- سيدي القاضي؛ صحيح أنني كنت في المستودع ذلك اليوم لكن بناءً على طلب من سمير، الذي هاتفني وأخبرني أنه يود مساعدتي في نقل العملة الأجنبية في سيارته وهو أمر قانوني...

جمعتنا صداقة قديمة؛ حين كنت أساعده منذ سنوات عندما كان يعمل بالمكتبة في حمل صناديق الكتب. ذهبت إليه قبيل الموعد المحدد بربع ساعة وبعد قدومه ركبت السيارة وأخذني إلى المستودع. وفيما نحن كذلك داهمتنا الشرطة ولم أفهم السبب حتى وصلنا إلى مركز الشرطة، واتَّهَمَت في قضية لا ناقة لي فيها ولا جمل، أتمنى أن يخبركم سمير بالحقيقة، ويعترف بتوريطه لي دون علمي، لقد خدعني وخان صداقتنا سيدي القاضي؛ لأجد اليوم نفسي في قفص الاتهام ظلمًا.

- وكم أعطاك مقابل خدمتك هذه؟

- ثلاثون ألف دينار.

- ما رأيك سمير فيما قاله فاتح؟

- صحيح. لقد طلبت منه ذلك لكنه يعلم جيدًا خطورة الأمر، ولم يرفض عرضي وقبل به فورًا، واليوم يصرح بأنني من ورطته. صدقيني سيدتي فهو يكذب.

- ومن أين لك بمفاتيح المستودع؟

- أعطاني مهدي نسخة منها.

رده كان كالصاعقة على بسمة التي كانت لا تُحَسِّد على وقفها تلك بالرغم من أنها الضحية، لم تكن ضحية نصب أو سرقة على قدر ما

كانت ضحية حب جعلت منه حلمًا رائحته ورود... لا تريد أن تستيقظ منه لكنه تحول إلى كابوس وأشواك أسالت ما بقي لها من دم؛ أخذ معه كل الحب والعشق والثقة.

- لكن ذُكِرَ في المحضر أن الشرطة أمسكتكم متلبسين وأتَمَمَ محاولان إخفاء العملة في السيارة التي نُزِعَتْ منها قطعها الداخلية. إذن هو كان يعلم ما بداخلها وما هي مهمته؟

- صحيح؛ لقد أخبرني أنها عملة سليمة غير مزورة وهي لرجل أعمال يود إخراجها عبر الحدود الجزائرية التونسية حتى يستثمرها وينجز مشاريع هناك، وسيقوم بتوظيفنا معه هناك.

- آه؛ جميل، وبماذا تفسر إخفاءك للعملة داخل قدمك الاصطناعية، هل هذا عمل مشروع؟

- أوهمني سمير سيدي القاضي بما أن القانون لا يسمح بإخراج أموال طائلة، ولو كانت من حق صاحبها، فلا بد من تجزئتها، وإخفاء ربعها في قدمي تحسبًا لأي خطر، وهذا ما لن يحصل بحول الله.

- جميل. تهريب عملة، وترافقها كلمة بحول الله.

لتنفجر القاعة ضاحكة من تعليق القاضي.

- سكوت في القاعة... لكن عدم اعترافك في اليوم الموالي بإخفائها يبين نواياك، صح سيد فاتح؟... وأنت سيد جمال ما دورك في كل ما سمعته؟

- لا أفهم سيدي القاضي لم أنا هنا في هذه القضية، تم اتهامي في قضية أخرى، وقد أُفحمت في الاثنتين ظلماً، لا أعرف شيئاً.

- يعني تنكر التهمة المنسوبة إليك بأنك شريك مهدي في تكوين شبكة لتهرب العملة الأجنبية، ومخالفة التشريع والتنظيم؟

- نعم؛ أنكر، ولا أعرف أحداً، ولن أعترف بوقائع ليس لي فيها أي مصلحة.

- وأنت سيد مهدي؛ بماذا تصرح؟

- ليس لي شأن بكل ما يجري، ولا أعرف أحداً من هؤلاء، سوى سمير.

- وكيف تعرفت عليه؟

بعد أن صمت لبرهة. ثم رفع رأسه ملتفتاً لبسمة استطرد قائلاً:

- كان يعمل في مكتبة تمتلكها خطيبي.

- وبما تفسر دخوله للمكتبة؟

- أكيد؛ كان لديه نسخ من المفاتيح.

كان قلبها يدق ويسرع من دقاته وهي تنصت لمهدي وكأن ذلك القلب الذي طالما أثقل بذلك الحب هو اليوم كالطبل فارغ تضرب العيدان على جلده لتصدر صوتاً يعيد الصدى ويخرق الآذان.

- كذب. كل ما صرحا به كذب. هو من قدم لي نسجاً عن المفاتيح، وأصلاً القفل تغير، فليست المفاتيح نفسها التي كنت أفتح بها أيام كنت أعمل في المكتبة... لا تصدقيه سيدي القاضي. (وأخذ سمير يصيح ويصرخ)...

- اصمت من الذي طلب رأيك؟ لا تتكلم حتى آمرُك بذلك.

- بسمة؛ هل غيرت مفاتيح المكتبة بعد استقالة سمير؟

- نعم سيدي القاضي؛ غيرت القفل.

- وأنت جمال ما قولك في كل ما سمعته والتهمة المنسوبة إليك؟

- ليس لدي ما أقوله، لم أشارك في أي تحويل للعملة، ولا أعرف هؤلاء الأشخاص، وهذه أول مرة أراهم فيها، كما أنه لم يُقبَض علي متلبساً ولم يُذكر اسمي إلا بتوريطي من طرف هذا الشخص.

- إذن سمير؛ كيف تفسر لنا إنكار المتهمين للجريمة الواقعة، وأنت تأكد معرفتك بهما؟ وإقحامهما في العملية؟

- إقحامهما؟ سيدي القاضي هما من أقحمانني في العملية، وأظن أنه بعد التحقيق توضح تورطهما، ولن أتحمّل ذنب عملية لم أربح منها

سوى دنائير عكسهما، لأنهما المدبران والمخططان لها، والمستفيدان من كل شيء.

أنا كنت مجرد وسيلة وجسر ينقلان من خلاله كل ما يريدون ولا يهمهم سوى مصالحهم. لكن للأسف عندما تحطم هذا الجسر كانا أول من يكملان تهديمه دون شفقة، وتنكرا لي وأوهما نسياساعداني...

الأستاذة بسمة؛ وبالرغم من أنني خنت ملحها وسنوات العشرة، وتنكرت لجميلها وللمكان الذي كنت أقتات منه لأتحمل عواقب جريمة لم أستفد منها سوى العذاب والإهانة. هي من فتحت عيني على خيانة أكبر، فمهدي كان ينوي النفاذ بجلده، وأن كل وعوده لي كاذبة لأنه هو أيضًا في ورطة وسيقحمني ليلبسني التهمة وحدي.

عندما سمع مهدي تصريحات سمير فتح عينيه اللتين زادتا اتساعًا، وبقي ينظر حائرًا مصدومًا بما قاله سمير عن بسمة، التي كانت تزوره لتخفف عنه، لكنها في الوقت نفسه كانت تنسج خيوط خططها لتعرف الحقيقة...

بسمة بقيت مسمرةً في مكانها تنظر للقاضي ولم تعره اهتمامًا ولا نظراته كأنه شبح غير موجود، ليوصل سمير اعترافاته مسترسلًا في الحديث.

- وبالفعل سيدي القاضي لاحظت بعدها تهرب مهدي مني وجلسه في زاوية لوحده، أصبح لا يرد على رسائلي التي كنت أبعثها إليه في السجن عبر الحراس. ظلمت وظلمت معي هذا الشاب لأنه لم

يكن يعلم بأي شيء. كان شابًا ساذجًا أنهكته إعاقته؛ قدم ليساعدني ويعيل عائلته...

سيدي القاضي؛ أنا من أدخلت في عقله فكرة الربح السريع، وخلقت منه مجرمًا محترفًا... فخان أول من علمه الاحتيال وكسب رزقه بطرق غير شرعية. فأول من بدأ بتطبيق الدرس على معلمه فسرقه في عقر داره لأنني لم أنتبه أنه سرق بعضًا من العملة، وأدخلها في ساق الدمية...

أما مهدي وجمال التقيت بهما عدة مرات، وبقينا نخطط لكيفية إخراج وتهريب العملة، كما أن جمال من وضع المال في المستودع عندما كانت بسمة في جنازة إحدى صديقاتها وتُدعى جزائر، وأخذ المفاتيح من مهدي الذي كان خارج البلاد، وتلقى الأوامر منه، ويمكن أن تسألها سيدي القاضي.

كان كل شيء مخططًا له... لم تصدق بسمة ما تسمعه من وقائع وبالذليل، وسمير يسرد كل ما حصل، صراع في نفسها والألم يقتل الأمل، ويرافق وجعها والاستسلام لخسارة شخص آخر، لكن هذه المرة الخسارة ستكون من نوع خاص... لم يمت الشخص وإنما سرقته الخيانة باسم الحب الذي لطخه بمبادئ مزيفة عفنًا بكلمات زوقها ليحقق مصلحته.

- ليس عندي شيء أخسره كما أنني لن أستفيد باتهامهما باطلاً سوى إنصاف ضميري، كما أنني أملك دلائل أخرى تدينهما... إنكراها عند الشرطة. في قضية أخرى، ولن أتحمل أوزارها لوحدي.

- جميل؛ ألاحظ أن حراس السجون استقالوا من وظائفهم وهي الحراسة ومراقبة المسجونين إلى العمل كساعي بريد ينقلون رسائل العشق والغرام والاتفاقات بينهم، الآن تهمني قضية التهريب، لا تتكلم حتى أمرك... حسناً. شرطي نادي على الشاهدة لتدخل القاعة.

كانت حياة تسرع نحوى القاضية بحركة خفيفة، تمر برواق القاعة خائفةً مرعوبة؛ تود لو لم تناديها، ولم تقحم نفسها في هذه القضية.

- كنت حاضرةً يوم وقعت عملية التهريب وأنت من أبلغ الشرطة؟

- نعم سيدي القاضي؛ كنت بيت بسمه.

- هل تربطك صلة قرابة بالضحية أو المتهمين؟

- لا؛ تجمعي صداقة ببسمه، هي بمثابة أخت لي، آه؛ وحتى مهدي أعرفه جيداً هو خطيبها. أما سمير فكان يعمل في المكتبة قبل أن يستقيل منذ مدة.

- أخبرينا بكل ما جرى باعتبارك من أخبرت السلطات.

- لا شيء سيدي القاضي سوى أنني كنت في بيت بسمه. فقد أوصتني بالآأترك المنزل في غيابها، كما أنني تقريباً أعيش معها...

في تلك الليلة سمعت صوتًا غير مؤلوف في الأسفل وبالضبط في المستودع حيث كان يفصل بين الطابق الأرضي والمستودع باب داخلي. كنت نائمةً في الطابق العلوي ومع ذلك سمعت الضجيج.

في بادئ الأمر ترددت في النزول، لكن بعدها تشجعت وقررت التأكد مما يجري كانت الصدمة، وفُوجِئت وأنا أنظر من ثقب الباب بشابين يقومان بنقل العملة وإخفائها بإحكام في السيارة بعدما فُصلت منها قطعها الداخلية.

وسمير كان أحدهما لأنني كنت أعرفه جيدًا. ودون تردد اتصلت فورًا بالسيد مصطفى وزوجته، وأخبرتتهما بكل ما حدث... حضر بعدها فورًا بعدما أخبر الشرطة، واقتحموا المكان، ووجدوا الشابين متلبسين يقومان بنقل وإخفاء العملة بإحكام داخل السيارة.

- كم كان عدد الصناديق؟

- لم أنتبه جيدًا. لكنها كانت صغيرة ومخبأة بين الرفوف الخاصة بالكتب.

- واصلني واسردي كل ما حدث لأنني أرى مستجدات أخرى
ذُكرت في المحضر حصلت خلال التحقيق...

- نعم سيدي القاضي؛ عند التحقيق قيل أن المبلغ المحجوز أربع مئة ألف دولار، لكن ما صرح به سمير هو أربع مئة وخمسة وستون

ألف دولار، وما قاله المتهم الثاني أربع مئة وثلاثون ألف أي ما عُثِر عليه داخل السيارة، وعندما سألتني الضابط عن المبلغ إذا ما سمعت شيئاً أو رأيت أجبته بالنفي...

وعاودوا تفتيش المنزل لكن لم يعثروا على شيء، وسمير كان مصرّاً على المبلغ، وتفتنت بعدها أنه عندما رأيتهم في المرة الأولى من ثقب الباب كان فاتح جالساً وقدمه المبتورة عارية غير موضوعة بالقدم الاصطناعية، وعندما قُبِضَ عليها متلبساً كان يلبسها، فاقترحت عليهم نزعها منه، فربما أخفى بقية المال فيها، وكان حدسي في محله...

فبعد تفتيشه عُثِرَ على النقود وقد دسها داخل القدم الاصطناعية، التفت سميّر نحوه كحيوان مفترس يود أن ينقض عليه، لكنه مكبل ما بيده حيلة سوى الصمت والرضوخ لواقع صنعه هو ليأخذ جزاءه.

- جميل؛ خائنون للوطن وخونة بين بعضكم. إذن فاتح بريء ولا تعرف أن هذه العملية غير مشروعة، وفي الأخير تخفي المال عن شريكك. ومتى حدث ذلك؟

لكنه بقي صامتا ورفض الإجابة، وسرعان ما انتهز سميّر الفرصة ورد على السؤال مغتاطاً مقهوراً.

- أعرف متى سيدي القاضي، عندما كنت منهمكاً في نزع غطاء الباب الخلفي للسيارة. وكان الأمر صعباً واستغرق ذلك مني وقتاً...

- ثم استدار نحوه فاقداً أعصابه يصرخ بوجهه.
- خائن. سارق. وثقت بك وختنتي. تعلمت السرقة من أسيادك ليكونوا أول من تسرقهم.
- اصمت وإلا أدخلتك الحبس، ولن تدافع عن نفسك، أحذر أن تتكلم قبل آذن لك، ماذا تنتظر منه أن يفعل؟ يصدق ويصلي خلفك!
- كل ما كان يحدث ومهدي صامت يعبث بشفتيه وعينه اللتين نال منهما الغضب والغيط منالاً عظيماً، لكن ما بيده حيلة سوى الصمت والنظر والانتظار.
- أساتذة؛ هل هناك أي أسئلة للشاهدة؟
- لا سيدي القاضي.
- إذن؛ فليدخل الشاهد الثاني.
- سيد مصطفى هل تجمعك أي صلة قرابة بالضحية أو المتهمين؟
- لا؛ سيدي القاضي؟
- حسناً. ارفع يدك اليمنى وردد ورائي «أقسم بالله العظيم أن أقول الحق ولا شيء غير الحق»...
- أقسم بالله العظيم أن أقول الحق ولا شيء غير الحق.

- إذن؛ أخبرني بكل ما رأيته.

وأخذ يقص عليها نفس الوقائع التي سردها حياة بدقة.

- إذن بسمه؛ أعود إليك. هل لديك ما تضيفه؟

- أكيد سيدتي؛ جئت اليوم كضحية. في بادئ الأمر آمنت ببراءة مهدي وأن القضية لُفِّتْ ونُسِبَتْ له ظلمًا وانتقامًا، كما أخبرني، ولم يكن لي من سبيل سوى المراوغة وحشر سمير في زاوية تدعوه للاعتراف.

فعلاً وبعد أيام استدعاني سمير وأخبرني بأن مهدي متورط في القضية، فقد اعترف عندما قُبِضَ عليه بأن هذا الأخير هو المهرب الحقيقي ليتراجع عن أقواله وينكر ذلك متذرعًا بخوفه وفرعه وأنه لم يجد اسمًا سوى مهدي كما أنه مستأجرًا لا يعرف أصحاب العملة الأجنبية المراد تحويلها.

وعندما سألته عن المكان الذي كان سيتم نقل العملة وتحويلها إليه، أخبرني أنه فهم من مهدي وجمال أنهما سينقلانها لإيطاليا عبر السفينة. من حسن حظي أنني كنت في تلك الآونة أتابع قضية شخص جزائري الأصل مغترب بإيطاليا، وحضرتني فكرة وسألته إن كان بإمكانه التحري عن هذا الشخص، وأعطيته اسم مهدي؛ الذي أخبرني

أنه كان مسافرًا إلى فرنسا على أساس أنه سينهي بعض الأوراق المتعلقة بوالده المُنْتَوَى...

لكن بعدما أخبرني سمير بكل هذه الأحداث شككت في أمره، وأردت قطع الشك باليقين. بالرغم من أنني كنت في قرارة نفسي غير مقتنعة بما أقوم به، وأنه ضرب من الجنون، ومع ذلك أصريت على كشف الحقيقة وإخراج آخر أوراقي، ولو كنت أسلك الطريق الخطأ في كشف الحقيقة وربما سأنهم شابًا ظلمًا ومع ذلك لم أراجع.

لتكون المفاجئة ويصلني من موكلي هذا الفاكس بعد تحريره باعتبار أنه يملك علاقات واسعة بإيطاليا، وأرسل لي كل المعلومات من السفارة الجزائرية عن مهدي، وهذه الرسالة سيدي القاضي أقدمها لكم توضح فيها السفارة كل شيء، وهذا ما يؤكد أن مهدي وطيلة الفترة الماضية عندما أوهمني بسفره إلى فرنسا قد كان يكذب، ووجهته كانت إيطاليا للأسباب المبينة في الفاكس.

استلمت القاضي الورقة، وقرأتها بتمعن، وفي صمت والجميع يصوب نظره اتجاهها ينتظرون ما ستبوح به القاضية سوى مهدي الذي كان واقفًا كغصن ذابل ظهره مقوس وعينه شاخصتان في الأرض؛ تحسه بنينًا هشًا تتفتت جدرانه شيئًا فشيئًا؛ لتكون كومة رمل لا معنى

لها تنتظر رياحًا لتبخرها كالرماد انطفأت نارها وخمد لهيبها، وبعدها استطردت الفاضية قائلة:

— سأقرأ فحوى هذه الرسالة:

«السلام عليكم، أتمنأك بخير أستاذة.

استطعت وبكل سهولة التقصي عن المدعو «مهدي حرباوي».

هو شاب مغترب يسكن منذ سنوات هنا رفقة والده في أحد شوارع ميلانو بإيطاليا، للأسف سمعته مشكوك فيها لأنه يخالط بعض شبكات المافيا هنا وله عدة سوابق، كالسرقة والاحتيال وتهريب العملة لكن ليس بشكل خطير، وحُكِمَ عليه بالسجن لمدة شهور، ودفع غرامات... يعني يتعامل مع عصابات، لكنها ليست خطيرة لحد الساعة، لأنه مُتابع الآن من قبل الشرطة، فهم يشكون بتورطه في عمليات أخرى، ربما أخطر من السابقة، وقُبِضَ عليه عدة مرات في المطار بتهم متعددة كالتهريب وتحويل الأموال والتزوير... إلخ. لكن يتم الإفراج عنه لانعدام الدليل، ومع ذلك يبقى تحت المراقبة، وربما معظم أعماله المشبوهة في الجزائر...

أما والده فهو رجل هرم عاجز، ومصاب بشلل نصفي يأتي لزيارته بين الحين والآخر، لكن بين فترات متباعدة، ومهدي حاليًا يقيم في الجزائر، ويتنقل بين البلدين. وآخر سفر له كان منذ حوالي ثلاثة أشهر.

وكل هذه المعلومات موثقة في السفارة الجزائرية بإيطاليا كما طلبت مني.

ألف تحية أستاذة.»

- هل لديك أي تعليق سيد مهدي على ما سمعته؟

- ليس بالضرورة أن أكون أنا المقصود. كما أن الآنسة تعلم جيدًا أنني كنت مقيمًا في فرنسا وليس بإيطاليا.

ارتجف قلبها لسماعه يدعوها برسمية وكأن الأيام لم تجمع بينهما، لكنه على حق، فما فعلته به ليس قليلًا، لكن هذا جزاؤه وأقل شيء فعلته، صراع كان بداخلها لا تعرف كيف تحسمه.

- بسمه؛ لم يصادف وأن رأيت جواز سفره من قبل والأختام الموجود عليه؟

- لا سيدي القاضي، كما أنني لم أستقبله يومًا في المطار وإنما نلتقي بعد عودته، وفي الأغلب الأحيان في مكان العمل.

- تعرف جيدًا سيد مهدي أنني أستطيع التأكد من جواز سفرك وعلى أساسه أقرر، إذن فلا تتحایل وتراوغ أظن أنك فهمت قصدي.

نظرت إليه بعد أن خففت نظارتها لأنفها وأمعنت النظر إليه مباشرة وهي تبسم بمكر معلنة قوتها وأنها قادرة على فعل أي شيء.

- أساتذة هل لديكم أي أسئلة؟ إذن بما أن بسمه ليس لها محام واكتفت بتوضيح كل الأمور بنفسها نسمع دفاع المتهمين.

استهل محامي سمير مرافعته في القضية، وتأسس فيها بناءً على اتصال من بسمه، وكان أحد زملائها في الجامعة، ثم اختار مهنة المحاماة وظيفته له، رافع مدافعاً عن سداجة سمير وتورطه في قضية لم ينل منها سوى المتاعب، وضع مستقبله في متابعة من استفادوا من خططهم ونفذوها بواسطته، كما أن اعترافه خير دليل على ندمه، وبما أنه غير مسبوق من قبل التمس له البراءة أو غرامة مالية...

أما صديقه فاتح فقد أُنجم هو الآخر في عملية خطيرة، وما دعاه لذلك حاجته وفقره لتلبية عائلة ليس لها أب وهو وليهم. واعتراف سمير بعدم علم فاتح أكبر دليل على براءته وبما أنه طالب في مدرجات الجامعة وهذه آخر سنة له التمس له الدفاع البراءة.

أما دفاع جمال؛ فحاول إقناع الهيئة بأنه غير معني بهذه القضية، وأن إقحامه فيها مجرد انتقام من سمير حتى لا يتحمل أوزار أفعاله، أو لأنه يتستر على أشخاص آخرين لهم اليد في هذه العملية خوفاً منهم، أو لأنهم وعدوه وعوداً كاذبةً. فالتمس البراءة لموكله.

- لست كاذباً، ولم أُلحق له أي تهمة، جمال ومهدي هما من كان يخططان، وأنا أنفذ والآن يريدان الإفلات بجلدتهما، أنا مجرد شخص مأمور وهم الآمرون. أرجوك سيدي القاضي لا تصدقه.

- يكفي، للمرة الأخيرة أذكرك هل فهمت. إذن القضية في النظر الأسبوع القادم.

أما مهدي فقد كان واقفًا كجذع شجرة؛ تعرت من أوراقها وكشفت خطوطها قبحها، ولم تكن هديتها ثمارًا، بل كانت مجرد شجرة للزينة مزيفة بألوان أوراقها، وعدوها الخريف بنسيمه؛ كشف حقيقتها لمن كان يرعاها، ويثق بظلمها الكاذب، وهكذا أصبح مهدي أمام بسمه وحقيقته تُكشَف لها دقيقةً بعد الأخرى.

بعدها انصرفت بسمه مسرعةً خارج القاعة ومهدي لا يعيرها أي اهتمام، لكن بداخله بركان:

- رحلت بسمه بعدما ورطتني وتركتني أتخبط ككبش مذبوح.

- الملف الثاني، القضية رقم ١٢٧٨، سمير ساعد، مهدي حرباوي، جمال رابحي. شرطي أدخل فاتح إلى غرفة المسجونين ليس معنيًا بهذه القضية. مصطفى بجاوي، عائشة معمري، لميس بجاوي، نعيمة زعرور هل هي حاضرة؟

اهتز الثلاثة لهذا الاسم بينما كانوا تائهيين جامدين كالتماثيل وهم يستمعون للقاضي ينادي باقي الحضور، لكن آخر ما كانوا يتوقعونه اسم نعيمة والتفتوا ينظرون لبعضهم ولم يفهموا شيئًا.

- لكنها ميتة... (قالها سمير دون وعي).

- لماذا، هل قتلتها أنت؟

ارتبك حائرًا وهم مسمرون أماكنهم، لسمع باب القاعة وهو يُفْتَح، صدر الصوت عاليًا مفتخرًا يعلن بكبرياء قائلاً:

- نعم سيدي القاضي؛ السيدة نعيمة حاضرة...

واقتربت نحو القاضي ببزتها السوداء وقد غيرت دورها ومركزها في هذه القضية. وقفت مقابل دفاع المتهمين جمال وسمير.

- الأستاذة بسمة نعيمى حاضرة عن الضحية نعيمة زعرور، وأنأسس فيها كدفاع سيدي القاضي، فقط؛ ممكن لحظة، فهي مصابة في رجلها، لهذا يصعب عليها المشي.

دخلت القاعة تمسك بيدها حياة، تقترب شيئًا فشيئًا والجميع ينظرون ويتنظرون ما سيحدث، أما مهدي ومن معه ظلوا يتابعون خطواتها شاخصةً أبصارهم كأنهم يرون شبحًا، أو يعيشون فيلم رعب أحداثه مشوقة، لكن مفاجآته كانت غير سارة بالنسبة لهم.

- فقط سيدي القاضي؛ أنهي إلى علمكم أن الضحية خرساء، كما تم إعلامكم من قبل، وهي لم تتعلم إشارات الصم والبكم، لكن طريقة شرحها لما تود إيصاله بسيطة جدًا ومفهومة، لا أستطيع ترجمة ما تقوله كوني الدفاع.

- ومع ذلك سيبقى المترجم للغة الصم البكم، وأنا سأقرر في حالة لم أحتج له، ذلك بما سيدور في الجلسة، أظن أنك تعرفين القوانين جيداً، وأنت أدرى بالإجراءات المعمول بها.

- أكيد سيدي القاضي.

- قبل أن نستهل؛ أود أن أطرح نفس السؤال عليك مهدي وهذا من حقك إذا ما أردت أن تعين محامياً، ويمكنك طلب تأجيل القضية، فما ردك؟ لكن الشاب بقي مسمراً يغرس رأسه بين كتفيه... بقي صامتاً غير مصدق لما يراه والمفاجآت تنهال عليه دون توقف هدية من بسمه، هذه التي لم تتردد في إغراقه بما أعدته له من صدمات.

- مهدي هل تسمعي. ما بك هل صرت أصم، وتحتاج أنت كذلك إلى مترجم؟

وانفجر الجميع يضحكون. بسمه التي حولته لأضحوكة بعد كل ما أهدها لها وأولها قلبه.

- سكوت؛ فليصمت الجميع.

- لا سيدي القاضي، لن أوكّل أي محام في قضيتي هذه كذلك.

- هل أنت متأكد؟

- نعم؛ متأكد.

- إذن فلنبداً، وأنت سيدتي المترجمة سترجمين في حالة طلبت منك، اتفقنا؟

- حاضر سيدي القاضي.

- إذن سيد مصطفى والسيدة عائشة ولميس أرجو أن تفضلوا خارج القاعة باعتباركم شهوداً إلى حين أنادي عليكم.

كان المترجم سيده في العقد الرابع من عمرها. استُدعيت لتكمل دورها في المجموعة. اكتملت كل الأدوار والجميع على خشبة المسرح. كل يعرف دوره جيداً، لكن من سيتقن لعبته ليحظى بإعجاب الجمهور وتصفيقاته؟ ومن سيخذه أو سيخذه نفسه ليعلن هزيمته فيخرج من اللعبة خاسراً؟

- سيده نعيمة؛ هل تسمعينني جيداً؟

أشارت بيدها أنها تسمعها، لكن ليس بشكل جيد.

- طيب سأحاول رفع صوتي، هل تعرفين هؤلاء الشباب ثلاثهم؟

نظرت إليهم الواحد تلو الآخر، وأومات برأسها بالإيجاب.

- جيد. من قام بخطفك ذلك اليوم؟ أرجو أن تشير بي إصبعك وسأفهم.

- رفعت إصبعها مشيرةً لسمير وجمال.

- كيف تم ذلك؟

- بدأت تسرد الأحداث بالإشارات؛ توضح كيف أقنعها سمير بأخذها لبسمة لتصطدم بوجودها في المطار وتُجبر على الخضوع لهما بعدما أشربها سمير عصيراً تأكدت فيما بعد أنه أفقدها كل قوتها...

ولم تستطع أن تدافع عن نفسها، وهي تركب الطائرة طوعاً في أعين الناس وكرهاً في سريرتها لأن لسانها خانها، وهي تُلقَّب بالخرساء تاركةً بلدها وابتنتها بين ليلة وضحاها، والسبب لا تعرفه ولا تفهم من الفاعل أصلاً...

حاولت بالإشارات مشيرةً بإصبعها لسمير وجمال وتحاول شرح معاني كثيرة بطريقة ذكية؛ تفسر وجعها ببكاء ورعب. واستطاعت أن توصل ما أرادته للقاضية بلغة الإشارات التي تبتتها، وهذه الأخيرة تساعدها بترجمة ما تحاول إيصاله ونعيمة ترد بالإيجاب والنفي. حتى أكملت سرد الوقائع كلها.

- هل قام سمير وجمال بتهديدك لفظياً فقط أم بالضرب؟
نفث ضربهما لها، لكنها أومأت برأسها بخصوص التهديد باللفظ؛ شارحةً ذلك بالإشارات، ونزلت تلك الدموع ساخنةً حزينةً تعبر عما آلت إليه نعيمة.

- إذن؛ هداك لفظياً. طيب!

بعدها أمعنت النظر في المتهمين، واستطردت قائلةً:

- أنتم متهمون بخطف السيدة نعيمة زعرور طبقاً لنص المادة ٢٩٣ من قانون العقوبات الجزائري، وإخراجها خارج الوطن. وأظن أن رسالتها وصلتكم بشكل جيد أحسن من أي شخص عادي يتقن لغة. ما قولكم في التهمة المنسوبة إليكم، وردكم على ما كنتم ترونه، وتسمعون من الضحية؟ نبدأ بك سمير باعتبارك من كاشفي الحقيقة، وربما ستسهل عناء طرح الأسئلة والمراوغة والكذب، حتى تتمكن من مساعدتك.

- لم يبق عندي شيء لأخفيه. في ذاك اليوم منذ عام أو أكثر اتصل بي مهدي وطلب مني مقابله، لأنه يريدني في أمر مهم، عندما التقينا أخبرني أنه يحتاج إلي في مهمة صعبة، لكن لا أحد يستطيع تنفيذها غيري، وذلك بأن آخذ السيدة نعيمة إلى المطار، فهناك شخص ينتظرني أمام المدخل، وزودني برقمه...

كما قدم لي عصيراً، وطلب مني أن أعطيه إياها، لكن هنا في المنزل قبل أن نذهب، وأن أقنعها بشربه، وأكد لي أنه لا يحوي شيئاً سوى مهدئ، كما طلب مني عدم طرح الأسئلة، بل علي التنفيذ فقط...

رفضت الفكرة في بادئ الأمر رفضاً قاطعاً خاصة أنه رفض إخباري ما ينوي فعله، كما أنني ورغم تورطي معه في عدة عمليات خارج

القانون لكن ليس لدرجة أن يصل الأمر إلى الخطف، لكنه أقنعني أنه لن يؤذيها، مهما يكن فهي والدته خطيبته، وأن الأمر متعلق به لأنه ينوي مفاجأة بسمة، ويبعثها إلى الحج مع أقارب له، وأطلعني على التذكرة... وبعدها بقي يقنعني بأنه لن يؤذيها، وسيحقق لها أمنيته، والدليل على ذلك أنه سيبعثها مع رجل وامرأة من معارفه، وعندما سألته لم لا يرافقها هو إلى المطار؛ أخبرني أنه سيقى برفقة بسمة حتى لا يحرق المفاجأة... لم أصدقه لأنني أعرف جيدًا أن بسمة لا تترك والدتها بمفردها، فما بالك بأن تسافر السيدة نعيمة خارج الوطن من دونها، لكن ما أسكتني في هذه الخطة المال، الشيء الوحيد الذي دفنت معه كرامتي ونزاهتي وحتى رجولتي، وصرت أسيره.

فعلاً تمت الخطة وأخبرت السيدة نعيمة أن بسمة تنتظرها، وطلبت مني أخذها إليها، وبعدها بقيت أمازحها، وقدمت لها العصير ونحن في طريقنا إلى المطار، عندما وصلنا وجدت جمال في انتظاري، وكانت أول مرة أراه فيها، عندما أنزلت السيدة نعيمة من السيارة أخبرتها أنه أحد معارف بسمة...

لكنها بدأت تتوتر، وأحست بشيء مريب يحصل، وبدأت المقاومة؛ فهددتها أنا وجمال، لكنها لم تستطع فعل شيء بسبب المنوم، كما أننا

أجلسناها على كرسي متحرك باعتبارها عرجاء، وسلمتها لجمال وتركته يكمل المهمة.

بعد مرور عدة أشهر عندما نسيت القضية أو بالأحرى تناسيتها، وتأكدنا من وفاتها بعد أن طمأنني مهدي خاصة بعدما رأيت بسمة في تلك الحالة، ومهدي يهدئ من روعها، هنا تأكدت فعلاً من أنه قام بخطفها...

لكن لم أجزء على الاعتراف، زيادة على تهديده لي؛ الأمر الذي أجبرني على الصمت، ليخبرني مهدي بعدها بأنه تم القبض على جمال وحذرني من البوح بأي كلمة، لأن جمال التقى بالرجل الذي أودعه السيدة نعيمة، ولم نفهم سبب توقيفه، فلا أحد يعرف بالخطأ غيرنا... وبقيت المسألة عالقَةً حيث كان يتصل به من الحين للآخر ليستفسر عن الأمر، لكن عندما ذهب مهدي لزيارة جمال في السجن قبل أن يُقبَض علي هو الآخر أخبره أنهم علموا بأمر الخطف لذلك تم إيداعه بالسجن وهو على ذمة التحقيق...

حينها تملكني الخوف وصرت أرسم في خارطتي كل الاحتمالات وطرق النجاة، لكن مهدي هدأ من روعي وطلب مني الابتعاد، وسيحل المسألة بنفسه. لأفاجأ باستدعاء ثان وأنا داخل السجن...

وعندما قابلت مهدي طمأنني بأنها مجرد شكوك، وستُفصل القضية وتُقيد ضد مجهول لأن السيدة نعيمة ميتة كما أنه يمكنه التأثير على بسمه بكل سهولة.

حولت هذه الأخيرة نظرها إليه وهي تستمع لاعترافات سمير، لكنه لم يبادلها النظرات وبقي صامتاً.

- آه جيد خطة محكمة وأنت دائماً جاهز للتنفيذ سيد سمير.

أما نعيمة فكانت جالسةً على الكرسي تنظر إليهم بنظرة الحاقدة الناقم، وهي تذكر ذاك اليوم المشؤوم حين حاولت المقاومة، لكنها لم تستطع؛ خانها الكلام، فأضخت أسيرة الصمت، كما أن قواها كانت منهارةً بفعل المنوم الذي قدمه لها سمير في العصير، وبقيت كالكرة تتلاطم بين الأقدام حتى أُخرجت من الملعب إلى مكان لم تتخيل يوماً زيارته أو على الأقل ليس بهذه الطريقة.

- ما رأيك في كل ما سمعته يا جمال، وقبل أن تبدأ في الإنكار كما فعلت منذ قليل، وتعيد ما قلته في محضر السماع لأنه يوجد شهود، وكل الأدلة تشير إلى تورطك. سمعت كلام سمير وبعد قليل؛ سيلتحق بالجلسة باقي الأطراف ليدلوا بشهادتهم، فأرجو منك أن تقول الحقيقة، لأن الضحية التي كنت تتأمل موتها لتنجو بفعلتك حية تُرزق أمامك فلا داعي للمراوغة وتعقيد المسألة أكثر.

والآن تفضل لك كامل الحرية في التصريح بما شئت.

لم يعرف كيف يتصرف وكل الأنظار مثبتة نحوه أما نعيمة فكانت تتابعه كالشبح الذي يحاول الانتقام من قاتله، لكنها اليوم تتابعهم وشبحها حي لا يزال ينتظر أن يأخذ بثأره ليرتاح.

- لا أعرف ما أقول.

- الحقيقة ولا شيء غيرها.

- لم أكن أنوي إقحام نفسي في هذه القصة، لكن عندما طلب مني مهدي أن آخذ تلك السيدة، وأسلمها للمدعو مصطفى بعدما أعرفه بنفسه على أساس أنني أبيع العقارات، وذلك عن طريق ابن عمه كمال، والذي تعرفت عليه بتخطيط من مهدي دون أن يظهر نفسه بسبب بعض التعاملات المشتركة بيننا...

كان كمال في الجلسة يرى ويسمع كل ما يحدث. حيث كان شاهداً هو الآخر في القضية، وتم سماعه في المحضر عند الشرطة...

- أيها الخسيس المعتوه سينتقم الله منكم. (كان يرددها بين شفثيه وهو يستمع لتصريحات جمال).

- حتى كمال شاهد في القضية، أنت تعلم جيداً ذلك، وكل أقواله مدونة في المحضر، لهذا أتمنى منك مصارحة المحكمة، أحسن من

إثقال كاهلك بتهم أخرى؛ أنت في غنى عنها، كتضليل المحكمة مثلاً، فقط بين قوسين أنبهك حتى تعلم، واصل إكمال ما بدأته.

كان العرق يتصبب من جبينه وكأنه فريسة ينتظر موعد هلاكه وليس بيده حيلة أو مفر سوى الاعتراف. وواصل معترفاً:

- تعرفت على مصطفى من خلال كمال وأوهمته أن السيدة نعيمة والدتي، ولم أكن أعرفها لأنني التقيتها أول مرة في المطار بعدما جلبها سمير، وانتهزنا الفرصة باعتبارها خرساء، ونفذت خطتي بناءً على أوامر مهدي؛ الذي لحقني بعد ذهاب سمير، وتأكد من استلام مصطفى لنعيمة وأخذها معه رفقة عائلته لتأدية مناسك الحج.

- ولماذا لم تستفسر عن سبب خطفها ما دمت صديق مهدي المقرب؟

- يوجد بيننا مصالح كثيرة ومعقدة وكان رجاؤه أن أنفذه هذا الطلب، ترددت في الأول، لكن بعدها وافقت لأنه وكما ذكر لي أنها ستكون عائقاً أمام زواجه، وأنه يستحي من نسبها لأنها امرأة قروية خرساء.

كلمات كانت كالصاعقة على بسمة، رفعت رأسها؛ تنظر إلى مهدي وجرح غائر في قلبها؛ لم يستوعب ما قاله ذاك الرجل، ابتسمت بدموع بللت رموشها وبدخلها نزيف أغرق صدرها لأن خنجر الغدر بدأ يزرع رأسه في روحها وفي أماكن حبها له.

- لا أصدق أن حياة الناس لعبة عندكم؛ تساعده في خطف امرأة لا تختلف عن طفل بريء نقي لأنه يخجل من نسبها. فعلاً كارثة، كما أنبهك لأمر مهم؛ أظنك نسيتته أو تناسيته من وقع الفاجعة...

ألم تقل وتأكد عدم معرفتك لمهدي في قضية تهريب الأموال، وأنكرت كل ما قاله سمير، أم أنك تراجع عن أقوالك، أو هناك احتمال آخر يجب أن نأخذ به ألا وهو أنك لا تعرفه في قضية التهريب، ولم تره من قبل، أما في قضية الخطف فهو شريكك وصديقك المقرب. قالتها القاضي وهي في قمة سعادتها لأنها استطاعت بذكاؤها توقيع المتهم في فخ نصبه لنفسه، وكأنها طاووس نفشت ريشها وسط مملكتها متباهيةً بذكاؤها وبحسن تسييرها لجلستها وكشف الحقائق أمام الملاء.

- إذن سيدي؛ أنا أنتظر؟

لم يكن رده سوى الصمت، وقد لبس وجهه السواد، وصدُم من نفسه بخطأ فادح وقع فيه حتى محاميه ارتبك وبقي جامداً لا يعرف ما العمل سوى النظر.

أما مهدي فكان يعظ على شاربيه ويعصر عينيه المغمضتين يعبر عن هزيمته وكشف حقيقة طالما أخفاها لتكشف في لحظة وبهفوة صغيرة، أو لحسن حظ نعيمة التي بقيت تصارع ظلم وقسوة الأيام وتكابد لتصل اليوم وتكون الشاهدة على كل ما يحصل انتقاماً لكل ما حصل.

كانت روحها تصرخ بأعلى صوتها، لكن لا أحد يسمع: «لماذا يا مهدي؟ لماذا؟»

- سمير؛ لم تكن على علم بأن مهدي لحق بك عند ذهابك إلى المطار؟
- أبداً سيدي القاضي؛ هذه أول مرة أعلم بمتابعته لي، ولا أعرف سر ذلك.

- إذن نصل لمربط الفرس. مهدي؛ كُشِفَت اللعبة، ولم يبق سواك لتكمل بقية القصة؛ حتى نضع كلمة النهاية ونكشف اللغز وسر قيامك بكل ذلك وعناء التنفيذ، ما كان هدفك من وراء كل ذلك.

لم يبق لك سوى احتمالين: الإنكار وأظن أنه لن ينفعك في شيء، أو قول الحقيقة كاملةً وذلك أحسن حتى لا تنهك بتضليل العدالة، ويكفيك ما حُمِّلَت من تهمة.

ترنح مكانه ودارت الأرض به وكأنه في حلقة كانت فارغةً لتمتلاً بكل أعدائه، ويُحشَر في وسطها؛ لا يقدر على الحركة أو الهروب أو المباغته، ولا حتى التنفس. اعترافات أفقدته القدرة على الكلام، وكشفت ما تبقى له من وجه مزيف؛ خاصةً أمام بسمه.

راح يتنفس بصعوبة مع أول حرف يخرج ليتابع كلامه بشجاعة لكن من نوع خاص، شجاعو خائن للوطن وللحبيب. الأولى زُرعت في قلب أرض والثانية زُرعت في نبض من أحب.

— مؤامرة تُحاك أمامي ولا أعرف السبب، لن أعترف بشيء لم أقم به، كما أن هذين الاثنين معتوهان إما لهما مصلحة في توريطي أو كل ما رواه الأول من نسج خياله.

— والثاني؛ ما قاله أيضًا من نسج خياله، وما هدفهما من توريطك؟ إذن أنت لا تريد الاعتراف؟ صح؟

صمت ولم يرد بحرف واحد مصرًا على موقفه وإنكاره؟

— أساتذة هل من سؤال قبل أن أدخل الشهود؟

بادرت بسمه بالسؤال فورًا قائلةً:

— من فضلك سيدي القاضي أود من سمير أن يفسر لماذا اختيار ذلك الوقت بالذات لاستمالة السيدة نعيمة وإقناعها بالذهاب معه ولم هو بالذات؟

— تفضل؛ أجب.

— أعلمني مهدي بدوام بسمه في العمل، كما أنه يعلم جيدًا أن السيدة نعيمة وبسمه لا تثقان سوى بي، فأنا من كنت أقضي حوائجهما من أيام السيدة زليخة رحمها الله، فكنت أنسب شخص لمثل هذه المهمة.

— أكتفي سيدي القاضي.

— إذن شرطي استدعي الشاهد الأول: مصطفى بجاوي.

- حاضر سيدي القاضي.
- تقدم إلى الأمام بخطوات ثابتة وللمرة الثانية سيدلي بشهادته، لكن هذه المرة ستكون كلماته فاصلةً وبدايةً لفتح باب اعتراف آخر.
- أظن أنه لا توجد صلة قرابة بينك وبين الجميع الضحية أو المتهمين؟
- صحيح سيدي القاضي.
- إذن أدعوك بأن تقسم على قول الحقيقة بعد أن ترفع يدك اليمنى.
- أقسم بالله العلي العظيم أن أقول الحق ولا شيء غير الحق.
- تفضل اسرد لنا الحكاية.
- بدأت حكايتي سيدي القاضي بعد عودتي لأرض الوطن، والاستقرار هنا، وأول ما أردته هو شراء عقار لبناء مشروع. وباختصار تعرفت على جمال عن طريق ابن عمي الذي أوهمه بأنه سمسار يتقن البيع والشراء. هكذا توالى الأحداث وعرف بأبني أنوي الذهاب للعمرة. وأكمل مصطفى سرد كل الأحداث حتى يوم وجد جمال بالصدفة واتصل بالشرطة ليتم القبض عليه.
- خطة محكمة يا سادة، أحستهم التخطيط والتنفيذ.
- أساتذة؛ ألا توجد أي أسئلة للشاهد لنكمل سماع بقية الشهود؟
- صمت الجميع وقد اكتفوا بما قص عليهم الشاهد وكأنه فيلم أحداثه من ضرب الخيال.

- شرطي نادي على الشاهد الثاني: عائشة معمرى.

دخلت بخطواتها الرشيقة الهادئة، ولم يحس أحد من الحضور بدخولها حتى وجدوها واقفةً بمحاذاة زوجها. امرأة جميلة وهيأتها توحى بأنها من عائلة عريقة؛ تفرض احترامها قبل حتى أن تتحدث.

- نعم؛ سيدة عائشة، هل من الممكن أن تقصي علينا ما حصل بعد أن تؤدي اليمين.

استهلت كلامها بعد أن رددت اليمين بكل رزانة وثقة بالنفس؛ تسترسل في الكلام وكأنها تقرأ جريدة أو تحكي قصة ألف ليلة وليلة، والكل منبهر بطلاقة وفصاحة كلامها وانتقائها للجمل بالرغم من أنها تحكي أحداثاً مؤلمة عاشتها دون أن تعرف حقيقتها.

- لم أكن أعرف السيدة نعيمة، لكنني رأيتها لأول مرة في المطار. صحيح أن زوجي أخبرني بأننا سنأخذ امرأة معنا، وهي والدته السمسار لأنه عاجز عن مرافقتها بسبب مرض والده، لم أرفض الفكرة بتاتا لكن عندما رأيتها، وعرفت أنها خرساء...

أحسست ببعض الضيق في صدري خاصة عندما قرأت معاني الخوف والحزن في عينيها، ودموعها التي كانت دائماً تبلل وجنتيها، ولم أفهم سرها، وفسرته ببعدها عن ابنها إلى أن حلت الكارثة... وأظن

زوجي أخبركم بكل شيء، والحمد لله أن الله أطال في عمرها لتتلاشى الغيوم وتظهر شمس الحقيقة.

- إذن أنت لم تنتهي لمهدي عند قدومه إلى المطار.

- في الحقيقة لم أره سوى في مكتب الأستاذة بسمة لأن ابنتي أخبرتني في المطار أن عمي ابن جدتي، هكذا كانت تنادي السيدة نعيمة، وتقصد جمال؛ لمحته مع رجل واقف يراقبنا، لكنني لم أعر كلامها أية أهمية حتى يوم انتبهت إليه في مكتب بسمة، وكان بالصدفة، أو للقدر دور في ذلك، وتعرفت عليه لميس ابنتي، وأخبرتنا بأنه الشخص نفسه الذي كان برفقة جمال.

بعدها أخبرنا بسمة والتي لم تصدقنا، فاقترحنا عليها أن لا تخبر أحداً وخاصةً خطيبها حتى نتأكد من الحقيقة، لكن على ما أظن أن جمال نفى كل شيء وأنكر ما فعل.

- شكرًا جزيلاً سيدتي... شرطي نادي على الصغيرة من فضلك.

كانت مرتبكة خائفةً تمسك بيد الشرطي، وعيناها تجولان في القاعة تنظر للجميع بذهول وفزع... لكن القاضي أحست بها وبخوفها، فحاولت التخفيف من حدة توترها وطمأنتها.

- تقدمي يا صغيرتي ولا تفزعي، أمسكي بيد أمك ولا تخشي شيئاً، وأخبريني ما اسمك؟ وكم عمرك؟

- اسمي لميس، وغداً أكمل ثلاثة عشرة سنة، وسأحتفل بعيد ميلادي.
فضحك الجميع وتبسمت القاضية، فتلك البراءة كسرت حاجز
الرغبة التي صنعتها القاضية في القاعة، ونجحت في إضحك الجميع
عدا مهدي الذي أضحى أضحوكةً يقف في قفص الاتهام، وينتظر ما
تحكم به الأيام.

أما بسمه فهي تتأرجح بين الخوف والندم، الانتصار والفشل، الحب
والحقد، ولا تريد شيئاً سوى الحقيقة التي بدأت تظهر كشمس طاردة
غيوماً سوداء؛ أخفت وجوهاً وظلمت أرواحاً؛ كانت طاهرة لا تعرف
سوى ضحكة بريئة ومعيشة بسيطة بساطة قلبها، لكن مخالباً أرادت
نهب ما تبقى لها من سعادة، وطمعت في سرقة ما تبقى لها من أمل
لأسباب لا تزال تجهلها لحد الساعة.

- آه؛ جميل، إذن ستحتفلين به غداً.

- نعم؛ مع أصدقائي وعائلتي.

- أخبريني لميس، هل زرت مكة من قبل؟

- نعم، وركبت الطائرة، وكنت خائفة جداً. لكن الآن لم أعد أخاف
وأود العودة.

- إذن أخبريني هل تعرفين تلك السيدة الجالسة هناك على الكرسي؟
(وأشارت بإصبعها إلى نعيمة).

استدارت نحوها وهتفت قائلةً:

- نعم؛ جدتي نعيمة، سافرت معنا، وكنت أنام إلى جانبها في الفندق، وبعدها في غرفتي عندما جاءت من مكة، لأننا تركناها هناك، أحبها كثيرًا لكنها مسكينة لا تتكلم، ومع ذلك فأنا أحبها وأتمنى أن تعيش معنا؟

- جيد. إذن ركزي معي لميس، وهل تعرفين ذلك الرجل الواقف وراءك الذي يلبس قميصًا أزرق اللون؟ (وأشارت لجمال).
أجابت فورًا دون تردد.

- العم الذي أحضر جدتي نعيمة إلى المطار، وكان يبكي ويقبل يديها وهو يودعها.

عندها لم تتمالك بسمة نفسها وهي تشاهد وتسمع لتلك المهزلة والأكاذيب التي حصلت، وقصة كانت أمها ضحية فيها نسجت وأُحيكت خيوطها بكل براعة.

- منافق كاذب، كيف استطعت رسم كل هذه التمثيلية وخطفت إنسانة خرساء؟ الله ينتقم منكم.

- أستاذة تمالكى أعصابك من فضلك، أعرف أن الموقف صعب لكن. حاولي الهدوء.

- أعتذر سيدي القاضي.

- لا تخافي عزيزتي، أريد أن أسألك آخر سؤال، وترحلين مع أمك، لكن يجب أن تركزي، اتفقنا؟

وأومات الطفلة برأسها توافق على طلب القاضي، وهي تشد وتضغط على يد والدتها، وقد لبس وجهها الخوف والارتباك ف لأول مرة ترى بسمه هكذا، والجميع مصوب نظره إليها.

- أطلب منك وللمرة الأخيرة التمعن في الشاب الذي يقف على يسارك لميس، يلبس قميصًا أسود هل رأيته من قبل؟ وأين؟

ثم أمرته بأن يرفع رأسه الذي كان يطرحه أرضًا كتلميذ يتلقى تأنيبًا من أستاذه أو رئيسه، و ينتظر الجزاء. وضعية لا يُحسد عليها، وموقف لن يتكرر في حياته.

التفتت وهي لا تزال ممسكةً بيد والدتها، وأخذت تنظر إليه والجميع ينظر متشوقًا لردها، أما هو وبسمه فأنفاسهما انقطعت في تلك اللحظة؛ تنتظر ما ستبوح به تلك الشاهدة الصغيرة، وهما يدركان أنها ستقول الحقيقة، وليس عندها أي مآرب أو مصلحة.

- آه، أجل أعرفه هو الرجل نفسه الذي رأيته في المطار، وبعدها في مكتب خالتي بسمه.

- وماذا كان يفعل في المطار لميس؟

- كان يتكلم مع عمي ابن جدتي نعيمة يوم جاء بها إلى المطار لتذهب معنا، كنت ألعب وأركض وراء أخي حتى لا يبتعد ورأيتهما يتحدثان وينظران لأمي وأبي وجدتي نعيمة. وبقياً هناك حتى دخلنا وركبنا الطائرة.

- إذن؛ أنت تتذكرينه جيداً لميس؟

- نعم خالتي؛ أنذكره عندما رأيته بمكتب الخالة بسمة، أخبرت أمي أنه صديق عمي ابن جدتي نعيمة. لكنهم لم يروه وأنا انتبهت إليه كان يتحدث في الهاتف.

لينفجر جميع من في القاعة يضحكون لبراءة تلك البنت وهي تنادي القاضية باسم خالتي معبرةً عن صدقها وصفاء قلبها بين كل تلك الوجوه المزيفة والقلوب الخبيثة.

ردها كان كالصاعقة ليكمل ما تبقى من أنفاس بسمة المتقطعة... أنفاس كانت حبيسة وجع وجرح؛ شهيق امتلاً بنار أحرق كل خلية من روحها، وزفير يعيده رماداً محترقاً. انتهت اللعبة وأُسدِل الستار على المسرحية. وبقي مهدي مسمراً في مكانه كأنه تمثال، كان رمزاً والآن القناع يسقط ليتحول التمثال لركام لا قيمة له ولا معنى.

- شكراً لميس ولكما مصطفى وعائشة؛ يمكنكم المغادرة... أما أنت؛ فبقيت آخر شخص لم تصارح المحكمة بالحقيقة. وهذه آخر فرصة لك؛ أمنحها لك لتعترف، كنت المدبر لكل شيء والبقية كانوا من نفذوا مخططاتك، كل شيء صار واضحاً أمام المحكمة بشهادة الشهود واعتراف المتهمين. تفضل؛ أنتظر، لكن ليس لوقت طويل.

لم يطل صمته ومن الواضح أنه كان يقلب الأمر في ذهنه ليقرر الكلام مباشرة، وقرر كل من في القاعة الإنصات باهتمام وبسمة أولهم؛ وهي من انتظرت هذه اللحظة منذ أشهر ولم تتوقع حدوثها.

- جئت متكرراً أسير بخطوات ثابتة نحوى هدفي. اسمي مهدي حرباوي، وُلدت هنا، لكن أخذني والدي إلى فرنسا. عشنا هناك مدة قصيرة لا تتعدى الخمس سنوات؛ لننتقل إلى إيطاليا. بعدما كبرت وجدت عائلتي مشتتة كل سلك طريقه إلى البلدان الأوربية المجاورة لإيطاليا، ولم يبق سوى أنا والدي...

كان مثلي الأعلى، وكنت متأثراً به لحد كبير، لكن للأسف أفلس والدي، وحُلَّت الشركة، وتم تصفيتها، والتي قدم في سبيل إنجاحها شبابه وماله. لكن وقبل كل ذلك كان يخبرني والدي ويُدعى «سعيد» وهو ابن عمه إسماعيل زوج زليخة السيدة التي تبنت بسمة ووالدتها، يعني ليس بمعنى التبنى، لكن باعته المنزل والمكتبة.

كان والدي منذ صغري ودوناً عن إخوتي يسرد لي قصة سعيد؛ الذي سرق ملك والده وباعه بعد الاستقلال منتهزاً فرصة وجوده في المهجر واستولى على ما يخصه؛ ليشتري منزلاً ومكتبةً، ويسجلها باسم زوجته زليخة، وعندما قرر العودة مطالباً ابن عمه بحقه في الميراث أخبره أن الاستعمار هدم منزل العائلة، ولم يبق منه أثر...

وأوهم والدي أنه يسكن في منزل زوجته، وهو ملك لها ورثته من والدها، لكن والدي لم يصدق، وحدث تصادم كبير بينهما وهدده بالعودة والثأر لحقه المغتصب.

توالت السنون وكبر الحقد في قلبي خاصةً بعد أن شلّ والدي بسبب الإفلاس، وقررت بعدها الانتقام. درست في إيطاليا، وكنت أتعامل بعد تخرجي مع بعض الشباب هناك في المتاجرة ببعض الأشياء القانونية، لتتسع دائرة معاملاتي وتتحول لتبيض الأموال، لكن على مستوى ضيق... في الأول كانت في إيطاليا، لكن تطورت بعد انتقالي للعيش في الجزائر بنية الانتقام لا الاستقرار، وبتحريض من والدي. أكيد بعدما بحثت جيداً، وسألت عن زليخة، وعرفت أن بسمه تسكن معها، فانتهزت الفرصة لتكون بسمه الطعم لتحقيق ما جئت من أجله.

وللمرة الثانية كلماته كانت كالصاعقة على بسمه؛ تنصت لكلامه غير مصدقة، وهو يعلن عن اسمه ونسبه وحقيقته مجيئه وحقائق أخرى؛

تنتظر في القائمة، لتظهر بالتدريج. تقف وكأنها في حلقة وكل شيء يدور من حولها؛ يقترب ليطعنها في أي مكان ويترك الزيف ليعاود طعنة أخرى وهكذا...

كانت كلماته كالخنجر؛ عرف كيف يوجه رأسه الحاد ليفلح في طعنها وسط القلب الذي أحبه، ولم يترك مكاناً لغيره.
تنهد مهدي وإستطرد قائلاً:

- كانت المهمة صعبةً في أول الأمر، لكنها صارت أسهل بعد وفاة زليخة، وتركت الطريق أمامي، لن أخفيكم أن هدفي كان تحطيمها، وأخذ كل شيء، لكن مع مرور الأيام ومع تطور علاقتي خاصةً في مجال تبيض الأموال وتسريبها نحو الخارج وجدت لذةً في البقاء والاستقرار، كما أنني خمنت في جلب والدي المشلول من إيطاليا...

وما لم يكن ضمن مخططاتي وخارج أهدافي أنني وقعت في حب بسمة، وأدركت أنه يمكن امتلاكها، وأخذ كل ما لها بعد الزواج ودون أي صعوبة، حتى أنني فكرت في إخبارها الحقيقة عن صلة القرابة التي تجمع والدي بزواج زليخة، وأوهمها بأنني لم أكن أعلم، وأن الأمر كان بمحض الصدفة.

لكن الشيء الذي لم أتقبله هو وجود أمها الخرساء العرجاء بيننا، وفكرت أنه بعد زواجنا ستكون عقبةً في طريقي ومصدر إزعاج وخجل

لي ولأولادي، ولن أستطيع أن أواجه العالم بامرأة قروية خرساء أمام كل معارفي وأقاربي، فقررت إكمال خطتي، والتخلص من والدتها، وذلك بترحيلها خارج الوطن، وكان الأمر سهلاً باعتبارها خرساء...

وبقيت عند قراري، ولم أغیره رغم تغير مشاعري؛ التي خانتني اتجاه بسمه، والتي تحولت من كره إلى حب حقيقي، حتى تخلو الساحة لي وبقى لوحدا ولن يعود لها سند أو أنيس غيري.

وأكملت خطتي في المدينة المنورة بعدما قامت شابة تعرفت عليها في إيطاليا من جنسية لبنانية؛ تعمل كتاجرة، وما كان عليها سوى أن تأخذ نعيمة، وتوهمها أنها تعمل في المطار وتجلسها بقاعة الانتظار لأن الشرطي طلب منها ذلك وباتفاق معه بعد أن أخذ الثمن، وأربك مصطفى وزوجته بوجود إشكال في جوازات السفر...

فأخذتها إلى المرحاض، وقامت بتخديرها، وأعادتها إلى مكة. حيث أوهمتها بأنها السبب في شلل والدي وهذا أحسن انتقام لها، وفعلاً نفذت الخطة بعدما قامت أخرى بإرباك الأطفال والتكلم معهم حتى لا يلاحظوا اختفاء نعيمة.

كما أن المستودع كان من بين الأمور التي سهلت لي تهريب الأموال، وكان المقر لكل مخططاتي في غياب بسمه لأنني من كان يملك المفاتيح لمتابعة أمور المكتبة.

نفذت خطتي وكانت سهلةً بوجود سمير الذي جعلته طعمًا بإغرائه بالمال وتشغيله معي لكن دون علم بسمه، وبعدها ورطته في قضية الخطف حتى لا يشي بي، وأكملتها بعملية تحويل الأموال، لكن لم أدرك أن أي جريمة مهما كانت كاملةً ستكون فيها ثغرة تكشف كل شيء، لأفاجأ اليوم بأمور ظهرت كانت عكس التيار وأفسدت خطتي وخسرت بالمقابل كل شيء.

حكاية سردها مهدي أمام الجميع ليكمل اعترافه وتورطه، لكن أمره كان مختلفًا عن بقية المتهمين لأنه كان مفتاح اللغز وسبب كل المصائب التي حلت بهما، خطط ونفذ لينتقم وبعدها ليحقق أحلامه الكاذبة.

— جيد مهدي؛ كنت ذكيًا، لكن كما قلت ليس هناك جريمة كاملة، أردت إسقاط عدة عصافير بحجر واحد وبعدها صرت العصفور العاشق لتقع في شر أعمالك، وتحول انتقامك لحلم وبعدها لكابوس لن تستيقظ منه إلا بمرور سنوات، وأتمنى ألا يكون الوقت قد فات...

وما يحز في نفسي أنك أشركت في لعبتك القذرة هذه شبابًا لا ذنب لهم سوى أحلام أرادوا تحقيقها بطريق سهلة... الطمع والمال الحرام، والنتيجة أماننا اليوم.

قالتها القاضية وكأنها في محاضرة استخلصت نتيجة أبحاثها وأعلنت بأسف وبكل هدوء.

- المهم أتنقل للدفاع الضحية الأستاذة بسمة؛ ماذا تقولين في دفاعك؟
ودت لو لم تسألها، رافقت أمها ورحلت بعد أن توكل أمرها لله فلم
يبق لها سوى الصمت.

- سيدي القاضي. سيدي ممثل الحق العام. زملائي. الحضور
الكریم. ماذا أقول في قضية ولأول مرة أكون فيها الضحية والدفاع في
نفس الوقت بشكل افتراضي، لكنها الحقيقة، قضية لعبت فيها المحقق
والظالم والمظلوم لأتبين الحقيقة، وتنتهي بجلسة اعترافات متتالية،
والاعتراف كما تعرفون سيدي القاضي سيد الأدلة.

لن أعيد الأحداث وهي مرتبطة في القضيتين ومتسلسلة ولن أسرد
الوقائع وفاعلوها سردوها بالتفصيل وتفننوا في ذلك، ولم يعد مجال
لأي شك.

ما أريد قوله أنه للأسف الشديد كل ذلك الحقد والضغينة التي حملها
السيد مهدي ووالده للسيد إسماعيل كانت ظلمًا في حد ذاته، لأنه بكل
الوثائق الرسمية ملكية المنزل تعود للسيدة زليخة أبا عن جد...

وقامت بعدها ببيعه لي وهذه كل الوثائق نسخة منها، أما المكتبة
فوصيتها كانت أن تكون وقفًا لا تُباع ولا تُشترى لتبقى مكتبة للطلاب
على مر الزمان. كانت أمنيته هي وزوجها، وفعلاً طبقت وصيتها
بخصوص الوقف، أما المنزل فابتعته بموجب عقد بيع.

واليوم تتبخر كل الأحلام ونركض وراء سراب. مشوار بدأه والد المتهم ليكملة هو سخطاً وظلماً، زوج زليخة رحمهما الله حاول بكل الوسائل كما أخبرتني هي إقناع ابن عمه أنهم فقدوا منزلهم، وقدم له كل الوثائق، لكن للأسف هو لم يقتنع. وأصر على أخذ حقه أو توهم ذلك، واليوم سيدي القاضي النهاية واضحة أب مُقعد مشلول في الغربة وابنه يصارع قضبان السجن.

أما بخصوص حبه وما شابه فلا أريد الخوض فيه، فهو يخجل من الملكة التي اليوم أنا هنا بسببها أمام هيأتكم الموقرة أدافع عن هذه القروية الخرساء.

أنا القروية وأعتز بأصلي، وإن كانت هذه السيدة (واقترب منها واضعةً كفها على كتفها، وبعينيها دموع كبرياء) الجالسة هنا ستكون مصدر خجل، فأنا سأعتزل كل المناصب وأتنكر لرسالة الدكتوراه والمحاماة وحتى لشوارع هذه المدينة، ولهذا الحب اللعين ولكل النجاحات...

وخير لي أن أعود من حيث أتيت ابنة الأرض حاملة الفأس أغوص في تربتها أقلبها وأزرعها وفي النهاية أحصد وأتقاسم غلتها مع والدتي وأنا في حضنها خير من كل النفاق الذي أعيشه أو كنت سأعيشه من دونها.

سيدي القاضي هذه المرأة عاملت الشابين مهدي وسمير بكل حنان ومودة في صمت وبخجل ليجازيانها بالخطف وإرسالها خارج الوطن بأشنع الطرق بعد أن توضح كل شيء في القضيتين السابقتين، ووُضِعَت كل أوراق الاعتراف على الطاولة...

لن أطلب بالتعويض المادي سيدي القاضي لأنه لن يعوض هذه السيدة جزءاً من عذابها، وهي تحوم كالمجنونة في أرض غير أرضها لو لا لطف الله الذي سخر لها من يساعدها، وعلم وطن كانت وفية له، فرد وفاءها بأن أعادها لحضنه، فقط لأنها تعرف هذه الكلمة جيداً...

أما الخيانة فهي خارج قاموسها، لهذا أرجو أن تنصفوا هذه السيدة، ولن أقول المسكينة أبداً، وإنما البطلة التي واجهت وجابهت ولا تزال واقفة من أجل انتهائها، التي ستعيش تقبل قدميها، لأنه وإن كان هناك من يخجل منها أو من نسبها؛ فهي إمبراطورة في عيون الكثيرين، ولا تنتظر شفقة أحد. ولكم سيدي واسع النظر وشكراً.

وما إن أنهت كلامها حتى وقف الجميع يصفق لها في صمت ودموع، أغلبية الحاضرين ترافقهم وكأنهم يشهدون فيلماً تراجيدياً، لكنه حقيقي. واستيقظوا بعدها على صراخ القاضية.

- سكوت؛ لسا في محاضرة هنا أو مسرح، فليهدأ الجميع أو أخرج كل من في القاعة...

كان لا بد لها من التحكم في زمام الأمور، لكن هي في حد ذاتها نسيت دورها كقاضٍ وغاصت في كلمات بسمه متأثرةً بدفاعها وعنفوانها، قوتها وحبها لوالدتها دون أن تحسس هيئة المحكمة بذلك، وأثبت في الأخير أنها قروية وتفتخر.

أما باقي المتهمين فكانوا في موقف لا يُحسدون عليه خاصةً مهدي؛ الذي خسر كل شيء، وأدرك أنه كان يجري وراء سراب بسبب حقد زُرع في صدره، وكبر كنبته تفرعت أشواكها، وجرح قلب من أحب وصيره عدوًّا... بقي يحصد كل أشواكه لتقلب عليه وتطوقه وينزف هو، ويسقط في حفرة نسي مكانها وسلك الطريق الخطأ؛ ليسقط فيها ويجر آخرين معه أعمى عيونهم الطمع.

لتحول الكلمة بعد ذلك فوراً لمحامي سمير، وبعدها جمال اللذين عجزا أمام دفاع بسمه واعترافات موكليهما والتمسا تخفيف العقوبة لهما. - القضية في المداولة الأسبوع القادم. رُفِعَت الجلسة لمدة نصف ساعة، ونعاود استئناف القضايا...

خرجت بسمه تحس بالانتصار رافعةً رأسها عوض الهزيمة التي تكبدها مهدي، وأمها بجانبها، أما هو فخسر كل شيء حتى والده المقعد في بلاد أخرى لا يعرف عنه شيئاً.

حقد أوهمه بأحقيته في امتلاك شيء ليس من حقه أصلاً...

- صدمت بكل ما سمعته. لم أتخيل هذا.

قالتها حياة وهي مجتمعة بمصطفى وعائشة رفقة بسمه ونعيمه...

- من أجل منزل تُخْطَف امرأة تُصَنَّف ضمن الملائكة وليس البشر
والنتيجة أمامنا ضاعت حياة شباب من أجل الطمع...

هكذا ردت عائشة؛ ليكمل مصطفى ونعيمه تنصت إليهم ترد
بجوارحها رفقة بسمه.

- والكارثة أن مهدي يبوح في الأخير بحبه لبسمه؛ الشيء الوحيد
الذي لم يخطط له، هه. يظن أنه سينفذ وينجح في كسب ما تبقى من
عطف بسمه عليه.

حينها استدار الجميع لبسمه وهي تنصت لا تعلق بكلمة، ولا
تستطيع التحدث أو التعليق لأن من غدر وخان حبها كان الحب في
حد ذاته، زرع هذه الكلمة في قلبها، وتعلمتها منه لكن حصدت ما لم
تتوقعه: دموع وألم جراء غدر وخيانة.

بعد أسبوع...

بعد أن وُضِعَت القضية في النظر كانت كل الأعين شاخصةً تنتظر نهاية القصة بكلمة من القاضي، في ذلك اليوم تعمدت بسمة إحضار والدتها والجميع رافقها للتضامن معها، وهناك من دفعه الفضول ليكمل نهاية هذه الرواية لا يهم. المهم ما ستحكم به المحكمة.

- قضية رقم ١٢٥٥...

- فاتح رميل، سمير ساعد، مهدي حرباوي، جمال رابحي. بسمة نعيمى...

- إذن الجميع هنا... (بعد أن تم التأكد من حضورهم)... حكمت المحكمة علنيًا ابتدائيًا حضوريًا على المتهمين بتهمة مخالفة التنظيم والتشريع وحركة رؤوس الأموال من وإلى الخارج طبقًا للأمر ٢٢/٩٦: على المتهم فاتح ريملي بالسجن لمدة سنتين حبسًا نافذًا، وعلى سمير ساعد بالسجن لمدة ثلاث سنوات حبسًا نافذًا، أما على مهدي حرباوي وجمال رابحي فبسبع سنوات حبسًا نافذًا.

ولديكم الحق باستئناف الحكم في مدة عشر أيام.

- الملف الثاني قضية رقم ١٢٧٨...

- سمير ساعد، مهدي حرباوي، جمال رابحي. نعيمة زعرور.

تقدمت هذه الأخيرة رفقة ابنتها والجميع ينظر مترقبًا ما ستحكم به المحكمة في هذه القضية.

- حكمت المحكمة عليًا ابتدائيًا حضوريًا طبقًا للمادة ٢٩٣ من قانون العقوبات بتهمة الخطف والحكم على المتهمين بالسجن عشر سنوات حبسًا نافذًا.

كلمة فاصلة وقف لها كل من في القاعة يهتفون «ظهر الحق... ظهر الحق»، وهنا القاضية تركت الأمور متعمدة وكأنها تريد أن تبارك لنعيمة وابنتها لتذوقا نشوة الانتصار، مقررّة رفع الجلسة لمدة عشر دقائق.

دموع فرح كانت أول المباركين لبسمة ووالدتها والجميع يهتفون القرويتين، من يعرفها ومن تعرف عليها في الجلسة وأبى إلا أن يقتسم معها فرحة الانتصار، انتصار آخر تحقّقه تلك القروية، وتثبت وجودها ليرحل مهدي وكل شركائه منهزمين مكسورين يجرون سنوات الحبس في أذيالهم عليها تكون أحسن جزاء.

بعد مرور سنة...

رغم مرور كل هذه الأيام مرافقة الشهور لم أستطع النسيان وبقيت كلمات تخنق حنجرتي تأبى الرحيل حتى تصل لأذن من يستحقها، هكذا أكملت بسمه آخر صفحات مذكراتها لتسرد نهاية هذه القصة.

— منذ سنة كنت في نفس المكان أنتظره بلهفة وخوف وألم ووجع،
أريد تبرئته لنكمل مشوار حبنا، وجمعنا قفص حلمنا به سجننا نحن،
وليس هذا السجن لكن اليوم أنتظره مشفقةً لحاله أريد أن أعزیه في
السنوات التي ستذهب هباءً منثورًا من حياته بسبب حقد وطمع،
والأكثر من هذا أنه خجل من أمي، وهذا ما لن أغفره له أبدًا.

بينما هي كذلك تحضر الكلمات إذ به يدخل بخطي ثابتة لكنها
بطيئة، لا يعرف من ينتظره؛ ليصطدم بها. آخر شخص يتوقعه.

خاطب وجدانها وروحها قبل أن تنطق بكلمة، بروح يائسة وقلب
مكسور ونفس مهزومة...

— لماذا قدمت؟ عمدًا تريدني إيقاظ ذكريات دفتها، أم هي من دفنت
الحب في قلبي. حب أردت أن أسطو عليه فسايرني، ويوم تصالحت مع
مشاعري رفض صدقي ورماني من الأعلى وتركني كريشة تتلاعب بها
رياح؛ كانت الجلاذ وكنت من يستحق الجلد.

نظرت إلى وجهه المغطى بالشعر لم يتحرك قلبها كالسابق أو تتسارع
نبضاته، لكن هو من خفق قلبه بشدة وكأنه طائر مذبوح اختلطت عليه
مشاعر حب مضى أو خجل أو وجع لفقدانها.

جلسا متقابلين صامتين كما كانا يفعلان في الماضي... من يبدأ بالكلام
ويملك الشجاعة للمبادرة وفتح الجروح. جروحها هي وخيباته هو.

- كيف هي أمورك مهدي؟

تبسم ساخرًا من نفسه وعيناه مغروستان في الأرض وفضل عدم الرد.
- لا أعرف سبب قدومي إلى هنا ولا تسألني، لكن بقي صوت يعيد نفسه ويصرخ داخلي للقائك، لأن ما بيننا لم ينته في قاعة المحاكمة، وكان لا بد من لقاء أخير نصفني فيه ما بقي من حسابات عالقة.

- هه. تودين رد الانتقام؟

- أنت مخطئ، فانتقامك انقلب عليك كالسحر على الساحر، وإنما أحببت معرفة الوجه الحقيقي للشخص الذي كنت أو توهمت أنني أحببته.
أول مرة رأيتك فيها تملكني شعور لم أعرفه من قبل كره، إزدراء وأنا أتمعن في كبريائك الزائد. كأنه تكبر أو ترفع لم أطق حتى النظر إليك.
لكن بذكائك حولت كل تلك المشاعر لورود معطرة غلفت قلبي الشريد، أردت تضميد جرحه ومسح دمه وإحكام نبضه فقط بحبك أنت...

حسبتك أبي وقد غدره الزمن وخانه النهر الذي روى أرضه، وجعلتك الأخ الذي لم تنجبه أُمِّي تلك القروية التي خجلت من وجودها في حياتك. بعدها اكتشف قلبك بحبه الكبير لي على حد قولك.

رسمت خطتك وأتقنت تنفيذها، وضعت المصيدة؛ فكنت أول ضحاياها، أردت مسح عائلتي من الوجود بسبب أطماعك وليتها كانت من حقك. واليوم تتجرع نتيجة غدرك والضحايا كثيرون.

- لم أتخيل يومًا أنني سأحبك لهذه الدرجة... خططت لتوقيعك في شباكي لأتركك تتألمين، وأنا أظفر بحق والدي الذي طالما زرع الحقد في قلبي لأنتقم لغربته وخسارته، لكنني كنت أركض وراء سراب وكذبة.

لا أنكر أنني في الأول أردت إزاحتكن عن طريقي. وبعد وفاة زليخة ظننت أن مهمتي أضحت أسهل، لكن كما قلت انقلب السحر على الساحر، وبدأت روحي تتشوق للقياك... تعودت على صوتك، وكأنه سيمفونية تتسلق سلمها الموسيقي لتغرس في قلبي وتنثر ألحانها...

عشقت وجهك وثرغك المبتسم، عينيك البريئتين، ثقتك بنفسك، وحتى حبك لوالدتك، لكنني لم أستطع أن أتقبل وجود أمك بيننا...

وأردت إكمال خطتي حتى بعد اكتشاف حبي وولعي بك، وذلك بإزاحة والدتك من طريقي، وضرب عصفورين بحجر واحد... زوجة متعلمة جميلة، ومنزل هو من حق والدي، وبعدها أبناء يعيشون مفتخرين بوالدين يكونان لهما المثل الأعلى...

لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وتفاجئنا الأيام بما لا تهوى النفوس، وتسجن بعدها القلوب في قفص الألم...

وختم كلماته ذليلاً منكسراً منهزماً وتنهد مستطردًا.

- فكنت السفينة وصرت النفس المجروحة وسجنت قلبي المتحرر
بحبك ألم ووجع وأكمل القدر مكافأتي بوفاة والدي حزناً علي، وأخذ
معه عوض ما تمناه حسرةً وألماً.

- لماذا قررت نفذت وغدرت وأكملت لعبتك حتى بعد حبك لي،
كنت تعرف جيداً أنني قروية حتى النخاع وحب أمي أوشك أن يصير
عبادةً، لكن العبادة لله وحده.

ظننتك ذكياً، لكنك حاربت نقطة ضعفي فاستقويت عليك...
خطفت أمي وحاولت سجنها بين جدران الغربة، فسرقت حريتك
وسجنتك بدلاً عنها

نسيت أنني ابنة الأرض أتفياً ظلال التين والزيتون، أتمرغ في وحلها
والتراب يتطاير بسقوط المطر، عطري رائحة الطين وصديقي نهر جارٍ
مبدأه عدم الرجوع إلى الخلف، وأنا قررت عدم الرجوع إلى الوراء،
وقطع الشك باليقين، ومعرفة من أراد غدري وزرع الرعب في قلب
والدتي البريء.

ظننت أننا لقمة سهلة؛ ريفيتان ساذجتان أردت أن تكون الوطن
عوض أمي وفي نفس الوقت جعلتني أعيش فاجعة اختفائها، جعلت
نبضاتي تستقر بين جدران قلبك، ونسيت أنك تركت فراغاً في قلبي لا
يملؤه سوى أنفاس أمي.

لم ضيعت حبا، وأردت أن يُبْنَى على أنقاض حزني وامرأة كانت تحسبك ابنها، ركضت وراء أحلام متناثرة فعصف بها الريح، وغدت رمادًا تكونت من نار وخمدت بماء الغدر. أندم على كل لحظة نبض فيها قلبي لأجلك ومن أجلك، جئت لأعزيك بوفاة والدك وأودعك، وأدعو الله أن يفرج عنك ويفك أسرك.

وهمت بالنهوض، لكنه أوقفها بصوته اليأس دون أن ينظر لوجهها:
- تمنيت لو كنا طائرين لجأ إلى وكرهما يتهامسان ويغردان ألحان الحياة بحلوها ومرها، بنيت قصرًا في مخيلتي بعدما أحبيتك، وصارت ابتسامتك تمد قلبي بحياة رسمتها أجمل لكن اليوم وبدونك... (ثم صمت لبرهة واستطرد مغيرًا كلامه بسؤال)... ستصبحين أمًّا عن قريب، صح؟ أم أنها مجرد أوهام تطاردني، وتنتقم مني بسبب ما لحقك مني؟
- قررت أن أمتهن المحاماة عندما دخلت أول مرة للجامعة لكسر القاعدة كما قلت ومساعدة الفقراء، فعلا كسرتها لكن بالدفاع عن أمني ضد من حسبته الحبيب وأنا العاشقة بين صفحات قلبه. بعدها تنهدت وإستطردت قائلة:

- لن تلاحقني الأوهام بعد اليوم مهدي، فمن ظننت أنني أعشقه خان حبي بخجله من أصلي، ومن لم أعره اهتمامًا جعل من خجلك

تاجًا فوق رأسه يتفاخر به بين البشر، وكانت أُمِّي ذلك التاج، وسيكون
أب طفلي القادم زوجته ريفية، وأم زوجته كذلك...

لن يخجل من ذلك المزج الذي بسببه ضيعتني من يديك، فانتصر
التكبر في قلبك، وأردت أن تجعل مني ابنة المدينة وامرأة تتفاخر بها،
مجسمًا ترسمه كما أحببت أنت، لكن زوجي قبل بأصلي كان سببًا في
العثور على والدتي، ومن دون قصد حين أرسل لي السيد مصطفى.

كل يوم يتعلم من والدتي تقاليد أهل الريف لينسبها إليه، كما أنه
رافقني لبيتي حيث وُلدت وقرر ترميمه لتقضي فيه أيام عطلتنا، وكلما
سمحت الظروف، ليس أنت من أردت تهديم أصلي وترميم ما تبقى
مني حسب أهوائك.

أحب فيصل بشكل آخر، وعرفت الفرق بينكما، أعتبر حبك خدعةً
ونزوةً، لكن حبه الأصل، أعشق تواضعه، وحبه لوالدتي كان دافعًا
لأعشقه حتى الثمالة؛ عكسك أنت.

قدمت اليوم متخذةً قرار نسيانك، لأنني أذكرك كارهةً، جمعت
أحزاني المتناثرة وحرقتها أمامك لأبدأ حياتي من جديد وأكتب أنا
حروف صفحتها، ولن أسمح لأي شخص بتسطيرها.

كنت كتابي الذي أخفيت أحزاني بين أوراقه، لكن صرت وجعي
الذي سأدفنه اليوم. وداعاً مهدي...

وأكملت طريقها كنهر جارٍ لا يرجع للوراء فخورةً بأنها قروية لكنها
بألف رجل، أما هو فتركته لدموع الندم والوجع، تقاسمه جدران وقضبان
يحكي لها ذكريات لم ينل منها سوى أحلام تحولت إلى كوابيس.

- لم كل هذا التأخير.

أجابتها رافضةً أن تنزل دمعاً صارعتها وحبتها في مقلتيها كما
تركت الماضي محبوساً وراءها وأعلنت إنتصارها بإبتسامة رائعة.

- للتو خرجت من زيارتي.

- أصريت على الذهاب، لم أنت عنيدة هكذا؟

- حياة؛ أرجوك. قررت ونفذت كما فعل هو في الماضي حتى
أحرق كتابه أمام عينيه، المهم دعينا منه أين أجذك؟

- أنتظرك في الحديقة.

- حسناً لن أتأخر.

بعدما التقيتا كانتا جالستين صامتتين وكأنهما تطلان عبر نافذة
ذكريات الزمن القادم؛ تحاولان نسيان كل ما فات والتطلع لما هو آت.

- كيف هو عمر. لم تخبريني عن لقاءكما؟

- كان رائعًا وكأنه حلم لم أرد أن أستيقظ منه، آه؛ تدركين لم أتوقع يومًا أن يأتي شخص وينسيني يوسف وخيانتة... عمر أثبت حبه ورجولته بالرغم من أنه كان يعرف أنني لم أتقبله، لكنه أثبت وجوده وترجع على قلبي وأنساني ماضي يوسف الأسود.

- تستحقين سعادة العالم حياة.

- وزوجك العاشق كيف هو؟

- آه؛ لا تذكريني، كل صباح يخبرني عن أيام الجامعة وحبه الذي كان سرًّا؛ ظل يخفيه في قلبه، وكيف أنه أراد مصارحتي وبعدها يمازحني بأنه سيعيد مغازلتني، ويعوض سنوات حرمانه وخجله، ثم يمازح والدتي، ويتفق معها بأنهما سيكونان حلفًا ضدي...

لا تتخيلي يا حياة مدى سعادتي وكيف أن الله عوضني، صحيح أنني أردت الانتقام من مهدي، وأسرعت في تفاصيل الخطوبة والزواج عندما طلبني فيصل. خاصةً بعدما أخبرني بحبه لي منذ أيام الجامعة، لكن فقره وعدم قدرته على أخذ مثل هذه الخطوة وهو ما جعله ينتظر...

وكانت خسارته لي ندم حياته، ويوم سمع بقصتي مع مهدي، حتى أنه حضر المحاكمة وبعد النطق بالحكم مباشرةً عرف أن الله عوضه

صبره، وتقدم لخطبتي فوراً، ترددت في البداية لكنني قرأت صدقه من نبرة صوته، ومواقفه، وكل شيء فعله لأجلي...

واحترمت سنوات حبه لي، وهو يقضيها في صمت وحتى بعد خطبتي لم يقرر الزواج لأن القدر كان سيجمعنا، وهذا ما جعله ينتظر. ولو كان أملاً كاذباً...

الحمد لله عوض الله صبري وعذابي أنا ووالدتي، أنا بزواج محب وفي، وهي بولد صالح يحبها ويقدرها كأنها والدته.

أتمنى أن يكون عمر كيفصل ويعوضك حياة تستحقينها عوض السراب الذي جمعتك بيوسف.

— أتمنى ذلك بسمه.

— هه؛ أخبريني وأخبارك مع الحمل؟

— آه؛ متعبة، كما ترين حياة كل يوم يزيد وزني وأصبح كالدب.

— وماذا قال مهدي عندما رآك بهذه الحالة.

— لم يقل شيئاً فقط لمح لحبه الغابر؛ والذي تمناه يوماً، لكن كما يهوى، وعلى حسب مقاسه الأرستقراطي الكاذب.

— وبينما هما كذلك حتى سمعا صوتاً من بعيد يكلمهما...

— لقد جئت يا خالتي، ألم تشاقا لي؟

كان حسام يمسك يد ابنته التي تبلغ سنتين من عمرها تركض كدمية رائعة الجمال نحو بسمه وحياة، وتترنح في مشيتها كالأميرة.

- جزائر حببتي...

ركضت حياة وحملتها تقبلها وتحضنها، ثم نهضت بسمه، وأخذتها منها وحضنتها بدموع منهمرة تقبلها من وجهها وفي كل زاوية منه.

- كيف حالكما، أراكما بخير؟

- شكرًا حسام، وزوجتك كيف هي؟

- بخير شكرًا، قريبًا ستضع مولودنا الثاني.

- آه؛ مبروك أتمنى لها ولادةً يسيرةً، اشتقتنا للأميرة الصغيرة أطالت الغياب.

- صحيح كنا نزور والدتي، هي متعبة قليلًا، رجعنا منذ يومين فقط.

- أتمنى لها الشفاء، إذن ستترك معنا هذه الأميرة كما كنا في الماضي مع جزائر رحمها الله، لدينا أسرار نحن الثلاثة خاصة بالنساء فقط.

ضحك الجميع لكلام بسمه، وتركهما حسام كعادته يتجولان مع جزائر ابنته الصغيرة ليعود إليها لاحقًا.

- لا أصدق يا بسمه، كان حسام شهيمًا وسمى ابنته على اسم جزائر رحمها الله. وترك ذكراها حيةً بيننا...

- وكأنني في الجامعة أتجول مع جزائر وهي تمازحنا وتركض كطفلة صغيرة، أحس ابنة حسام كأنها ابنتها رحمة الله عليها؛ صورة مصغرة عنها أهداها لنا القدر حتى لا ننساها...

صحيح أنني كلما أراها توقظ بقلبي نارًا كأنما أضربت البارحة
يوم جنازتها يوم ودعناها وقد خان الزمن صداقتنا، فقرر الرحيل وأخذ
ابتسامتها منا.

سافرت كمروس لقصرها الأبدي مرصعةً بجواهر خالدة وتركت
فراقها يتربع على قلبي، لكن الله عوضنا بجزائر الصغيرة الأميرة وكان
حسام أصيلاً؛ لم يحرمنا منها فكلما أتأملها أرى صداقتنا فيها وسعادتنا
باحضانها ومرافقتنا عوض جزائر الغالية.

- الله كريم، فجزائر كملاك تنظر إلينا وتبعث ابتسامتها في هذه
البراءة حتى تطفى نار اشتياقنا.

- لن ننساك ولن نفتقدك لأننا نعيش على ذكراك مع أمل جديد وهدية
بعثها الله لنا ليعوضنا رحيلك، رحمة الله عليك وأسكنك المولى عز
وجل فسيح جناته.

ثم أمسكا بيد جزائر التي توسطتهما وذهبن يرافقتن نسيم الأيام عله
يمحي أحزانهما ويرسم بسمات في شفاههما التي طالما رافقت الحزن.



أهدانا القدر ورودًا لطالما اشتقنا لاحتضان عطرها ونثرها بين
جدران قلبي. قلوب تشوقت لدخول جنة تمتتها لكن بقيت على الحافة
تنتظر، فمذكراتي تحكي عن نسوة أحلامهن مؤجلة لهذا قررت عنونها
ب: «قلوب على حافة الجنة»...

تنهدت وهي تكتب هذه الكلمة في مذكراتها. هل صحيح هي النهاية أم بداية عمر آخر، فقط أرادت من خلال مذكراتها إتمام ما بدأته وحتى لا تخون ماضيًا؛ حاربت من أجله، وخسرت كثيرين، وربحت محبة آخرين، والأهم من كل ذلك أنها لم تخن مبادئها.

رجعت للوراء مستندةً على الجدار في فناء المنزل؛ تحاول جمع أوراقها وكأنها تلملم جروحها. أغمضت عينيها وهي تعيد شريط ذكرياتها، وعقب أزهار الريف يداعب أنفها لتستنشق ماضيها وتفتخر بكونها فلاحاً ابنة فلاحه.

لم تستيقظ إلا على يد تضغط بكفها على كتفها بحنان، رفعت رأسها فرأت ذلك الوجه كالملاك تبسم لها كما كانت في الماضي عندما يأخذها التعب، ويغرقها في نوم عميق، أمها التي ضحت من أجلها فردت الجميل بالتفاخر بأصلها وكونها ريفية.

قبلت يديها ورسمت على شفتيها بسمه شفافةً قائلةً:

- أنهيت مذكراتي وكنت بطلتي يا أمي. سأنشرها وأوزعها حتى يقرأ كل شخص شجاعة تلك المرأة الأمية الريفية الإمبراطورة ملكة قلبي التي صنعت ما عجز عنه رؤساء وملوك...

تعرفين من أفتقد اليوم؟ خالتي زليخة، آه؛ لو كانت بيننا لاكتملت فرحتي، لكن تبقى أيامنا ناقصةً توقظ فينا شوقاً لا ينتهي.

- بسمه. بسمه أين أنت؟

- فيصل ما بك تصيح هكذا؟ هه ما أنت فاعل بنفسك؟

- فلاح زوج فلاحه وابن فلاحه، «جلبية» فأس وللعمل هيا يكفي تكاسلاً.

ثم حمل ابنتهما زليخة على كتفه، وأمسك بيد نعيمة، وصاح بأعلى صوته وهو متوجه للأرض.

- اتبعينا يا زوجتي العزيزة موسم الحرث بدأ والحصاد يظهر المجتهد من الكسول، إذن فلتكوني نملةً عوض الصرصور...

فضحك الجميع، ونظرت بسمه لمذكراتها، وكتبت كلمة النهاية معلنةً نهاية أيام وبداية أخرى، وركضت وراءهم حاملّةً ابنتها زليخة بين يديها ترافق فيصل ونعيمة وخصلات الغروب بألوانها تودع الجميع على أمل اللقاء غدًا.

بشرى بوشارب

قسنطينة/ الجزائر، ٠١/٠٨/٢٠١٧

